J A D A L

رواية

هيرمان هيسه

روزهالده

ترجمة: عبدالوهاب المقالح

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

روزهالده

هیرمان هیسه

روزهالده

هيرمان هيسه

ترجمة: عبدالوهاب المقالح

العنوان الأصلي Rosshalde

Hermann Hesse

1914

الطبعة الأولى: يونيو 2021م

المطبعة: شركة المطبعة الألمانية للطباعة والتغليف ذ.م.م. - الكويت

ISBN: 978-9921-774-02-3

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، لنجعل عملية الإبداع أكثر أماناً.

منشورات جدل

JADAL PUBLISHING

دولة الكويت

WWW.JADALBOOKSTORE.COM

(+965) 99900912

JADAL.PUBLISHING

هيرمان هيسه

روزهالده

ترجمة

عبد الوهاب المقالح

كلمة المترجم

عليّ أن أعترف أن ترجمة هذه الرواية قد أرهقتني كثيرًا؛ بسبب ذلك القدر من الحزن والمعاناة والمرارة القاسية الضارية والنقية العظيمة أيضًا، التي تطالعك في صفحات هذه الرواية، والتي تتطلب قدرًا كبيرًا من قوة الاحتمال.

بقيت الرواية بعد ترجمتها سنوات عديدة في درج ما. وكانت بذلك أشبه برصيد حزن ومعاناة أدخره للشدائد، وأستمد منه وقت الحاجة ما يعينني على مدافعتها. لست أدري إن كنت بتأجيل نشرها ـأو فلنقل بالإهمالـ قد كنت أنانيًا. ألا أكون بذلك قد حرمت أولئك النفرـ وأخشى أن أقول القليل للأسفـ من قرَّاء الأدب العظيم ليس فقط من المتعة بل من الظفر بتلك الذخيرة العظيمة من القوة والثبات والطُهر التي يستمدها القارئ من قراءته لهذه الرائعة. وهل يشفع لي صدور هذه الترجمة مؤخرًا بين يديّ القارئ؟ أرجو ذلك.

يروي لنا الكاتب الألماني العظيم (هيرمان هيسه) ـبأسلوبه البديع المتميزـ قصة فنان مبدع، احتمى بفنه في مواجهة مصير قاسٍ أصابه في أعزّ وأحبّ الناس إليه، وأحال حياته إلى كربٍ رهيب متواصل فتعايش معه بنبل وسمو، ونكران للذات، وأحاله إلى روائع فنّيه تُجمّل حياتنا وتسمو بها.

1

انقضت عشر سنوات منذ أن اشترى يوهان فرغوث روزهالده وانتقل إليه. كان المكان حينها عزبة مهجورة بممرات حديقة زحفت عليها الأعشاب والشجيرات، ومقاعد غطتها الأشنة، وأحجار السلالم المتشققة، وأرض مسيجة مهملة امتلأت بالأحراج المتشابكة. كانت المباني الوحيدة في ذلك العقار الذي يبلغ حوالي ثمانية هكتارات، مبنى العزبة الجميل، الذي بُني على منحدر بسيط، والزريبة، ثم كوخ صيفي صغير شبيه بالمعبد، كان بابه يتدلى من مفاصله المائلة ويستند على جدران الكوخ، وقد شدّ من قبل بسلك أزرق. كان الكوخ أيضًا مُغطى بالأشنة والتراب العطن.

بعد شراء البيت مباشرة، عمد المالك الجديد إلى هدم المعبد المتداعي، تاركًا فقط أحجار السلم العشر القديمة التي تنحدر ابتداء من عنبته إلى حافة بركة السمك. وبني فرغوث مرسمه مكان المعبد. وهنا ظلّ يرسم ويزجي وقته على مدى سبع سنوات، عاش قبلها في منزل العزبة حتى أفضى به الشقاق المتزايد في الأسرة إلى أن يرسل ابنه الأكبر إلى مدرسة داخلية، ويترك المنزل لزوجته وللخدم. وقد أضاف حجرتين ملتصقتين بالمرسم، وعاش فيها حياة عازب وحيد منذ ذلك التاريخ. كان أمر المنزل الجميل يدعو للأسف، إذ إن فراو فرغوث وبيير، ابن السابعة، لم يستخدما إلا الطابق العلوي، لقد كانت دائمًا تستقبل فيه الزوار والضيوف القليلين، ولذا فقد بقي عدد من الغرف فارغة على مدار السنة.

كان بيير الصغير حبيبًا لكلا والديه، وكان هو الرباط الوحيد الذي يوصل بين الأب والأم، فهو لم يحتفظ فقط بصلة وثيقة بين المنزل والمرسم، بل إنّه كان ـ بمعنى من المعاني ـ المالك الوحيد والسيد الحقيقي لروزهالده. كان المرسم هو حقل الهرفرغوث ومجاليه، وكذا شاطئ البحيرة، وتلك الأرض البراح التي حضرت من قبل لصيانة حيواناتها من أجل ممارسة لعبة القنص فيها.

أما زوجته فقد مارست سلطتها على المنزل، والمرج الأخضر وغيضتي الليمون والكستناء. نادرًا ما قادت أحدهما قدماه إلى منطقة الآخر، اللهم إلا في أوقات الوجبات، حين كان الرسام يعرج عادة على المنزل.

بيير الصغير، وحده لم يعترف بتقاسم تلك الحياة ومناطقها، إنه في الحقيقة لم يكن يعي تمامًا جوهر الأمر. كان ينتقل بحرية تامة بين المنزل القديم والجديد، وكان يشعر وهو في مرسم أبيه ومكتبته كما لو أنه في صالة وحجرة اللوحات في منزل العزبة، أو في حجرات أمه، كان هو أمير التوت في غيضة الكستناء، ومالك الزهور في غيضة الليمون، وسيد الأسماك في البحيرة، والمسيطر على حمامات الشاطئ والزورق الغندول. وفي تعامله مع خادمات أمه ومع روبرت خادم أبيه، كان يشعر أنّه السيد والمرعي معًا، لقد كان في عيون زوار أمه وضيوفها ابن سيدة الدار، وفي عيون السادة الذين يجيئون بين الحين والآخر إلى مرسم بابا ويتحدثون بالفرنسية، هو ابن الرسام. كانت لوحاته وصوره الفوتوغرافية تزين جدران غرفة نوم أبيه وكذا غرفة نوم أمه في الدار القديمة بجدرانها المغطاة بورق براق اللون.

كان بيير يتمتع بوضع أكثر رفاهية من كثير من الأطفال الذين يحيون في كنف أبوين منسجمين؛ إذ إن تنشئته لم تكن تخضع لأي برنامج محدد، وإذا ما شعر بشيء من التكدير في مقاطعة أمه، كما كان يحدث أحيانًا، فإن مقاطعة جانب البحيرة توفر له ملاذًا آمنا وادعة، كان قد أوى إلى سريره في وقت باكر، وعند الحادية عشرة، أظلمت آخر نافذة في منزل العزبة. وبعد منتصف الليل، عاد يوهان فرغوث بمفرده من المدينة حيث قضى المساء مع أصدقاء له في إحدى الحانات. وبينما كان يسير في ليلة الصيف الباكرة، العبقة والغائمة، تبدد منه أثر النبيذ والدخان وزالت عن وجهه حمرة الضحك الصاخب للنكات الفاضحة؛ راح يستنشق هواء الليل الدافئ الرطب مدركًا نداوته وهو يهبط بحذر الطريق الذي بين الحقول الشديدة السواد والتي تبشر بغلة وفيرة. اقترب من روزهالده بذرى أشجاره الباسقة الملتصقة والصامتة تحت سماء الليل الشاحبة.

ألقى نظرة إلى المنزل وهو يعبر مدخل العزبة، كانت واجهته الجليلة المشرقة تتألق بفتنة بإزاء عتمة الأشجار الداكنة، بقى يحدق لدقائق في المشهد البديع ببهجة وغربة مسافر عابر؛ ثمّ واصل سيره قاطعًا بضع مئات من الخطوات بمحاذاة السياج العالي حتى بلغ المكان الذي صنع فيه فتحة تفضي إلى ممر سري في الغابة يؤدي إلى المرسم. كانت أحاسيسه يقظة حادة، قطع الرجل الصغير القوي الأرض النامية الأحراج باتجاه منزله، بدت ذرى الأشجار المعرشة فوق البحيرة وكأنّها تفتح كرة السماء الجبارة الكليلة التي لاحت للعيان، وفجأة انتصب المنزل أمامه.

غرقت البحيرة السوداء الصغيرة في صمت تام، واستلقي الضوء الواهن على أديم الماء مثل غلالة رقيقة بلا حدود أو مثل طبقة لامعة من الضباب.

أبصر فرغوث إلى ساعته، كانت تقترب من الواحدة.. فتح بابًا جانبيًا إلى غرفة الجلوس. وهنا أشعل شمعة وخلع ملابسه بسرعة، وغادر المنزل عاريًا، وببطء هبط درجات السلم الحجري الواسعة ونزل في الماء الذي تلألأ لفترة قصيرة في تموجات خفيفة هادئة أمام ركبتيه.. خاض في الماء وتقدم سابحًا مسافة قصيرة في البحيرة، وفجأة شعر بوجل من فكرة قضاء المساء بطريقة غير مألوفة، فرجع، ودخل منزله وهو يقطر ماءً.. ألقى برداء الحمام على كتفه، وجفف شعر رأسه القصير وصعد عاري القدمين الدرجات القليلة إلى مرسمه (حجرة واسعة خاوية تقريبًا) وهنا أشعل كل القناديل بتكأّت عجلى توشك أن تكون نافدة الصبر.

أسرع إلى مسند اللوحات الذي يحمل قطعة قماش كان يشتغل عليها في الأيام الأخيرة. انحنى إلى الأمام، ويداه على ركبتيه، ووقف أمام الصورة يحدّق في أديمها الذي عكست ألوانه الطرية الضوء المزعج، وبقي هكذا لدقيقتين أو ثلاث يتأمل في صمت وإلى أن انبعثت اللوحة كلها ـ حتى آخر ضربة للفرشاة ـ حية أمام عينيه؛ كان قد اعتاد في ليالي السنوات الأخيرة ألَّا يأخذ معه في أيام العمل إلى سريره ونومه أيّة صورة أخرى غير تلك التي كان يشتغل عليها. أطفأ الأنوار، والتقط الشمعة، وآوى إلى غرفة نومه التي علّق على بابها لوحة صغيرة من الخشب. التقط قطعة طباشير وكتب بأحرف منضدة واضحة: "الصحو في السابعة، القهوة في التاسعة"، أغلق الباب خلفه ولاذ بسريره. تمدد لبرهة قصيرة دون حراك بعينين مفتوحتين مجبرًا اللوحة أن تتخذ شكلها في شبكية عينيه. ولما تشبعتا بها، أغلق عينيه الرماديتين الصافيتين، وأطلق تنهيدة رقيقة، وسرعان ما غاب في النوم.

وفي الصباح، أيقظه روبرت في الموعد المحدد، فنهض في الحال، واغتسل بالماء البارد الجاري، وانزلق في بدلة رشة ذات خطوط رمادية كالحة، واتجه صوب المرسم. كان الخادم قد أزاح ستائر نوافذه الثقيلة. وعلى طاولة صغيرة، استقر صحن فاكهة، وإبريق ماء زجاجي وقطعة من خبز الجاودار.. التقط ساهمًا قطعة الخبز وقضمها وهو واقف أمام مستند اللوحات يتطلع في رسمه. راح يذرع الغرفة ذاهبًا آيبًا، مبتلعًا ـ خلال ذلك ـ بضع لقيمات من الخبز، ومغترفًا عددًا من حبات الكرز من الطاسة الزجاجية، وقد لاحظ أنّ عددًا من الرسائل

والجرائد موضوعة على الطاولة لكنّه لم يُلق لها بالًا. وبعد فترة وجيزة كان يجلس في كرسيّه الخفيف يتطلع مليًّا في لوحته.

كانت اللوحة الصغيرة المستطيلة أفقية تمثل صباحًا باكرًا، شهده الرسام في رحلة ما وعمل له تخطيطات أولية عديدة. لقد توقف في حانة ريفية صغيرة على الراين الأعلى. لم يجد الصديق الذي جاء لرؤيته في أيّ مكان؛ فقضى مساءً تعسًا ممطرًا في نُزل، بهِ مشرب لبيع المسكرات، وأمضى ليلته في غرفة رطبة عفنة تفوح منها رائحة الكلس الذي طليت به الجدران حديثًا. وقبل شروق الشمس، استيقظ ساخطًا غاضبًا؛ بسبب قلة النوم. ولمَّا وجد باب البيت لم يزل موصدًا، تسلق نافذة المشرب وخرج، وعلى ضفّة الراين القريبة. فك رباط قارب وجدف في النهر البطيء الذي لم يكد الفجر أن يضيئه بعد. وحين كان على وشك أن يستدير عائدًا، لمح في الشاطئ البعيد صياداً يجدف نحوه. كان محيطها الداكن يستحم في ضوء فجر خافت، وقد بدا المركب الشراعي الصغير هائلاً بصورة غير طبيعية. أسرهُ منظر المركب والضوء الغريب لبعض الوقت، ثم سحب مجدافيه بينما اقترب الرجل منه أكثر، توقف عند علامة طافية، ورفع شرك صيد من المياه الباردة نوعًا ما.

ظهرت سمكتان كبيرتان بلون الفضة الباهتة، التمعتا مبتلتين فوق مياه النهر الرمادية لوهلة، ثم سقطتا مرتطمتين بقاع مركب الصيّاد. طلب فرغوث من الرجل أن يتوقف، والتقط علبة ألوان عتيقة وانهمك يرسم تخطيطًا أوليًا بالألوان المائية. أنفق اليوم بكامله في القرية يقرأ ويرسم تخطيطات، وفي صباح اليوم التالي ظلّ يرسم في الخارج، ثمَّ استأنف أسفاره. ومنذ ذلك الوقت، استغرق وقتًا طويلًا يقلب اللوحة في ذهنه، متجرعًا أنواع المشاق قبل أن تتخذ اللوحة صورتها النهائية. وها هو قد اشتغل عليها لعدة أيام وهي الآن توشك أن تكون ناجزة.

كان يرسم دوما في الشمس المشرقة أو في عسراء البرية الدافئ بضوئها المنكسر، أو في الغابة، ولذا فإنّ برودة اللوحة الفضّيَّة المتدفقة قد جشمته قدرًا كبيرًا من العناء، لكنَّها قد أرته وقعًا صبغيًا جديدًا ذا درجة لونية تخلف في النفس أثرًا معينًا ناجمًا عن الضوء والظل.

لقد وجد حلًا مرضيًا في اليوم السابق، وها هو الآن يشعر بأن عمله ذاك جيد، عمل غير عادي، شيء فيه أكثر من مجرد التشابه الجدير بالإطراء والثناء، ذلك لأن فيه لحظة دفقة من طبيعة غامضة تنبثق من ذلك السطح الزجاجي الكامد، مخلفة ألفة حميمة دافئة للطبيعة الوحشية الجامحة، نفحة ملأى بالحقيقة والصدق الخالصين.

راح الفنان يتأمل اللوحة بعينين يقظتين ويزن الأنساق اللونية على صفيحة الألوان التي بدت ـ بعد أن فقدت تقريبًا كلّ الألوان الحمراء والألوان الصفراء ـ شبيهة ـ إلى حد ما ـ بصفيحة ألوانه المألوفة.

نفذ الماء والأثير، كان السطح غارقًا في البرودة، والضوء المجافي المتجهم، وطفت الآجام والأوتاد على الشاطئ مثل ظلال في الندى المخضل، المفعم بحياة خاصة نصف وضّاءة وبدا المركب الشراعي البسيط الغارق في الماء غير حقيقي وكأن روحه قد حررت من جسده، وكان وجه الصياد أبكم، غير محدد، يعجز اللسان عن وصفه، يده وحدها كانت ممدودة بهدوء؛ لأن السمكتين كانتا حيتين على نحو حقيقي متصلب عنيد. نطت إحداهما على حافة المركب متلألئة؛ واستلقت الأخرى منبطحة بسكون، فمها المستدير المفتوح وعينها الصارمة المخيفة مليئة بعذابات مخلوق بائس. كان كل شيء باردًا يغمره حزن قاس، لكن صامت ولا عيب فيه، خال من الرمز إلا من ذلك النوع البسيط والذي بدونه لا يكون هناك شيء من الفن، إنه ذلك القدر الذي يسمح لنا ليس فقط بأن نشعر بجبروت الطبيعة المبهم كلها، بل إنه أيضًا يجعلنا نحبها بنوع من الدهشة الجميلة.

وفي حين كان الفنان جالسًا إلى لوحته على مدى ساعتين، طرق الخادم الباب، ولما لم يصله ردّ من سيده، دخل بالطعام. وضع الأباريق والفنجان والصحن، وحرك كرسيًا وانتظر لبرهة في صمت، ثم أعلن في استحياء:

ـ الفطور جاهز، يا سيد فرغوث.

قال الرسام وهو يحكُّ بطرف إبهامه آخر ضربة فرشاة صنعها في ذيل السمكة القافزة.

ـ أيوجد ماء حار؟

غسل يديه وجلس إلى قهوته. قال مبتهجًا:

ـ يمكنك أن تحشو لي غليونًا يا روبرت. لا بد أن الغليون الصغير الذي بدون غطاء هو في غرفة النوم.

ذهب الخادم، وارتشف فرغوث القهوة القوية بحماسة شديدة، وإذا ببوادر الدوار والإرهاق الثقيلة الوطأة ـ التي راحت تعتريه مؤخرًا عقب كل مجهود مضن ـ أخذت تتصاعد مثل ضباب الصباح.

تناول الغليون من خادمه وتركه يشعله له، ثم جعل يعلب الدخان الفواح بنهم مما قوي ولطَّف أثر القهوة.

أومأ بإصبعه إلى لوحته وقال:

ـ أظن أنك قد ذهبت للصيد حين كنت صغيرًا، يا روبرت؟

ـ نعم يا سيد فرغوث.

ـ انظر إلى تلك السمكة، ليس إلى التي في الهواء، الأخرى ذات الفم المفتوح؛ هل الفم كما يرام؟

قال روبرت بتردد وشك:

ـ إنه على ما يرام.

وأضاف بنبرة لوم كما لو أنه استشعر سخرية السؤال:

ـ لكنك تعرف أفضل مما أعرف.

ـ لا، يا صديقي، هذا ليس صحيحًا. إنه فقط في فترة الصبا الباكر وحتى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، حيث يستطيع الرجل أن يستقبل الأشياء بكل رهافتها وطراوتها؛ أما بقية حياته كلها فإنه سيظل يستفاد من تلك الخبرة. أنا لم يحدث لي أن فعلت شيئًا يتصل بالصيد وأنا صغير، وهذا هو سبب سؤالي. قل لي ـ إذن ـ هل الأنف صحيح؟

قال روبرت مجاملًا:

ـ إنه جيد، صحيح تمامًا.

نهض فرغوث من جديد وأخذ يتفحص اللوحة. تطلع إليه روبرت. كان يعرف ذلك التركيز الذي يهلّ على عيني سيده، ويمنحهما منظرًا يوشك أن يكون كامدًا، وعرف روبرت أنّه هو، والقهوة، وحديثهما القصير قد تلاشوا جميعًا من ذهن فرغوث وأنه إذا ما خاطبه بعد دقائق، فإن الرسام سينتبه كما لو أنه استيقظ من سُبات عميق. إلَّا أن ذلك يُعدّ مجازفة. وعندما كان روبرت ينظف الطاولة، وجد البريد موضوعًا عليها دون أن يمسّ. قال بلطف: "سيد فرغوث".

كان الرسام لا يزال متاحًا، ويمكن الوصول إليه. رمقه بنظرة شزراء من فوق كتفه، نظرة تشبه إلى حد بعيد نظرة رجل مجهد خوطب وهو على وشك أن ينام.

"بريدك". قال روبرت ذلك وغادر الغرفة. ضغط فرغوث بنزق بقعة من لون أزرق مخضر على لوحة ألوانه، رفع الأنبوب عن منضدة الألوان الصغيرة المغلقة بالرصاص وشرع يمزج ألوانه. ولكنه شعر حينئذ بالتكدير من تذكير خادمه. حطَّ ملونه بعصبية والتقط الرسائل: (الجوابات العادية عن أمور تتعلق بالعمل. . دعوة للمشاركة في معرض مع مجموعة من الفنانين.. طلب من إحدى الجرائد لبعض المعلومات عن سيرة حياته.. فاتورة) ثم اجتاحته موجة من البهجة حين لمح كتابة بخط يد يعرفه تمام المعرفة؛ التقط الرسالة وأخذ يقرأ اسمه بفرح ثم قرأ العنوان كلمة كلمة، مستمتعًا بتأمل تلك السمة القوية لضربات ذلك القلم المندفع. حاول أن يقرأ ختم البريد. كان الطابع إيطاليًا، ولا شك أنه من نابولي أو جنوا. أي أن صديقه قد وصل أوروبا وهو غير بعيد منه، ويمكن أن يصل هنا خلال أيام قليلة.

فتح الرسالة بقلب مضطرب، وتطلع برضا إلى النظام الصارم للأسطر القصيرة المستقيمة. إذا لم تخنه ذاكرته، فإن هذه الرسائل المتقطعة من صديقه خارج البلاد، كانت المسرة الوحيدة الخالصة التي كان يتذوقها خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة، هذا إذا استثنينا عمله، وكذا الساعات التي كان ينفقها مع الصغير بيير. وها هو الآن، من جديد، ومن ضباب توقعه السار، يحس بشعور غامض بغيض بالعار يعتريه لفكرة أن حياته مقفرة، خالية من الحب. وببطء، قرأ:

عزيزي يوهان

كالعادة، الفم المليء بالشيانتي والمكرونة المليئة بالزيت، ونداءات الباعة المتجولين خارج دكان النبيذ، إنّها العلامات الأولى للثقافة الأوربية التي عدت إليها من جديد. هنا في نابولي، لم يتغير شيء منذ خمس سنوات، وهذا أقل بكثير مما هو عليه الحال في سنغافوره أو شنغهاي. إني أعتبر ذلك علامة طيبة، وأنا مفعم بالحماس آملًا أن أجد كل شيء في حالة جيدة في البيت أيضًا. سنكون بعد غد في جنوا حيث سيقابلني ابن أختي. سوف نزور أقاربنا معًا. إني لا أتوقع استقبالًا حارًا في ذلك الربع لأنني بصراحة تامة لم أكسب عشرة طالر (عملة ألمانية) في السنوات الأربع الماضية. أعتقد أنني سأستغرق أربعة أو خمسة أيام خاضعًا لأشد الالتزامات العائلية، بعدئذ، الشغل في هولندا، قل خمسة أو ستة أيام أخرى، وعليه فسأكون معك في اليوم السادس عشر. سوف أبعث لك ببرقية.

إني أرغب في أن أبقى معك على الأقل عشرة أيام أو أسبوعين، وأتدخل بشغلك. لقد صرت مشهورًا شهرة عظيمة، وإذا كنت قد اعتدت أن تتحدث قبل حوالي عشرين سنة عن النجاح والاحتفالات بأنه كان نصف حقيقة، فلا بد أن فمك سيبقى مفتوحًا تمامًا الآن ويجب أن يُسد. أعني أنني سأشتري بعض لوحاتك وأن عويلي السابق عن حالة الشغل هو مناورة من أجل أن أنقص أسعارك.

لقد صرنا عجوزين يا يوهان. لقد كانت رحلتي هذه عبر البحر الأحمر هي الثانية عشرة، وللمرة الأولى عانيت كثيرًا من الحر (110) درجة في الظل.

فكر بذلك، أيها الرجل العجوز، أسبوعان فقط! سوف يكلفك ذلك زجاجة موسيل. لقد مضى على فراقنا أكثر من أربع سنوات. سوف أتسلم رسالة منك بين التاسع والرابع عشر من الشهر الحالي في أنتورب هوتيل دي أل يورب. إذا كان لك معرض أثناء تطوافي، أخبرني!"

صديقك أوتو

وبمزاج مرح، أعاد قراءة الرسالة القصيرة ذات الأحرف المنتصبة الثابتة وعلامات ترقيمها الدالة على مزاجية حساسة متميزة، ثم أخذ تقويمًا من درج مكتب صغير في الركن وهزّ رأسه برضى، وارتياح عندما تطلع إليه. فإلى ما بعد منتصف الشهر، ستظل أكثر من عشرين لوحة من لوحاته معروضة في براسلز وكان ذلك شيء جيد.

إنه يعني أن صديقه، الذي طالما توجس من عينيه الثاقبتين، والذي لن يكون بمقدوره أن يخفي عنه ما أصاب حياته من دمار في السنوات القليلة الأخيرة، ذلك الصديق ـ على الأقل ـ سيُكوّن الآن عنه انطباعًا حسنًا، انطباعًا يستطيع معه أن يكون فخورًا. وهذا كفيل بأن يجعل كل شيء أكثر سهولة ويسرًا. وقد رأى صديقه رأي العين بمظهر عابر المحيطات الخشن بدلف إلى معرض براسلز، يتطلع في لوحاته، أفضل لوحاته، وشعر للحظة بسرور غامر؛ لأنه أرسل تلك اللوحات إلى المعرض، على الرغم من أن عددًا قليلًا منها فقط لم يكن قد بيع وعلى الفور كتب توصية إلى أنتورب.

وحدّث نفسه قائلًا بامتنان: "إنه لا يزال يتذكر كل شيء. إنه على حق، لقد اندمجنا في المرة الأخيرة كلية بالموسل وقضينا الليل كله في الشرب".

وفي تذكره خطر له أن الخزانة التي لا يزورها إلا في النادر لا بد أنها قد خلت من الموسل وقرر أن يطلب في ذلك اليوم نفسه بضعة صناديق منها. عندئذ جلسَ إلى عمله من جديد،

لكنه وجد نفسه شارد الذهن متوترًا لا يقدر على التحكم بصفاء ذهنه وتركيزه الذي تنبثق منه خواطر الإبداع وتنسل دونما تعثر.

وضع فراشيه في وعاء زجاجي، وخبأ رسالة صديقه في جيبه وخرج يمشي متئدًا في البرية. كانت مرآة البحيرة تبتسم مشرقة في وجهه في ذلك الصباح الصيفي المشرق الصافي الذي لا تعكره أية سحابة، والبريّة التي أمطرت أشجارها خيوط الشمس راحت تمتلئ بسقسقة وتغريد العصافير العديدة.

نظر إلى ساعته. كان الوقت يشير إلى انقضاء دروس بيير الصباحية. تمشي دون هدف في تلك البقعة، وتطلع بشرود في الممرات البنية المبرقشة بضوء الشمس، وأصاخ أذنيه جهة البيت، مجتازًا ملعب بيير بأرجوحته وأكوام رمله. اقترب من حديقة المطبخ وألقى نظرة خاطفة إلى تيجان أشجار الكستناء الشبيهة بأعراف الأفراس بظلالها الداكنة ولكتل الأوراق، ثم تلك الأضواء البهيجة التي تتخللها كأنها أضواء شموع. وكان طنين النحل يأتي ويذهب في موجات رقيقة وبينما كان النحل يتجول من برعم زهرة إلى أخرى في طرف الحديقة، ومن خلال أوراق النبات العميقة الخضرة كان بإمكانه سماع دقات ساعة البريج في منزل العزبة؛ وقد تبين أنَّ عدد دقات الساعة كانت خاطئة، ففكر من جديد ببيير الذي كان مبلغ طموحه وفخره مؤخرًا أن يُصلح الساعة القديمة عندما يصير كبيرًا.

حينئذ، سمع من الجانب الآخر للحديقة أصواتًا وخطوات اختلطت بنعومة بطنين النحل، وزقزقة العصافير في فضاء الحديقة المشمس، وقد أخذ النسيم الكسول يزجيها إليه ببطء مفعمة بعبق القرنفل وأزهار الفاصوليا. تلك أصوات وخطوات زوجته وبيير وقد وقف وهو يصغي لها بكل جوارحه. سمع الأم تقول: "إنها لم تنضج بعد، وعليك أن تنتظر عدة أيام أخرى"، وكانت إجابة الولد عبارة عن ضحكة مُمَوسقة مثل زقزقة عصفور، ولِلحظة قصيرة هاربة، بدت له الحديقة الخضراء الوادعة، وذلك الرنين العذب للمحادثة الطفولية التي يكتمها النسيم، بدت في صمت الصيف المرتقب وكأنها تجيء إلى فرغوث من حديقة طفولته النائية. صعد بضع خطوات إلى حافة السياج وراح يتلصص من خلال الأوراق إلى الحديقة حيث كانت زوجته واقفة بثياب الصباح في الممرّ المشمس ممسكة بيدها قفصًا للأزهار ومن ساعدها تتدلى سلة بنية رقيقة. كانت على بعد عشرين خطوة منه فقط. ظلّ

الرسام يتطلع إليها لبرهة. انحنت قامتها الفارعة على الزهور، كان وجهها المحزن التعيس مضللًا تمامًا بقبعة كبيرة من القش.

سأل بيير:

ـ ما اسم هذه الزهور؟

كان ضوء الشمس يتراقص فوق شعره البني، وكانت قدماه النحيلتان عاريتين وبدتا وقد لوحتهما الشمس، وعندما انحنى كشف قميصه الفضفاض عن جسد ظهره الأبيض تحت عنقه الأسمر الملفوح.

قالت الأم:

ـ قرنفل.

ـ أوه، أعرف ذلك.

قال بيير:

ـ أنا أريد أن أعرف ما تدعوها النحلة. لا بد أن لهذه الزهور اسمًا آخر بلغة النحل!

ـ طبعا، لكننا لا ندري ما هو، النحل وحده يعرف، لعلّ النحل يسمّيها زهور العسل.

وتفكّر بيير بذلك لبضع ثوان: ثم قال مقررًا:

ـ هذا غير مقنع؛ إنها تجد فيها من العسل مثلما تجده في أزهار البرسيم أو أبو خنجر؛ ليس من المعقول أنها تطلق نفس الاسم على كل الأزهار.

كان الطفل يتابع بانتباه شديد نحلة تحوم حول كأس زهرة قرنفل، توقفت في الهواء بجناحيها الطنانين، ثم توغلت في فتحة الوردة تمتص رحيقها بنهم وشوق. قال ساخرًا:

ـ زهور العسل! ثم غرق في الصمت.

كان قد اكتشف منذ أمد بعيد أن أجمل الأشياء وأكثرها إمتاعًا هي فقط تلك التي تستعصي على الفهم ونعجز عن شرحها.

ظل فرغوث واقفًا خلف السياج يصغي؛ لاحظ وجه زوجته الهادئ الجاد، ووجه ابنه الحبيب الرقيق الناضج قبل الأوان، واستحال قلبه حجرة صلدة وقد خطرت بذهنه فصول الصيف التي كان فيها ابنه البكر لا يزال طفلًا صغيرًا مثل بيير. لقد أضاعه، وقد أضاعته أمه أيضًا. لكن هذا الصغير لن يضيع منه، لا،لا. ومثل لص خلف سياجه سيبقى يسترق النظر

إليه، وسيظلّ يغريه ويفوز به، ولو قدر لهذا الصغير أن يدير له ظهره ويزور عنه، فسوف لن يجد أي رغبة في مواصلة الحياة. انسحب دونما صوت فوق الممر المعشب وانسلّ بعيدًا خلف الأشجار.

"التسكع ليس لي". هكذا فكّر بنزق، وعاب نفسه موطنًا لها على احتمال المشاق. عاد إلى لوحته، وبالفعل تغلب على نفوره واستسلم لعادته القديمة، واستعاد سيطرته على توتر الكدح الوثاب الذي لا يتسامح مع الانحرافات والاستطرادات بل يركّز كل طاقاتنا ويوجهها صوب العمل الذي أمامنا.

كانوا يتوقعونه في منزل العزبة على الغداء، وما أن اقتربت الظهيرة حتى نهض ولبس بعناية. ولعلّه، وهو حليق مسرح الشعر ومرتديًا بدلة صيفية زرقاء، قد بدا، ليس أصغر سنًا، بل مفعمًا بالنشاط وأكثر حيوية مما هو عليه وهو بملابس المرسم الرثة. مدّ يده ملتقطة قبعة القش، وبينما كان على وشك أن يفتح الباب، انفتح الباب ودلف بيير إلى الداخل.

ـ أهلا كيف حالك، يا بيير؟ هل كان مدرسك لطيفًا معك؟

ـ أوه، نعم، سوى أنه جدَّ مضجر، فهو عندما يحكي قصة لا يفعل ذلك لغرض التسلية، بل إنها تصير درسًا آخر، والنهاية دائمًا هي أن الأطفال اللطيفين لا بد أن يفعلوا شيئًا كهذا أو شيئًا كذاك ـ هل كنت ترسم، يا بابا؟

ـ نعم، كنت مشغولًا بتينك السمكتين، إن اللوحة صارت ناجزة تقريبًا، ويمكنك أن تشاهدها غدًا.

أخذ يد الصغير وخرج معه. لا شيء في هذا العالم يلطفه تمامًا أو يمس شغاف قلبه ورقته الدفينة مثلما يفعله المشي إلى جوار الصغير، وتكييف خطوه مع خطواته القصيرة، وملامسة يد الطفل الرقيقة المطمئنة في يده هو.

عندما اجتازا الحرج وشرعا يعبران المرج تحت ما تسقطه أشجار البتولا من مغزليات، نظر الولد فيما حوله وسأل:

ـ بابا! هل تخافك الفراشات؟

ـ لماذا؟ لا أظن ذلك. لقد حطت إحداهن على أصبعي قبل بضعة أيام.

ـ حسنًا، لكن لا يوجد أي منها الآن هنا. أحيانًا، حين أأتي لرؤيتك بمفردي من هذه الطريق، دائمًا ما يكون هناك أسراب عديدة منها في الممر، وكلهن يدعين الخضر،

أعرف ذلك، وهن أيضًا يعرفني ويحببنني، ودائمًا ما يطرن حولي على بعد قريب جدًا. هل بالإمكان أن نطعم الفراشات؟

ـإنه ممكن فعلا ، لا بد أن نحاول ذلك سريعًا . ضع قطرة من ا لعسل في راحة يد ك واعرضها بهدوء تام إلى أن تأتي الفراشات لتشربها.

ـرائع، يا بابا سنحاول ذلك. ألن تخبر ماما أن عليها أن تعطيني قليلًا من العسل؟ عندئذ ستعرف أنني أحتاجه حق، وأن ذلك ليس مجرد عبث وحماقة.

جرى بيير عبر البوابة المفتوحة والصالة، بينما راح أبوه وقد أغشى عينيه ضوء الشمس يبحث عن مشجب القبعات في الضوء الشاحب، ويتلمس باب غرفة الطعام في حين كان الطفل قد سبقه إلى أمه وأخذ يفضي إليها برجائه.

دخل الفنان ومد يده إلى زوجته. كانت أطول منه قليلًا، وقوية، رشيقة، لكن بدون شباب، ومع أنها قد تخلت عن محبة زوجها فإنها لا تزال تنظر إلى حبه الضائع نظرتها إلى حظ عاثر مبهم حزين وغير جدير به.

قالت بصوتها الخفيض:

ـسنتناول الغداء في الحال. بيير، اذهب واغسل يديك.

ـلدي بعض الأخبار. قال الرسام، مادًا إليها رسالة صديقه

ـأوتو آت عن قريب، وسيبقى لمدة أطول، آمل ذلك، ألا تمانعين؟

ـيستطيع الهر بركهارت أن يقيم في الغرفتين اللتين في الطابق الأسفل، حينئذ لن يزعجه أحد، وسيكون باستطاعته أن يدخل ويخرج كما يريد.

ـنعم، ذلك مناسب تمامًا. وبتردد، قالت:

ـظننت أنه لن يأتي إلا فيما بعد.

ـلقد رحل في طريق العودة أبكر مما كان يتوقع. لم أكن أعرف أنا نفسي شيئًا عن ذلك حتى اليوم. على أي حال، حصل خير.

ـإذن، سيكون هنا في نفس الوقت الذي سيكون فيه ألبرت موجودًا!

وعند ذكر اسم ابنه، فَقدَ وجه فرغوث بريق سروره الخابي وصار صوته أكثر برودة وصاح بعصبية:

ـألبرت؟ ألم يكن ذاهبًا مع صديق له إلى تيرول؟

ـ لم أشأ أن أطلعك على ذلك أسرع مما هو ضروري. لقد دُعي صديقه لزيارة أقاربه، فعدل عن رحلة السير على الأقدام. ولهذا فإن ألبرت سيأتي ما إن تبدأ عطلته.

ـ وهل سيبقى هنا طوال الوقت؟

ـ أظن ذلك. أستطيع أن أسافر وإيَّاه لبضعة أسابيع، غير أن ذلك لن يكون مقنعًا لك.

ـ لماذا؟ بيير سيأتي ليقيم معي في المرسم.

ـ أرجوك ألّا تذكر ذلك من جديد. أنت تدري أنني لا أستطيع أن أترك بيير هنا بمفرده.

صار الرسام أكثر غضبًا.

ـ بمفرده؟ صاح بمرارة؛ إنه لن يكون بمفرده وهو معي.

ـ لا أستطيع أن أتركه هنا، ولا أرغب أن أفعل. وليس هنالك من داع لمزيد من الجدل حول هذه المسألة.

ـ لقد فهمت.. إنك لا ترغبين أن تتركيه.

وغرق في الصمت، إذ إن بيير كان قد عاد فجلسوا إلى المائدة. جلس الولد بين أبويه الغريبين وراح كل منهما يقدم له الطعام ويداعبه كما اعتادهما أن يفعلا. حاول أبوه أن يطيل أمد الوجبة أطول وقت ممكن؛ لأن الطفل يبقى بعد الغداء مع أمه، ولم يكن متيقنًا من أنه سيجيء إلى المرسم مرة ثانية في ذلك اليوم.

2

كان روبرت عند المغسل الصغير المجاور للمرسم مشغولًا بغسل لوحة الألوان والفراشي. ظهر بيير الصغير في الطرقة المفتوحة ووقف يتطلع دون حراك.

ـ ذلك شغل مليء بالقذارة.

أضاف بعد برهة:

ـ الرسم عمل رائع تمامًا، لكني لن أرغب في أن أكون رسَّامًا أبدًا؟

أجابه روبرت:

ـ لعله ينبغي لك أن تفكر جيدًا في ذلك. خصوصًا أن أباك رسام شهير.

ردّ الولد بشكل قاطع.

ـ لا. الرسم لا يروق لي. دائمًا متسخ، ودائمًا تلك الرائحة القوية للألوان. إنني أحب أن أشم قليلًا منها فقط في لوحة جديدة مثلًا عندما تعلق في الغرفة ولا تفوح من ألوانها سوى رائحة محدودة؛ أما في الأستوديو فإن ذلك كثير، وأنا لا أطيقه، إنه يسبب لي صداعًا.

نظر الخادم إلى الولد بعين فاحصة. لعله كان من الأصوب لذلك الولد المدلل أن يُعطى درسًا طويلًا منذ أمد بعيد لأن هنالك الكثير من الغلط فيما يردده. بيد أنه لما صار بيير قريبًا منه وجعل هو يحدق في وجهه، تبيّن له كم أن ذلك كان مستحيلًا. كان وجهه طريًا مفعمًا بالحيوية و الجمال و الحزن، و بدا كل شيء فيه في غاية الكمال و الصواب، فقط ذلك الاضطراب في الفكر أو الانحراف في الصحة التي تعتري المتخم السئم من الملذات، ذلك الكبر أو قل النضج المبكر كان يتلبَّسه بشكل غريب.

ـ ما الذي تريد أن تكون بالضبط، يا بني؟ سأله روبرت بشيء من الفضاضة..

نظر بيير إلى الأسفل ورد:

ـ أوه، إنني لا أريد في الواقع أن أكون شيئًا خاصًا متميزًا، أنت تعرف. إن ما أرغب فيه فقط هو أن أفرغ من المدرسة. وفي الصيف، أودّ فقط أن أرتدي ملابس بيضاء، وأحذية بيضاء أيضًا، وألا ألوثها بأدنى نقطة أبدًا.

قال روبرت موبخًا:

ـ فهمت، فهمت. هذا ما تردده الآن. لكن عندما خرجنا معًا في ذلك اليوم، سرعان ما استحالت ملابسك كلها فجأة إلى ملوثة ببقع الكرز والعشب، وأضعت قبّعتك أيضًا. ألا تتذكر؟

تجمد بيير وأغمض عينيه ما عدا فتحة صغيرة، وراح يحدق من خلال أهدابه الطويلة. ثم قال ببطء:

ـ لقد وبختني ماما حدة على ذلك، ولا أحسب أنها قد وجهت إليك أوامر لتذكرني من جديد وتنغصني بها.

اتّخذ روبرت موقفًا مصالحًا، وقال:

ـ إذن أنت تحب دائمًا أن ترتدي ملابس بيضاء ولا توسخها أبدًا؟

ـ لا، سوف أوسخها أحيانًا. أنت لا تفهم بالضبط؟ بالطبع، إنني سأرغب في أن أتقلّب على العشب في بعض الأحيان، أو في التبن، أو أقفز فوق البريكات الصغيرة الموحلة، أو أتسلق شجرة. هذا واضح وضوح النهار. لكن عندما أكفّ عن الجري والقفز، لا أرغب في أن يوبخني أحد. وأريد فقط أن أنسلَّ إلى غرفتي وأرتدي ملابس نظيفة طرية، وحينئذ يصير كل شيء كما يرام من جديد. هل تعرف، يا روبرت، إنني، في الواقع، لا أجد أي مبرر للتوبيخ.

ـ هذا صحيح. لكن كيف؟

ـ حسنًا، سأقول لك: إذا ما ارتكبت خطأ ما، وعرفته فإنك تخجل. لو أن أحدًا وبخني، فإني أكون أقل خجلًا. وأحيانًا يوبخونك دون أن تفعل شيئًا على الإطلاق، فقط لأنك لم تكن هناك عندما نادوك، أو لأن ماما تكون معتكرة المزاج.

ضحك روبرت.

ـ لا بد لك من حسبتها جيداً. فكر بكل تلك الشيطنات، ثم افعل ما لا يجد أحد ما يلومك عليه.

صمت بيير ولم يجب بشيء. لقد كان الأمر هكذا على الدوام. فكلما سمح لنفسه بأن يُجرّ إلى نقاش ما مع أحد من البالغين حول شيء مهم بالنسبة له، فإنه ينتهي بخيبة الأمل أو حتى بالإخزاء والإذلال.

ـ أود أن أرى اللوحة مرة ثانية.

قال بنبرة نأت به فجأة عن الخادم. ومن المحتمل أن روبرت قد أخذ كلماته كأمر أو كطلب.

ـ هيا، دعني أدخل لبرهة.

أطاع روبرت، وفتح باب المرسم، وسمح لبيير بالدخول، وتبعه؛ لأنه لديه تعليمات صارمة بألّا يدع أحدًا يدخل المرسم بمفرده.

كانت لوحة فرغوث الجديدة بإطار ذهبي مؤقت قد ثبتت على الحامل الموضوع وسط الغرفة الواسعة في مواجهة الضوء. غرس بيير نفسه أمامه، ووقف روبرت خلفه.

ـ هل تحبها، يا روبرت؟

ـ بالطبع أحبها. سأكون أحمق لو لم أفعل.

تأمل بيير في اللوحة مضيقًا جفونه، وقال وهو غارق في التفكير:

ـ أعتقد أنك لو أريتني كومًا كاملًا من اللوحات لعرفت على التّو أي لوحة منها هي من عمل بابا، وهذا هو سبب محبتي لرسومه، لأنني أشعر، أن بابا هو الذي رسمها. لكن، ولأكون صريحًا معك، إنني أحبها نصف حب.

ـ لا تقل مثل هذا الهراء. ردّ عليه روبرت ذاهلًا وقد ألقي على الصبي نظرة لائمة، بينما بقي هو هادئًا، غير مرتبك، يحدق في اللوحة بعينين حادتين. ثم قال:

ـ هل تعرف! هناك بعض اللوحات المعلقة في البيت والتي أحبها أكثر من غيرها. عندما أكبر، فإنني أبغي أن يكون لي لوحات مثلها. جبال في الشمس الغاربة ـ مثلًا ـ حيث كل شيء ذهبي أحمر، أو لوحات أطفال وديعين وسيدات جميلات وزهور. أشياء كهذه هي في الواقع أكثر روعة من صيّاد عجوز مثل هذا بقاربه الأسود البشع، ودون أن يكون له حتى وجه حقيقي. ألست معي؟

كان روبرت يوافقه تمامًا في قرارة قلبه، لقد أسرته صراحة الصغير وأدهشته لكنه لم يكن ليفصح له عن ذلك. قال باقتضاب:

ـ مازلت صغيرًا جدًا على فهم أشياء كهذه. والآن، هيا بنا، إن عليّ أن أغلق المرسم.

وفي تلك اللحظة سمع صوت ضجيج راعد يأتيهما من جهة منزل العزبة. صاح بيير بسرور:

ـ أوه، سيارة.

وجرى خارج تحت أشجار الكستناء متخذًا طريقة قصيرة ممنوعة عبر المروج المعشوشبة، وقافزًا فوق حواجز الأزهار. ووصل لاحقًا إلى المدخل المفروش بالحصباء أمام المنزل في الوقت المناسب فتمكن من رؤية أبيه هو وأحد السادة الذين لا يعرفهم وهما يترجلان السيارة.

ناداه أبوه وأمسك به من ذراعيه

ـ بيير! ها هو ذا صديق ما عدت تعرفه. سلم عليه، واسأله من أين قدِم؟!

صوب الصبي عينيه إلى عيني الرجل مباشرة، وهو يناوله يده، ويتطلع في الوجه البني الخشن والعينين الرماديتين الضاحكتين، سائلًا بإذعان:

ـ من أين قدمت؟

التقطه الغريب بين ذراعيه وقال بتنهيدة مرحة:

ـ لقد صرت ثقيلًا جدًا يصعب عليّ رفعك، يا بني.

وضعه على الأرض من جديد.

ـ من أين قدمت؟ من جنوا وقبل ذلك من سويسرا، وقبل ذلك من عدن، وقبل ذلك من..

ـ أوه، من الهند، أعرف، أعرف! وأنت العم أوتو بركهارت. هل أحضرت لي تمرًا أم جوز هند؟

ـ التمر صعب علي، لكني أحضرت لك جوز هند ومحار وألبوم صور صيني.

دخلوا المنزل، وقاد فرغوث بصديقه، الذي كان أطول منه قليلًا، إلى الدور الثاني واضعًا ذراعه حول كتفه بود. وفي الدور الثاني قابلتهم في الصالة سيدة البيت، بشيء من التحفظ ولكن بترحيب ودي عميق بالضيف ذي الوجه الصحيح المعافى الذي ذكَّرها بالأوقات السعيدة في السنوات الماضية. أمسك يدها بيده لبرهة ونظر في وجهها قائلًا يمدحها:

ـ لم تغيرك السنين أبدًا، يا فرو فرغوث. إنك تبدين أفضل بكثير من يوهان.

قالت هي بلطف:

ـ وأنت لم تتغير مطلقًا.

ضحك، ورد:

ـ أوه، إن المظهر الخارجي لم يزل في حالة جيدة، ولكني تخليت عن الرقص. فضلًا عن أن ذلك ما كان ليرسيني على بر، فأنا لا زلت عازبًا.

ـ آمل أنك قدمت إلى أوربا هذه المرة لتبحث عن زوجة.

ـ لا، يا فرو فرغوث لقد صار الوقت متأخرًا جدًا على شيء كهذا. ثم إني لا أريد أن أخسر إقامتي في أوربا. إن لي أقارب كما تعرفين وها أنذا أتقدم بالتدريج لأصير عمًّا مورثًا. ولا أحسب أني أتجاسر وأعود إلى البيت متأبطًا زوجة.

قُدِّمت القهوة في غرفة فرو فرغوث و شربوها كما شربوا المسكرات المحلاة وظلّوا يتحادثون لمدة ساعة عن الإبحار في المحيط، وزراعة المطاط، والبورسلين الصيني. كان الرسام في البداية صامتًا ومكتئبًا إلى حد ما. إن قدمه لم تطأ الغرفة لشهور عديدة. غير أن الأمور مضت على ما يرام وبحضور أوتو سار كل شيء بيسر أكثر، وبهجة أكثر، وبدا كما لو أن جوًا أكثر بساطة وصبيانية قد حلّ بالمنزل. وأخيرًا قال الرسام: "أظن أن زوجتي تود أن تخلد قليلًا إلى الراحة هيا، يا أوتو، سأريك الغرفة الخاصة بك."

استأذنا بالخروج واتجها صوب غرف الضيف. كان فرغوث قد جهّز غرفتين لصديقه وفقًا لما رآه هو. رتّب الأثاث وأمعن النظر في كل شيء ابتداء من الصور المعلقة على الجدران، ثم الكتب على الأرفف. فعلقت فوق السرير صورة فوتوغرافية قديمة باهتة اللون؛ صورة كوميدية مؤثرة يرجع تأريخها إلى عقد السبعينات. لقد أسرت عيني الضيف فدني يتأملها ويشبع عينيه منها. صاح مذهولا:

ـ يا إلهي! ها نحن جميعا، الستة عشرة كلنا! أي خاطرة رائعة مؤثرة! لم أرَ ذلك منذ عشرين عاما!

تبسم فرغوث:

ـ نعم، لقد خمنت أنها ستدهشك. آمل أنك ستجد كل ما تحتاج إليه. أتريد أن تحلّ أمتعتك الآن؟

جلس بركهارت القرفصاء على صندوق يشبه الباخرة، له أركان فضية وتطلع فيما حوله بارتياح واضح.

ـ رائع، إنه رائع تمامًا. وأين هي مرابعك؟ الغرفة المجاورة؟ أم في الدور العلوي؟ وأخذ الرسام يعبث بمقبض إحدى الحقائب الجلدية.

قال ارتجالًا:

ـ لا. إنني أقيم حاليًا هناك في المرسم. لقد أضفت إليه مستقرًا لي.

ـ عليك أن تريني ذلك فيما بعد. لكن.. هل تنام هناك أيضًا؟

أسقط فرغوث الحقيبة واستدار قائلًا:

ـ نعم، إني أنام هناك أيضًا.

لاذ صديقه بالصمت وغرق في التفكير العميق. ثم مدَّ يده إلى الحقيبة وتناول حزمة من المفاتيح التي جعل يصلصلها..

ـ أليس علينا أن نحلّ الأمتعة لبعض الوقت؟ يمكنك الذهاب لإحضار الولد، لا بد أن ذلك سيمتعه.

خرج فرغوث وسرعان ما عاد مصطحبًا بيير.

ـ إن لك حقائب جميلة، يا عم أوتو، لقد ألقيت نظرة عليها. وعدد كبير من قسائم الأمتعة. لقد قرأت بعضها. كانت إحداها مكتوبا عليها بنانغ. ما هي بنانغ؟

ـ إنها مدينة في الملايو حيث أذهب أحيانًا. هيا، افتح هذه.

أعطى الطفل مفتاحًا أملس معقدًا، وطلب منه أن يفتح إحدى حقائب السفر. انفتحت الحقيبة فجأة، وكان أول شيء تقابله العين سلة مقلوبة ناعمة مصنوعة من أماليد مجدولة برَّاقة الألوان. قلبوها ونزعوا عنها الغلاف، وفي الداخل، كانت توجد محارات جميلة غريبة الشكل محاطة بالورق واللفافات، كانت شبيهة بتلك المحارات التي تُعرض للبيع في الموانئ. كانت المحارات هدية بيير الذي عجز وهو في غاية السعادة عن التفوه بشيء، وبعد المحّارات ظهر للعيان فيل من الأبنوس ولعبة صينية ذات زخارف خشبية متحركة لبشر وحيوانات خيالية، وأخيرًا لفافة ذات ألوان صارخة مطبوعة بأحرف صينية ومكتظة برسوم الآلهة والشياطين والملوك والمحاربين والتنانين.

وفي حين كان الرسَّام يشارك الطفل إعجابه بهداياه، راح بركهارت يفرغ الحقيبة الجلدية، ويضع الشبشب والفراشي والملابس الداخلية وغيرها في أماكنها. بعدئذ، استدار نحو صديقيه قائلًا بمرح:

ـ حسنًا، حسبنا اليوم ما قمنا به من عمل. والآن، لنُسرّ عن أنفسنا. هل نلقي نظرة على المرسم؟

رفع بيير بصره، ثانية، مثلما فعل تمامًا في نفس اللحظة التي سيقت فيها السيارة إلى باب الدار، وقد ملأه بالدهشة وجه أبيه الوادع، الذي صار مع ابتهاجه أكثر حيوية ونضارة، قال مستحسنًا:

ـ تبدو جد مبتهج يا بابا.

فهزَّ فرغوث رأسه مؤيدًا:

ـ نعم، بالفعل.

غير أن صديقه سأل:

ـ أهو جد مبتهج على الدوام؟

نظر بيير إلى كل منهما نظرة محرجة، وأجاب بتردد:

ـ لست أدري. لكنه ضحك من جديد.

وأفصح:

ـ لا، إنه لم يكن جد مسرور أبدًا.

جرى بعيدًا بسلة محاراته. وأمسك أوتو بركهارت ذراع صديقه خارجين. قاده فرغوث إلى المرسم. وهناك، علّق بركهارت في الحال:

ـ نعم إن التغير واضح. ولا بد أن أعترف أنه جميل جدًا. متى فعلت كل هذا؟

ـ منذ ثلاث سنوات تقريبًا. المرسم هو الآخر قد وُسّع.

نظر بركهارت فيما حوله.

ـ البحيرة ساحرة. فلنذهب لسبحة قصيرة في المساء. إن لك مكانًا رائعًا، يا يوهان، بيد أني أريد الآن أن أطلع على المرسم. هل معك لوحات جديدة فيه؟

ـ بعض منها. لكن هناك واحدة أريدك أن تراها. لقد فرغت منها قبل يوم واحد فقط أعتقد أنها جيدة.

فتح فرغوث الأبواب. كان الأستوديو نظيفًا مرتبًا بصورة احتفالية؛ كانت الأرضية قد غُسلت حديثًا، وضع كل شيء في مكانه، في حين انتصبت اللوحة الجديدة وحدها في وسط القاعة. وقفًا معًا أمامها في صمت. كان المشهد الثقيل البارد للفجر الماطر الكئيب في

تناقض واضح مع إشراقة الشمس الدافئة والنسيم العليل الذي ينسل عبر الأبواب والنوافذ. استغرقا وقتًا طويلًا نسبيًا، يراجعان العمل.

ـ هذه هي آخر لوحة رسمتها؟

ـ نعم، إنها بحاجة إلى إطار آخر، وما عدا ذلك، فلا يتبقى شيء وتصير جاهزة. هل أعجبتك؟

نظر كل منهما في عيني صديقه محاولا سبر أغواره. وقف بركهارت، الأطول والأكثر بدانة، بوجهه الضارب إلى الحمرة، وعينيه الراشحتين بالحنان، مثل طفل كبير أمام الرسام بوجهه الحاد القاسي وشعره الذي غزاه الشيب قبل الأوان. قال ببطء:

ـ ربما كانت هذه أفضل لوحاتك. لقد شاهدت تلك اللوحات التي في براسلز، واللوحتين اللتين في باريس. لم أكن أتوقع ذلك على الإطلاق، لكن، ها أنت تبلغ في إبداعك أقصى مدى في السنوات الأخيرة.

ـ إنني لفي غاية السعادة أن أسمعك تقول هذا. إن هذا هو ما أعتقده أنا أيضًا. لقد اشتغلت بكدّ بالغ لا يعرف الكلل. كنت أشعر أحيانًا أنني لست أكثر من مجرد محب للفن، هاوٍ سابق فحسب. لم أتعلم إلا في وقت متأخر كيف أشتغل على نحو ملائم دقيق، لكن ها أنا ذا أتقن عملي أخيرًا وأضلع فيه. ولعلي لن أبرع فيه أكثر من ذلك. لا أعتقد أن باستطاعتي أن أنجز شيئًا أفضل من هذا.

ـ أدري. حسنًا، لقد صرت مشهورًا جدًا، حتى أنني سمعت الناس يتحدثون عنك في سفننا البخارية القديمة في شرق آسيا، وكنت جد فخور بذلك. كيف تشعر وقد صرت مشهورًا جدًا؛ هل تشعر بالسعادة؟

ـ السعادة؟ لا، ليس الأمر كذلك. صحيح إن هذه تبدو مسألة أساسية. ربما كان هناك رسامان، ثلاثة، أو أربعة ممن هم أبرع مني ولديهم أكثر مما لدي ليقدمونه. لم يحدث لي مطلقًا أن عددت نفسي بين العظماء فعلًا؛ وما يردده الصحفيون ليس غير هراء. إن من حقي أن أقابَل بجدية، وما دمت كذلك، فإنني راضٍ. وما عدا ذلك هو مجرد تمجيد الصحف أو مسألة النقود.

ـ هذا صحيح. ولكن، ماذا تعني بقولك العظماء فعلًا؟

ـ الملوك والأمراء. أمثالي يمكن أن يصلوا إلى مرتبة الجنرال أو الوزير، وهذه هي غاية ما يصلون إليه. إن أقصى ما نستطيع فعله هو أن نعمل بكدّ وأن نتعامل مع الطبيعة بكل جديّة ممكنة. الملوك أخوة الطبيعة وأصدقاؤها، إنهم يلعبون معها، إنهم يبدعون في حين أننا نقلّد فقط؛ لكن بطبيعة الحال لا يوجد ملوك كثيرون ولا حتى واحد في كل مائة سنة.

ظلا يسيران في المرسم جيئة وذهابًا. كان الرسام يحدّق في أرضية القاعة وهو يتابع كلماته، بينما سار صديقه بجواره محاولًا أن يقرأ وجهه الشاحب النحيل. توقف أوتو عند الباب الموصل للغرفة، وقال:

ـ هيا أرني مكان إقامتك، ولنجلس لنأخذ سيجارة.

فتح فرغوث الباب، ودخلا عبر غرفة الجلوس وألقيا نظرة على الغرف الأخرى الصغيرة. أشعل بركهارت سيجارة ومضى إلى غرفة نوم صديقه، أبعد سريره، وفحص بعناية بالغة الأركان المجوّفة في الجدران والتي ملأت بمعدات الرسم والتدخين وكماليات الزينة. أوحى له الانطباع العام بالعوز والفقر، منزل فنان عازب لا يكف عن العمل الشاق. قال بطريقة جافة: "لقد استقريت هنا، إذن؟". لكنه استطاع أن يرى ويدرك كلّ ما حدث في الأعوام الأخيرة. لاحظ بارتياح أدوات الرياضة، أدوات الجمباز، صهوة الجواد، كما لاحظ باهتمام غياب أي علامة تدلّ على يسر الحال، وانعدام أي مستلزمات لراحة الإنسان أو ما يسري عنه في وقت فراغه.

عادا بعد ذلك إلى المرسم. هكذا إذن رُسمت كل تلك اللوحات المعلقة في أماكن الشرف في كل معارض العالم، وبيعت بأسعار عالية. لقد رُسمت في غرف لا تعرف غير العمل الجاد ونكران الذات، حيث لا يجد المرء أيّ شيء يدل على أي احتفالية، لا شيء ذا فائدة، ولا رخيصة تافهة، ولا تحف زينة من الطراز القديم، كالخزف الصيني أو التماثيل، لا رائحة لخمرة ولا عبق الزهور، وما من ذكرى تتعلق بالنساء.

عُلقت صورتان على الجدار فوق السرير الضيق، إحداهما للصغير بيير والأخرى لأوتو بركهارت. تذكر بركهارت الصورة تمامًا. لقطة تعيسة، يبدو فيها بخوذة مدارية وخلفه جزء من شرفة منزله الهندي؛ وتحته، تحت مستوى الصدر مباشرة تنفصل الصورة عن سفن بخارية أسطورية حيث سقط الضوء مباشرة على صفحة الصورة.

ـ المرسم جميل. وما أكثر ما صرت رجل مثابر صارم. ناولني يدك يا صديقي القديم. كم أنا سعيد برؤيتك من جديد! لكني الآن مجهد، اسمح لي أن أغيب عنك لساعة من الزمن. هل ستدعوني فيما بعد لسبحة أو نزهة؟ جميل. لا، لا أحتاج أي شيء. سأكون بحالة جيدة بعد ساعة. فإلى اللقاء.

سار متئدًا تحت الأشجار، وجعل فرغوث يتابعه بنظراته ملاحظه كيف أن قامته ومشيته، وكل ثنية من ثنايا ملابسه تنمّ عن الثقة بالنفس والطمأنينة وبهجة الحياة الصافية.

ذهب بركهارت إلى المنزل، لكنه لم يدخل إلى قسمه الخاص بل اجتازه وصعد الدرجات إلى الطابق العلوي، طرق باب غرفة فرو فرغوث قائلًا:

ـ أزعجك، أم أن بإمكاني أن أبقى معك لوهلة؟

سمحت له بالدخول بابتسامة استشف منها حزنًا غريبًا لا يطفو على وجهها اليائس.

ـ إنّ كل شيء رائع هنا في روزهالده لقد كنت قبل قليل هناك في البرية والبحيرة. كم أن ببير قد كبر وترعرع! يا إلهي ما ألطفه! لقد جعلني أشعر بالأسف لأنني عازب.

ـ إن مَرآه جميل، أليس كذلك؟ هل تظن أنه يشبه زوجي.

ـ نعم، قليلا. أه، في الواقع، أكثر من قليل. إنني لم أعرف يوهان حين كان في ذلك العمر، لكني أتذكر جيدًا كيف كان وهو في الحادية أو الثانية عشرة. بالمناسبة، إنه يبدو متعبًا إلى حد ما.

ـ ماذا؟

ـ لا، إنني أتحدث عن يوهان. هل أجهد نفسه كثيرا في الفترة الأخيرة؟

نظرت فرو فرغوث إلى وجهه، وشعرت أنه كان يحاول أن يستطلع رأيها أو يحاول سبر أغوارها. قالت ببرود:

ـ أظن ذلك. إنه نادرًا ما يتحدث عن شغله.

ـ ما الذي يشتغل فيه الآن؟ مناظر طبيعية؟

ـ إنه غالبًا ما يرسم في العراء، وعادة مع نماذج. هل رأيت أيًّا من لوحاته؟

ـ نعم، في براسلز.

ـ هل يعرض لوحات في براسلز؟

ـ أوه، نعم، عدد لا بأس به من اللوحات. لقد أحضرت معي كراسًا مصورًا عن أعماله هناك. أنظري، إنني أرغب في شراء واحدة منها وسأكون مسرورا أن أسمع رأيك حولها.

ناولها الكراس وأشار إلى إحدى اللوحات المصورة. نظرت هي إلى الصورة، ثم قلبت بقية القائمة وأعادتها إليه.

ـ أخشى ألا أكون قادرة على مساعدتك يا سيد بركهارت إنني لم أرَ تلك اللوحة من قبل. أظن أنه رسمها في الخريف الماضي في بايرنيس ولم يأت بها إلى هنا أبدًا. بعد فترة توقف قصيرة، غيرت الموضوع.

ـ لقد أحضرتَ لبيير هدايا كثيرة. إن ذلك منتهى اللطف منك.

ـ أوه، أشياء بسيطة. لكن عليك أن تسمحي لي بأن أحضر لكِ شيئًا ما من آسيا أيضا. ألديك مانع ؟ إن معي بعض قطع القماش التي أريد أن أطلعك عليها، وعليك أن تختاري ما يعجبك.

استطاع بمداراته تلك أن ينزع ذلك الغشاء الرقيق من التهذيب وكلمات المجاملة والنزوات المتقلبة، وأن يتغلب على تكتمها ويحيله إلى مزاج أفضل. نزل إلى مجموعته النفيسة وعاد بذراعين مليئين بالمنسوجات الهندية. بسط الأقمشة الملاوية المطبعة الزاهية الألوان والبضائع المصنوعة يدويًا، ونثر الأشرطة المخرمة والحرائر على المقاعد، في حين كان يقول لها متى وجد هذه القطعة أو تلك، وكيف أنه ساوم عليها واشتراها مقابل أغنية. صارت الغرفة كلها أشبه بمعرض للألوان الزاهية. كان يسألها رأيها، ويعلق شريطًا ما على ذراعيها شارحًا كيف صنع، ويجعلها تنشر أجمل القطع، وتفحصها وتلامسها وتعجب بها، وأخيرًا تحتفظ بها. وعندما فعل ذلك، صاحت ضاحكة:

ـ لا، إنني سأحولك إلى شحاذ، لا يمكنني أن أحتفظ بذلك كله.

وردّ عليها ضاحكًا:

ـ لا تخافي. لقد فرغت للتوّ من زراعة ستة ألف شجرة مطاط، وعما قريب سأصير واحدًا من كبار الأثرياء.

ولما جاء فرغوث يبحث عنه، وجد الاثنين يتجاذبان أطراف الحديث بجذل بالغ. اندهش لما رأى إلى أي حد صارت زوجته ثرثارة، وحاول عبثًا أن يخوض معهما في أحاديثهما وقد أبدى إعجابه بالمشتريات بكلمات مرتبكة خرقاء. قال صديقه:

ـ دعك من هذا، إنه جناح السيدات. هيا بنا للسباحة! جرّ صديقه إلى الخارج.

وأردف:

ـ حقًا، لا يكاد المرء يلحظ أيّ تغير في سنّ زوجتك منذ أن كنت هنا في المرة الأخيرة. لقد كانت الآن سعيدة جذلى. يبدو لي أنَّكم جميعًا في أحسن حال. لكن، ماذا عن ابنك الأكبر؟ ما أخباره؟

هزّ الرسام كتفيه وقطب جبينه، وأجاب:

ـ سوف تراه، إنه سيكون هنا عمّا قريب. لقد كتبت لك عنه.

وفجأة توقف في مكانه دونما حراك، ثمّ مال نحو صديقه ونظر إلى عينيه مباشرة، وقال بخفوت:

ـ سوف ترى كل شيء يا أوتو. أنا لا أشعر بالرغبة بالحديث عن ذلك. سوف ترى. إن علينا حقًا أن نكون مسرورين بوجودك هنا. هيا بنا ننزل إلى البحيرة. بودي أن أتسابق معك في السباحة مثلما كنا نفعل ونحن صغار.

ـ فكرة ممتازة.

أجابه بركهارت الذي لم يبدُ عليه أنه قد لاحظ توتر يوهان. وأردف:

ـ وسوف تكسب السباق، أيَّها العجوز، الأمر الذي لم يكن كذلك عادة، إنني لأشعر بالخجل أن أقول ذلك، لكن ماذا أفعل وقد صارت لي تلك الكرش.

كان وقت الأصيل، وكانت البحيرة كلها غارقة في الظل، ونسيم خفيف يتلاعب بذرى الأشجار وعبر جزيرة السماء الزرقاء الضيقة التي تركها الحرج مكشوفة فوق المياه، كانت تحلق سحب خفيفة من القطيفة وكلها تشبه بعضها البعض في الشكل والحجم مصطفة في انسجام أخوي حميم، نحيفة ومستطيلة مثل أوراق الصفصاف. وقف الرجلان قليلًا خارج مبنى الاستحمام المتواري في الدغل دون أن يستطيعا فتح قفله. وأخيرًا، قال فرغوث: "لا يهم، لقد علاه الصدأ. ما من أحد يستخدمه أبدًا".

أخذ يخلع ملابسه، وتابعه بركهارت. ولمَّا صارا على الشاطئ مستعدين للسباحة، راحا يتلمسان الماء المظلل الهادئ بأصابع أقدامهما، استشعرا معًا نسمة حلوة من السعادة، وقد هبت نحوهما من أيام الطفولة القصية. بقيا جامدين لدقيقة أو اثنتين تأهبًا للبرودة اللذيذة المتوقعة، وحينها انحلت في قلبيهما مصايف طفولة الوادي الأخضر الجميل. ظلا صامتين

مشدوهين لتلك المشاعر الرقيقة وقد اعتراهما حرج أخرس، غمسا أقدامهما في الماء وأخذا يتأملان الدوائر التي راحت تطارد بعضها البعض على مرآة المياه الخضراء الصقيلة. عندئذ، دخل بركهارت في الماء بسرعة، وشهق بتلذذ، صائحًا: "أه، ما ألطفه! هل تدري! إن منظرنا معًا مازال مقبولًا، ولولا كرشي هذه، فإننا ما زلنا فتيين معافيين".

جعل يجدف براحتيه، مهتزًا وهو يخوض في الماء. وأضاف بنبرة حسد: "أنت لا تدري بروعة ما حققته. إن أجمل نهر يجري عبر مزرعتي، ولو أنك غمست ساقك في مائه فإنك لن تراه ثانية أبدًا. إنه مليء بالتماسيح المتوحشة. أما الآن، فإلى مسابقة كأس روزهالده. سنسبح إلى تلك الدرجة التي هناك ثم نعود إلى هنا من جديد. مستعد؟ واحد.. اثنان.. ثلاثة!"

انطلق الاثنان معًا بوجهين ضاحكين، بادئين بسرعة معقولة، غير أن رياح حديقة الصبا كانت تعصف في داخلهما، وفجأة اندفعا يتسابقان بحمية وشوق. صار وجهاهما أكثر توترًا، واتقدت عيناهما، في حين كانت أذرعهما تلمعان وهما يؤرجحانها. أنهيا الشوط الأول معًا، واستدارا راجعين، حينها اندفع الرسام بقوة سابقًا، وأكمل الشوط الثاني متقدمًا بمسافة قصيرة.

وقفا في الماء يتنفسان بصعوبة ويمسحان أعينهما ضاحكين في حبور صامت. بدا لهما معًا وكأنهما في تلك اللحظة قد صارا صديقين حميمين من جديد، وأن الغربة الطفيفة والبعاد اللذين وقفا عرضًا فيما بينهما بدءا اللحظة يذوبان ويتلاشيان.

بعد أن ارتديا ملابسهما، جلسا ـ جنبا إلى جنب بوجهين منتعشين وشعور بالخفة ـ على حجرة السلم المؤدي إلى البحيرة. نظرا إلى الماء الأسود الذي فقد لونه في عتمة الغسق التي سقطت على البحيرة عبر الجون الظليل لأشجار الحرج. أكلا حبوب الكرز المكتنزة الحمراء التي أحضرها لهما الخادم في كيس من الورق البني، وبقيا يرقبان مقدم الظلام بقلبين مترعين بالمرح، حتى غرقت الشمس أفقيًا في جذوع الأشجار، واتقد لهيبها على أجنحة الحباحب الزجاجية. ظلا يتجاذبان أطراف الحديث على مدى ساعة دون توقف، تحدثا عن أيام المدرسة، وعن المدرسين والزملاء، وما حدث لهذا وما حدث لذاك. قال بركهارت بصوته الحيوي الوادع:

ـ يا إلهي! لقد مرَّ علينا وقت طويل! ماذا حلَّ بميتا هيلمان؟

صاح فرغوث باهتياج:

ـآه، ميتا هيلمان! ما كان أروعها من فتاة! كانت حقيبتي ملأى على الدوام بصورها التي كنت أرسمها في كراساتي أثناء الحصص. لم أستطع أبدًا أن أصور شعرها بطريقة صحيحة. هل تذكر، لقد كانت تعقصه دائمًا في لفتين متساويتين تتدليان فوق أذنيها.

ـألم تسمع بشيء من أخبارها؟

ـلا، في المرة الأولى التي عدت فيها من باريس، كانت هي مخطوبة إلى محام. لقد قابلتها في الشارع وهي بصحبة أخيها، وإني لأتذكر كم كنت غاضبًا من نفسي لأنني لم أستطع أن أتماسك وقد احمرَّ وجهي، وعلى الرغم من الشارب والأناقة البارسية المتكلفة، فقد شعرت وكأني صبي مدرسة أحمق صغير. ـ لو أنها فقط لم تكن تدعى ميتا. لم أستطع أبدًا احتمال ذلك الاسم.

هز بركهارت رأسه حالمًا:

ـإنك لم تكن تحبها تمامًا، يا يوهان. أعتقد أن ميتا كانت رائعة، وكان من الممكن أن تدعى يوليلا وهذا هو كل ما همني، حينها كنت على استعداد أن أجتاز النار من أجل نظرة من عينيها.

ـأوه، بل لقد أحببتها بما فيه الكفاية. ذات مرة، عندما كنت عائدًا من إحدى حصص الساعة الخامسة الاختيارية، تأخرت عن عمد، وكنت وحدي وليس بذهني أي شيء في العالم غير مينا، وكنت واثقًا أنني سأعاقب، ولكني لم أكترث، كانت هناك، قادمة نحوي، بجوار السور الدائري. كانت تتأبط ذراع إحدى صديقاتها. وفجأة وجدت نفسي أفكر، كيف لو أنني كنت معها متماسكين يدا بيد، بدلًا من أن تكون ممسكة بيد تلك الوزة السخيفة. صارت قريبة جدًا مني، وشعرت برأسي يدور فكان علي أن أتوقف لبرهة وأستند إلى الجدار. وحين أفقت ثانية، وجدت البوابة قد أغلقت نهائيًا؛ فلم يكن أمامي من بُدّ سوى أن أقرع الجرس، وقد احتجزت لمدة ساعة.

ابتسم بركهارت وتذكر كم أنهما في مقابلاتهما النادرة يظلان يتحدثان عن ذكرياتهما حول ميتا.

عندما كانا صغيرين تعمدا أن يُخفيا بكل وسيلة حبهما لها، وألّا يدع أحدهما الآخر يظهر على شيء منه، وقد ظل الأمر كذلك حتى سنوات متأخرة، إذ أسقطا عنه القناع وباح كلّ منهما للآخر بتجاربه القليلة. ومع ذلك، وحتى اليوم، لم يقل أحدهما القصة كاملة.

لقد تذكَّر أوتو بركهارت كم أنه ظلّ لأشهر طويلة يحتفظ ويقدس فردة من قفاز ميتا كان قد وجدها، أو بالأحرى سرقها، وتلك وحدها قصة كاملة لا زالت غير معروفة لصديقه. وقد فكّر أن يخفف عن نفسه من تلك الحكاية الآن، غير أنه في النهاية ابتسم بمكر، ولم يقل شيئًا، مفضلًا أن يحتفظ بذكرى تلك المسرة الأخيرة لنفسه وأن يستمتع بها وحده.

3

جلس بركهارت مسندًا ظهره بارتياح على كرسي مجدول من أماليد الخيزران استقرّت قبعته القشية الملونة على مؤخرة رأسه، كان يقرأ في إحدى المجلات ويدخن تحت تعريشة ظليلة يـ رشرشها ضوء الـ شمس؛ وغير بـ عيد مـ نه جلـ س فـر غوث على كـر سي صـ غير مـ ن كرا سي المخيمات، وأمامه حامل اللوحات.

كان شكل الرجل الذي يقرأ قد رُسِم، وكانت كتل الألوان في مكانها، كان الرسام في تلك اللحظة يشتغل على الوجه، تهللت اللوحة بكاملها جذلة بالضوء، كانت درجات اللون مشرقة خفيفة، منقوعة في الـ شمس دونما مغالاة. كان الهواء مفعم برائحة الألوان الزيتية ودخان السيجار، وكانت العصافير المتوارية بين الأوراق تترنم مطلقة صيحات الظهيرة الرقيقة المكتومة مسقسقة بنبرات حوارية نعسانة حالمة. وجثم بيير على الأرض مكبًا على خريطة كبيرة يتتبع بسبابته الغضة رحلات هامة. صاح الرسام:

ـ قم، لا تنم!

نظر إليه بركهارت بعينين طارفتين، وابتسم هازًا رأسه، موجهًا السؤال إلى الولد:

ـ أين صرت الآن، يا بيير؟

أجابه بيير بشوق:

ـ انتظر، عليّ أن أقرأها.

وراح يتهجى أحرف الاسم على خريطته.

ـ في.. لو.. لوس في لوسرن توجد هناك بحيرة أو محيط. هل هي أكبر من بحيرتنا يا عم بركهارت؟

ـ أكبر بكثير. أكبر عشرين مرة. لا بد أن تذهب إلى هناك يومًا ما.

ـ أوه، نعم. عندما يكون معي سيارة، سأذهب إلى فينا ولوسرن وبحر الشمال والهند حيث منزلك. لكن، هل ستكون في البيت؟

ـ بالتأكيد، يا بيير، إنني دائمًا في البيت حين يأتي الضيوف. حينها سنذهب لرؤية قردي، واسمه بندك وليس له ذيل، لكن سبلات ثلجية في جانبيه، وبعد ذلك سنأخذ البنادق

ونخرج إلى النهر بقارب لنرمي تمساحًا.

تمايل جذع بيير النحيل إلى الأمام والخلف في سرور بالغ. وواصل العم بركهارت حديثه عن مزرعته في غابة الملايو وقد تحدث باستفاضة ومرح حتى ضجر الطفل في الأخير وصار غير قادر على المتابعة، وأخذ يتابع رحلته على الخريطة في شرود، لكن أباه واصل الإصغاء بتركيز شديد لما يقوله صديقه الذي تحدث بصوت كسول متراخٍ عن الصيد والعمل، وعن النزهات على ظهور الخيل، أو في القوارب وعن القرى الجميلة الصغيرة التي بنيت من أعواد الخيزران، وعن القرود وطيور البلاشين والنسور والفراشات مظهرًا إيحاءات مثيرة من جوانب حياته الهنيئة الوادعة في الغابة المدارية بحيث خُيّل للرسام أنه يتفرج من خلال فتحة ما إلى بريق الفردوس المتعدد الألوان، سمع عن أنهار عظيمة صامتة تجري بين الغابات، عن براري مكتظة بأشجار الخنشار السامقة، عن سهوب شاسعة من أعشاب السراخس التي تصل قامتها إلى قامة رجل، عن أمسيات ملونة على شاطئ البحر أمام جزر المرجان والبراكين الزرقاء، عن صواعق رهيبة وزوابع متوهجة، عن أمسيات التأمل الحالم تنقضي في الشرفات الظليلة الواسعة المطلة على بيوت المزارع البيضاء بعد أن تغرق حرارة النهار في بحيرات الغسق، عن شوارع مدينة صينية صاخبة وعن الملاويين وقد جلسوا يروحون عن أنفسهم من عناء التعب بجوار بركة جميلة.

ومرة ثانية، مثل مرات عديدة من قبل، زار فرغوث موطن صديقه البعيد من خلال خياله، غير مدرك تمامًا أن شوقه الذي لم يفصح عنه قد استجاب إلى مقاصد بركهارت. لم يكن ما فتن لبه وأيقظ أشواقه هو وميض البحار المدارية وأرخبيلات الشرق فحسب، أو لون الناس البدائيين الذين يمضون أشباه عراة. بل كان شيئًا أكثر من ذلك، عزلة ونأي وهدوء عالم تتمكن فيه عذاباته وهمومه، نضالاته وحرماناته من التلاشي، حيث يتمكن عقله فيه من تبديد مئات الأعباء الصغيرة، وحيث يجد نفسه فيه وقد أحيط بأجواء جديدة صافية ومبرأة من الشعور بالذنب والمعاناة.

انقضت الظهيرة وتبدّلت الظلال. جرى بيير بعيدًا، وغرق بركهارت شيئًا فشيئًا في الصمت والنعاس، لكن اللوحة كانت قد اكتملت أو كادت. أغمض الرسام عينيه المجهدتين لبعض الوقت، وأرخى يديه، بسرور أليم في صمت الغسق العميق، حضور صديقه، وإرهاقه الساكن بعد العمل الناجح، وإعياء أعصابه المضناة، وعلى الرغم من نوبة نشاطه اللامحدودة هذه،

فقد وجد سروره العميق وذروة راحته في تلك اللحظات القصيرة من الاسترخاء، مثله مثل بقع الشفق الكليلة الساكنة بين النوم واليقظة.

نهض بهدوء خشية أن يوقظ بركهارت، ونقل رقعته بحرص إلى المرسم. وهناك أزاح سترته المخططة وغسل يديه وبلَّل عينية المجهدتين بالماء البارد. وبعد بضع دقائق خرج من جديد، وتأمل متفحصًا وجه صديقه النائم، لوهلة، ثم أيقظه بذلك الصفير القديم الذي يعرفه كل منهما تمام المعرفة منذ خمسة وعشرين عامًا حين كانا قد اتخذاه كعلامة سرية ودليل تعرف.

ـ إن كنت قد نمت بما فيه الكفاية أيها العجوز، فإن بإمكانك أن تحدثني قليلًا عن الهند، فأنا لم أكد أسمعك جيدًا حين كنت أشتغل. لقد ذكرت شيئًا ما عن الصور؛ هل هي معك، وهل من الممكن أن نتفرج عليها؟

ـ بالتأكيد، ممكن، هيا بنا.

كان بركهارت لعدة أيام يتطلّع إلى هذه اللحظة. كانت أمنيته أن يغري فرغوث ويفتنه بشرق آسيا وأن يبقيه معه هناك لبعض الوقت. وقد بدا له أن تلك هي الفرصة الأخيرة، وكان قد أعد نفسه لها بطريقة منهجية.

وعندما جلس الرجلان في غرفة بركهارت يتحدثان عن الهند في ضوء الغروب، أخرج بركهارت المزيد من ملفات الصور من صندوقه. كان الرسام في غاية السعادة والدهشة أن يجد ذلك الكم الهائل من الصور؛ بقي بركهارت هادئًا وبدا كأنه لا يكترث كثيرًا لابتهاج الرسام بجمال الصور، لكنه كان في دخيلته يتحرق شوقًا ليسمع ردَّ فعل صديقه، وحين صاح فرغوث بجذل:

ـ ما أجمل هذه الصور! هل التقطتها كلها بنفسك؟

رد عليه بخفوت:

ـ بعضها، والبعض الآخر التقطها أحد أصدقائي هناك. لقد أردت فقط أن أعطيك فكرة ما عن المكان.

قال ذلك بطريقة من يذكر شيئًا عابرًا لا يعيره أدني مبالاة، ثم كم الصور جانبًا. كان الرسام أبعد من أن يتصور كم بذل من الجهد في إعداد كل تلك الصور وترتيبها في مجموعات. كان صديقه قد استدعى مصورًا إنجليزيًا شابًا من سنغافورة ثم مصورة يابانية من هونغ كونغ وأمضيا معه أسابيع في رحلات في البحر وفي أعماق الغابات، يفتشان ويصوران كل شيء بدا

جميلًا، وجدير بالاهتمام؛ ثم حمضت الأفلام وطبعت بكل عناية وحرص. كانت الصور هي الطعم الذي أعده بركهارت، راح يختلس النظر إلى صديقه وهو يتأمل باستثارة متوترة ثم وهو يعضه ويغرز أسنانه فيه. عرض عليه صورًا لمنازل وشوارع وقرى ومعابد وكهوف باتو القريبة من كوالالامبور، وجبال الكلس والرخام المسننة ذات الجمال الصارخ القريبة من أيبوه، وعندما سأل فرغوث فيما إذا كان هناك صور للسكان المحليين، فتش بركهارت بين أكوام الصور وأراه صورة الملاويين، وصينيين وتاميليين، وعرب، ويابانيين، وعمال ميناء مفتولي العضلات، عراة، صيادين عجزة نحيلي الأجسام، قناصين، فلاحين، نساجين، تجار، نساء جميلات بحلي ذهبية، ومجموعة من الأطفال السمر العراة، صيادين بشباكهم، وسكان ماليزيا الأصليين الساكيوت ذوي أقراط ينفخون نايات الأنوف، وبنات يرقصن مُحلات بهلب فضية رخيصة. وكان لديه أيضًا صور النخيل من كل نوع، نخيل ذو سعف عريض، أشجار بيانغ، قطع من غابات مطرية مكتظة بآلاف الزواحف، غيضات ومعابد مقدسة، وبرك السلاحف، والماء في حشايا الرز، وأفيال أليفة تعمل، وأخرى متوحشة تلعب في الماء مادة خراطيمها باتجاه السماء.

التقط الرسام الصور واحدة بعد أخرى، وضع بعضها بعد أن ألقى إليها نظرة خاطفة، ورمي بعضها الواحدة بجانب الأخرى بغرض المقارنة، وتفحص بعض الأشكال والرؤوس بعناية فائقة من خلال تجويف يده. سأل عدة مرات عن الوقت الذي أخذت فيه صورة ما، قاس أبعاد الظلال، وصار ينغمر شيئًا فشيئًا في الأعماق. علّق مرة بذهول: "بإمكان المرء أن يرسم كل ذلك."، وصاح وهو يطلق تنهيدة: "يكفي! لا بد لك أن تخبرني عن المزيد. كم أنا سعيد أنك هنا! كل شيء يبدو لي الآن مختلفًا.. هيا، سنتمشى على مدى ساعة، أريد أن أريك شيئًا ما.

نهض، وقد زال إجهاده، وخرج يتبعه بركهارت، اتّخذا طريقهما في البداية، ثم قدمت عربات التبن من الاتجاه المقابل تجرها الخيول. استنشق رائحة التبن الدافئة العبقة، وسرعان ما حضرته ذكرى من الذكريات. سأل ضاحكًا:

ـ هل تذكر؟ ذلك الصيف بعد أول فصل دراسي لي في الأكاديمية، عندما كنا في الريف معًا؟ لقد رسمت التبن، ولا شيء غير التبن فقط، هل تذكر؟ أجهدت نفسي على مدى أسبوعين محاولًا أن أرسم سيقان التبن في مرج الجبل، غير أني لم أفلح إذ لم تأت تلك

السيقان بشكل صحيح. لم أستطع أن أوفق في اختيار ومزج اللون المناسب، أوه، يا لذلك التبن الرمادي الباهت! وحين أفلحت أخيرًا، وجدت أنه لم يكن كما هو تمامًا، لكني أدركت على الأقل أن علي أن أمزج اللون الأحمر بالأخضر لقد كنت في غاية السعادة لدرجة أنني لم أستطع أن أرى شيئًا آخر غير التبن. أوه، ما أروع ذلك، المحاولة الأولى ثم البحث والاكتشاف!

قال أوتو:

ـ يبدو لي أن هناك الكثير مما يمكنك أن تتعلمه.

ـ بالطبع، لكن ما يعذبني الآن لا علاقة له بالتكنيك على الإطلاق. هل تدري، ما أكثر ما رأيت في السنوات الأخيرة ما يعيد إليّ طفولتي. وفي الأيام الأخيرة بدا لي كل شيء بشكل مختلف؛ إني آمل أن أتمكن ذات يوم من رسم شيء من ذلك. أحيانًا أجد نفسي وقد قبضت على شعور ما للحظة أو أكثر، وفجأة يستعيد كل شيء توهجه ـ غير أن ذلك لا يكون كافيًا. هناك العديد من الرسامين البارعين، حساسين، رجال متميزين يرسمون العالم كما هو في عينيّ إنسان ذكي، متميز، إنسان رفيع غير مدع. غير أننا لا نمتلك واحدًا يرسم العالم طريًا، حيًا، جذلان كما هو في عيني طفل مهيب، ومعظم أولئك الذين يحاولون لا يعدون كونهم أكثر من متدربين عاديين.

اقتطف قرنفلة برية حمراء مشوبة بالزرقة، من طرف الحقل وأخذ يحدق فيها. سأل، كما لو أنه استفاق فجأة، وهو ينظر إلى صديقه نظرة حية.

ـ هل أضجرك بحديثي؟

لم يقل أوتو شيئًا واكتفى بالابتسام. واصل الرسام حديثه:

ـ أتعرف؟ إحدى اللوحات التي لا زلت أتمنى أن أرسمها هي باقة زهور برية. أمي، كما يجب أن تعرف، كان بمقدورها أن تصنع باقات لم أصادف مثلها أبدًا؛ لأنَّها كانت أصيلة وحاذقة في ذلك. كانت مثل طفل، دائمًا تغني، ومشيتها خفيفة، ترتدي قبعة بنية من القش، هذه هي الهيئة التي أراها فيها دومًا في أحلامي. لا بد أن أرسم يومًا ما باقة زهور برية، الزهور التي أحبتها: زهرة قرنفل برية، وزهرة الألفية ذات الألف بتلة وقليل من اللبلاب القرنفلي، مع بعض أوراق العشب الجميلة وساق دخن أخضر. لقد أحضرت معي إلى البيت مائة باقة من هذا النوع، لكن أي واحدة منها لم تكن صحيحة

تمامًا، فضلًا عن أن العبق كله لا بد أن يكون موجودًا، لا بد أن تكون الباقة كما لو أن أمي هي التي نسقتها. إنها لم تكن ـ مثلًا ـ تحب زهرة الألفية البيضاء، كانت تأخذ منها فقط الأنواع الجميلة النادرة ذات المساحة البنفسجية؛ كانت تنفق نصف ما بعد الظهر لتختار من بين ألف ورقة عشب أمامها ورقة واحدة.. أوه، لا فائدة، إنك لن تفهم.

هزّ بركهارت رأسه وقال:

ـ إني أفهم بالتأكيد.

ـ نعم، أحيانًا ما أفكر بتلك الباقات الساعات بكاملها. أدري تمامًا كيف يجب أن تكون اللوحة. لم يرَ أحد من المدققين الجيدين مقتبساتك الشهيرة من الطبيعة، كما أنها لم تحاكِ في لوحات من قبل رسام حساس بارع، ولا من قبل رقيق مشبوب العاطفة، مثلما يستطيع رسام مناظر وطني أن يفعل. تلك اللوحة لا بد أن تكون بسيطة تمامًا كما تبدو في عيني طفل موهوب، فريدة ومفعمة بالبساطة. السمك وضباب الصباح التي في مرسمي هي على العكس تمامًا ـ لكن على الرسام أن يكون قادرًا على أن يفعل الاثنين معًا.. أوه، إن أمامي الكثير والكثير لأرسمه، الكثير!

انعطف إلى ممر ضيق يفضي إلى المروج، صاعدًا بلطف إلى هضبة صغيرة مستديرة. قال بحماس وهو يتلصص إلى الأمام كأنه صياد: "والآن، ابق عينيك مفتوحتين. سوف تراه من هناك! إن ذلك هو ما سأرسمه هذا الخريف".

وصلا إلى القمة. في الطرف البعيد تمتد أيكة مورقة تفتن العين، وقد غرفت في فضاء المساء المائل التي جعلها المرج النظيف المفتوح تتراخى وتبطئ في سيرها خلال الأشجار.

كان الدرب يقود إلى مجموعة من أشجار المشمش الطويلة يقبع تحتها مقعد من الحجر نمَت عليه الأشنة ومن هناك، تبصر العين فتحة ينفذ من خلالها الطريق شاقًا مرًا معتمًا تضلله الأشجار حتى يصل إلى براح منعس مشرق، واد تتخلله أشجار الصفصاف، والأشجار الخفيضة، كانت مياه النهر الزرقاء والمشوبة بخضرة تترقرق وتومض وقد تشعبت في مجريين توأمين، وفيما وراء ذلك بدت سلاسل التلال المتتابعة إلى مالانهاية. أشار فرغوث إلى البعيد قائلًا: "سوف أشرع في رسم ذلك ما إن تخضر أشجار المشمش. سوف أجلس بيير على المقعد الحجري في الظل كما لو أنه يتطلع إلى الوادي.

لم يقل بركهارت شيئًا. كان قلبه مفعمًا بالود والتعاطف وهو يصغي لصديقه. حدث نفسه قائلًا بابتسامة مختلسة: "كم هو صعب عليه وهو يحاول أن يكذب عليّ! كيف يتحدث عن الخطط والعمل! إنه لم يفعل ذلك من قبل أبدًا."

تظاهر بأنه يصغي بكل اهتمام إلى الأشياء التي يرددها صديقه ولا يزال يجد فيها سرورًا يمده بالعزاء ويحثّه على مواصلة الحياة. كان يعرفه تمامًا ولم يرد أن يوقفه في منتصف الطريق، كان يعرف أنه لن يصمد طويلًا وأنّه سرعان ما سيعمد إلى كسر الصمت الذي لم يعد يحتمل، وسيضطر إلى التخفيف عن نفسه من كل شيء تراكم على كاهله خلال أعوام بكاملها؛ ولذا، ظل سائرًا بجوار صديقه منتظرًا بوقار ظاهر، في حين كان قلبه مكروبًا حزينًا، ومتعجبًا كيف أن إنسانًا عظيمًا بهذا القدر يصير أشبه بطفل صغير وقع في محنة وراح يتخبّط موثق اليدين على غير هدى في حرج من العليق.

وفي طريق عودتهم إلى روزهالده سألا عن بيير، فأخبرا أنه ذهب إلى المدينة مع فراو فرغوث لاستقبال الهر ألبرت.

4

راح ألبرت فرغوث يذرع غرفة موسيقى أمه بغضب ظاهر. إن من يلقي عليه النظرة الأولى يعتقد أنه يشبه أباه؛ لأن له نفس عينيه، غير أنه في الواقع يشبه إلى حد بعيد أمه التي وقفت مستندة على البيانو وأخذت تتابعه بنظرات حانية متفحصة. حين اقترب منها، أمسكت كتفيه وأدارت وجهه إلى وجهها. كانت خصلة من شعره الأشقر تتدلى فوق جبينه العريض الشاحب، وكانت عيناه تومضان بنزق الصبيان، وقد التوى فمه الجميل بسبب الغضب. صاح محررًا نفسه من قبضتها:

ـ لا، يا أمي.. أنت تعرفين أنني لا أستطيع أن أذهب لرؤيته. سيكون ذلك مشهدًا مضحكًا. هو يعرف أنني أكرهه، ولتعتقدي أنت ما شئت، وهو أيضًا يكرهني.

قالت بامتعاض رقيق:

ـ الكراهية! لا تستعمل كلمات كهذه، إنها تفسد كل شيء. إنه أبوك، وقد أحبك يومًا ما حبًا شديدًا. إنني أمنعك أن تتحدث هكذا.

توقف ألبرت وحدق إليها بصمت، ثم قال:

ـ يمكنك ـ بالطبع ـ أن تمنعيني عن استخدام بعض الكلمات، لكن، ما الذي يغيره ذلك من الأمر؟ هل تتوقعين مني أن أكون ممتنًا له؟ لقد حطم حياتك ودمر بيتي، لقد حول روزهالده الجميل، السعيد، الرائع إلى مكان للبؤس والغثيان. لقد ترعرعت هنا، يا أمي، وأحيانًا ما كنت أحلم ليلة بعد ليلة بالغرف القديمة والصالات، بالحديقة والحظيرة وأعشاش الحمام، لم يعد لي بيت آخر أحبه، وأحلم به وأشتاق إليه. وعليّ الآن أن أحيا في أماكن غريبة، وما عدت قادرًا على استدعاء أيّ صديق إلى هنا في أوقات العطلة؛ لأنني لا أريده أن يطّلع على الحياة التي نعيشها! وكلما قابلت شخصًا ما وسمع باسمي، انطلق في ترديد ترانيم المديح لأبي الشهير. أوه، يا أمي، كم أتمنى لو لم يكن لي أب أبدًا، ولا كان لنا روزهالده، كم أتمنى أننا كنا أناسًا فقراء، وكنت أنت تخيطين أو تعطين دروسًا، وكان عليّ أن أساعدك من أجل توفير ما يؤودنا.

تشبثت به أمه، وأرغمته على الجلوس على أحد الكراسي وجلست هي على ركبتيه، وأمسكت بشعره مثبتة رأسه إلى الكرسي. قالت بصوتها الخفيض العميق، الصوت الذي كان البيت والمأوى بالنسبة له:

ـ حسنًا. حسنًا، لقد أخبرتني الآن بكل شيء. أحيانًا يكون من الأفضل للإنسان أن يبوح بما في صدره. إنه لأمر رائع أنك مدرك لما ينبغي علينا أن نحتمله. غير أنه ما ينبغي لنا أن نمخض ما يؤذينا، وننكأ جراحنا، يا طفلي. لقد صرت الآن فارع الطول مثلي، وعما قريب ستصير رجلًا، وأنا سعيدة بذلك. أنت ابني، وأريدك أن تظل ابني؛ لكن كما ترى، إنني أبقى وحيدة معظم الوقت ولدي العديد من المنغصات. إنني بحاجة إلى رجل بجانبي، وأنت ذلك الرجل. إن عليك أن تلعب لعبة الأربع أيدي، وأن تتجوّل في الحديقة معي، وأن تشرف على بيير، ولا بد لنا من أن نقضي إجازة ممتعة معًا. ما ينبغي لك أن تغضب وتجعل كل شيء يصير أصعب عليّ؛ لأن ذلك سيجعلني أشعر أنك لازلت طفلًا صغيرًا، وأنه يتعين عليّ أن أنتظر وقتًا طويلًا لذلك الصديق الذكي الذي أنا في أمس الحاجة إليه.

ـ نعم، يا أمي، أنت على حق. لكن، حين أشعر بالتعاسة لأمر ما، أيتوجب عليّ أن أكتم ذلك في سري؟

ـ تلك هي الطريقة المثلى، يا يوليلا إنها ليست سهلة، وهي غير متوقعة من الأطفال؛ لكنها الطريقة المثلى. والآن، هل نعزف لحنًا معا؟

ـ نعم، لنعزف بتهوفن، السيمفونية الثانية هل ترغبين في ذلك؟

ما كادا يبدآن العزف حتى انفتح الباب بهدوء وانسل منه بيير إلى الداخل، جلس على مقعد لا ظهر له، وجعل يصغي، كان يتطلّع في أخيه باستغراق؛ مؤخرة رأسه، ياقة قميصه الرياضي الحريرية، شعره الذي يتحرك وفقًا للإيقاع الموسيقى، وأخيرًا يديه. وفي تلك اللحظة التي لم يكن يبصر عيني أخيه، استطاع أن يلاحظ عن كثب شبه ألبرت الكبير بأمه. سأله ألبرت خلال برهة توقف: "هل تعجبك؟"، اكتفي بيير بأن هز رأسه، غير أنه انسل خارجًا بعد وقت قصير وقد أحس في سؤال ألبرت النبرة التي يعرفها جيدًا، والتي يفترض معظم البالغين أن عليهم أن يستخدموها عندما يتحدثون إلى الأطفال، لم يستطع أن يحتمل تلك الصداقة المرائية والتكبر

الأخرق المضجر. كان سعيدًا أن أخاه الأكبر قد جاء بعد أن ظل هو يتشوّق إلى مجيئه. أما تلك النبرة، فلا، إنه لن يطيق الصبر عليها.

خلال ذلك، كان فرغوث وبركهارت في المرسم ينتظران قدوم ألبرت. بركهارت بحب استطلاع ظاهر، وفرغوث بحرج متوتر، وقد بارحته طلاقته في الحديث عندما علم أن ألبرت قد وصل. سأل بركهارت:

ـ هل وصوله غير متوقع؟

ـ لا، ليس الأمر كذلك، كنت أعلم أنه قادم في أي يوم.

أخرج فرغوث بعض الصور القديمة من صندوق العاديات. التقط صورة الولد الصغير ووضعها جنبًا إلى جنب مع صورة بيير وقال:

ـ هذا هو ألبرت حين كان تمامًا في عمر بيير الآن. هل تتذكره؟

ـ أوه، نعم أتذكره تمامًا. في الصورتين تماثل جميل. إنه يبدو شبيها بزوجتك إلى حد بعيد.

ـ أكثر من بيير؟

ـ نعم، أكثر بكثير. بيير لا يشبهك ولا يشبه أمه.. آه، ها هو قادم، أم هو ألبرت؟ لا، لا يمكن أن يكون هو.

سُمعت خطوات خفيفة خلف الباب تجتاز البساط والمداس الحديدي الذي يُستخدم لتنظيف الأحذية مما علق به من ثلج أو وحل؛ لُمست أُكْرة الباب، ثم أُديرت بعد تردد قصير. دلف بيير، مجيلًا طرفه في نظرة ودودة مستطلعة ليتأكد من أنه مرحب به. سأله أبوه:

ـ أين هو ألبرت؟

ـ مع ماما، إنهما يعزفان على البيانو.

ـ هاه، إنهما يعزفان على البيانو.

ـ هل أنت غاضب يا بابا؟

ـ لا، يا بيير إنني مسرور أنك جئت. هل هناك من جديد؟

أبصر الولد الصور والتقطها:

ـ أوه، هذا أنا. وهذا؟ أهو ألبرت؟

ـ نعم، ذلك ألبرت. ذلك هو حين كان في سنك تمامًا.
ـ كان ذلك قبل أن أولد. أما الآن فقد صار كبيرًا، وروبرت يدعوه الهر ألبرت.
ـ هل تود أن تصير كبيرًا؟
ـ نعم، أود. الكبار يستطيعون امتلاك الجياد، ويقدرون على السفر. أنا أحب أن أفعل ذلك. وما من أحد يمكنه مناداتك يا بني ويقرص خديك. غير أني لا أريد في الواقع أن أكون بالغًا. المسنون غالبًا ما يكونون منفرين ولا تقدر على التوافق معهم. حتى ألبرت صار الآن مختلفًا تمامًا. ثم إن الكبار بعد ذلك يتقدمون في السن أكثر فأكثر ويموتون في النهاية. إنني أفضل أن أبقى كما أنا الآن، وبعض الأحيان أتمنى لو كان بمقدوري أن أطير، وأن أحوم فوق الأشجار وبين السحب؛ حينها سأضحك كلما رأيت أحدًا ما.
ـ وستضحك عليّ أيضًا، يا بيير؟
ـ أحيانًا، يا بابا. إن الكبار يكونون جد مضحكين في بعض الأحيان. ماما لا تكون كذلك كثيرة، أحيانا ماما تتمدد في الحديقة على كرسي طويل، ولا تفعل شيئًا، فقط تتأمل العشب، ويداها متدليتان، وقد تجمدت تمامًا وبدت محزونة إلى حد ما. إنه لأمر لطيف ألّا تفعل شيئًا من حين لآخر، وألّا تظلّ طوال الوقت منهمكًا في عمل ما.
ـ ألا تريد أن تكون شيئًا ما، مهندسًا معماريًا، أو جنائنيًا، أو ربما رسامًا؟
ـ لا، لا أريد. يوجد سلفًا جنائني هنا، وأنا معي منزل أريد أن أكون شيئًا مختلفًا تمامًا، وأن أصنع أشياء متميزة. أريد أن أعرف ما تقوله طيور الحناء لبعضها البعض. وأريد أن أعرف كيف تستطيع الأشجار أن تشرب الماء بجذورها وكيف تصير ضخمة جدًا. أنا لا أظن أن أحدًا يعرف ذلك حقًا. المدرس يعرف الكثير، إلا أنها جميعًا أشياء مضجرة.

كان قد جلس في حضن أوتو بركهارت وكان يتحدث وهو يلعب بإبزيم الحزام. قال بركهارت بنبرة ودودة:

ـ هناك أشياء كثيرة جدًا لا نقدر على معرفتها. هناك أشياء كثيرة لا نستطيع فقط إلّا أن نشاهدها، إنها جميلة وعلينا أن نكون مقتنعين بذلك فحسب. عندما تجيء لزيارتي في الهند يومًا ما، ستبقى على ظهر سفينة كبيرة لأيام وأيام، أعداد شتى من الأسماك الصغيرة تتقافز في الهواء أمام السفينة، ولها أجنحة لامعة كالزجاج وتقدر على الطيران.

وأحيانًا يكون هناك طيور قدمت من مسافات بعيدة من جزر غريبة، وتبدو شديدة الإرهاق فتحط على ظهر المركب وقد غشيتها الدهشة لمرأى ذلك العدد الكبير من الناس الغريبين الذين يعبرون المحيطات. إنها تريد أن تتعرف علينا أيضًا وتسألنا من أين جئنا وما هي أسماؤنا، ولكنها لا تستطيع، ولذا نكتفي بالتطلّع إلى أعينها وتكتفي هي بالتطلّع إلى أعيننا، ثم يهزّ كل منا رأسه فحسب، وبعد أن يأخذ الطير قسطًا ما من الراحة، يهزّ نفسه ويطير في سماء المحيط.

ـ ألا يعرف أحد ما اسم تلك الطيور؟

ـ أوه، بلى؛ لكننا نعرف الاسم الذي أطلقه عليها بعض الناس. إننا لا ندري ما تطلق على بعضها البعض من أسماء.

ـ ما أروع قصص العم بركهارت يا بابا. إنني أتمنى أن يكون لي صديق أيضًا. ألبرت صار كبيرًا جدًا. معظم الناس لا يدرون في الواقع ما أعنيه عندما أقول شيئًا ما، لكن العم بركهارت يفهم جيدًا ما أقوله على الفور.

أقبلت الخادمة لتصطحب معها الطفل. لقد حلّ وقت العشاء، وفي الحال اتّجه الرجلان نحو منزل العزبة. كان الهرفرغوث صامتًا، شاردًا ويبدو في حالة غير طبيعية. وفي غرفة الطعام أقبل نحوه ابنه وصافح أحدهما الآخر.

ـ مساء الخير، بابا.

ـ مساء الخير، يا ألبرت. هل كانت رحلتك مريحة؟

ـ نعم، شكرًا. مساء الخير، يا هر بركهارت

كان الفتى مهذبًا باردًا تعوزه الحماسة. رافق أمه إلى المائدة، وقدم الطعام.. كانت المحادثة كلها تقريبًا بين بركهارت وبين سيدة المنزل، وقد تركزت حول الموسيقى. قال بركهارت موجهًا حديثه إلى ألبرت:

ـ أريد أن أسألك، ما نوع الموسيقى التي تحبها بالتحديد؟ وعلى الرغم من أنني قد ابتعدت تقريبًا عن هذه المسألة، إلا أن المؤلفين المعاصرين بالنسبة لي ليسوا أكثر من أسماء.

رفع الفتى رأسه بأدب وأجاب:

ـ أنا نفسي لا أعرف المؤلفين المعاصرين إلا عن طريق الإشاعة. وأنا لا أنتمي إلى مدرسة بعينها. إني أحب أي موسيقى جيدة، وبالذات باخ، وغلوك وبتهوفن.

ـ أوه، الكلاسيكيين، في أيامنا كان الوحيد الذي عرفناه من بين أولئك كلهم هو بتهوفن. ولم نكن نسمع عن غلوك إلا فيما ندر. أتعرف؟ لقد كنا كلنا فاجنريين متحمسين. يوهان، هل تذكر متى سمعنا بتريستان للمرة الأولى؟ لقد جرفتنا الحماسة. صاح يوهان بشيء من الفظاظة:

ـ قبعة قديمة! فاجنر انتهى، أليس كذلك يا ألبرت؟

ـ أولًا، مطلقًا، لا. إن أوبراته تعرض في كل مكان. بيد أنني لا أملك رأيًا، خاصة في هذا الموضوع.

ـ ألا يروقك فاجنر؟

ـ أنا لا أعرفه بما فيه الكفاية، ونادرًا ما أذهب إلى الأوبرا. إنني أهتم بالموسيقى وحدها، وليس بالموسيقى الأوبرالية. حسنًا، وما ذا عن المقطوعات الموسيقية التي تُعزف كمقدمات للأوبرا المايستر سينغر! لا بد أنك على علم بذلك. أم أنك لا تكترث لذلك النوع أيضا؟

عض ألبرت شفتيه، وأطرق لبرهة قبل أن يجيب:

ـ ليس لي رأي في حقيقة الأمر. إنها ـ ماذا أقول.. موسيقى رومانسية، وهي لا تروق لي.

قطب فرغوث، وسأل بطريقة يريد بها تغيير الموضوع:

ـ هل تريد بعض النبيذ؟

ـ نعم، لو سمحت.

ـ وأنت، يا ألبرت؟

ـ شكرًا، يا بابا. أفضل ألّا أشرب.

ـ هل صرت من الممتنعين عن المسكرات؟

ـ لا، أبدًا. غير أن النبيذ لا يعجبني. وأفضل ألا أشرب.

ـ حسنًا، لكنك ستشرب معي، يا أوتو في صحتك.

أفرغ نصف كأسه في جرعة واحدة سريعة. وظلّ ألبرت على حاله، يمثل دور الفتى النجيب الحسن التهذيب صاحب الآراء المحددة والتي يحتفظ بها لنفسه في تواضع، تاركًا الحديث

للكبار، لا شوقًا في التعلّم، بل رغبة في أن يترك وشأنه. غير أن ذلك الدور لم يسعفه لوقت أطول، وسرعان ما شعر بالضيق. وكالعادة، تجاهل أباه قدر المستطاع، آملًا ألّا يعطيه أي فرصة للمجادلة.

انشغل بركهارت يلاحظ في صمت، ولذا ساخت المحادثة في الصقيع، ولم يعد هناك من أحد يبعثها من جديد ويعيد لها الحياة. هبوا جميعًا على طعامهم يلتهمونه وراحوا يقدمون الأطباق إلى بعضهم البعض بأيد وكلما ت تهذيب متباد لة. ثمّ أ خذوا يتلاع بون بملاع ق الحلوى على نحو أ خرق منتظرين في عزلة م ثبطة للحظة التي يتمكنون فيها من مغادرة المائدة. وعندئذ بالذات، أدرك أوتو بركهارت تمامًا الوحدة والبرودة اليائسة التي حلّت بزواج صديقه وحياته. كان يحزره بنظراته، ويجده يحدق في طعامه باكتئاب لا حدود له، لم يسبق له أن عهِده لديه إلا في القليل ا لنادر، ولما التقت أعينهما لبرهة، أدهشته نظرة التوسّل والضراعة والشعور بالعار الذي كشفت عنها حالته تلك.

كانت نظرة أسى مريض، وبدا أنّ الصمت البغيض، والبرودة، والفتور المحرج، والقتامة المتصلّبة على مائدة العشاء قد أفصحت عاليًا عن عار فرغوث وخجله. وفي تلك اللحظة شعر أوتو أن البقاء يومًا آخر في روزهالده لن ينتج عنه إلا إطالة دور الإذلال، الذي يمثله كمتفرج، و أن يطيل أم د عذا ب صد يقه ا لناجم عن المجا هد ة في إخفا ء ا شمئزاز ه ونفوره مراعاة للمظاهر، غير أنه لن يقدر على مكابدة روحه والاحتفاظ برباطة جأشه وستر بؤسه عن عين المتفرج. رأي أوتو أن وقت مغادرته قد حل.

ما كادت فرو فرغوث تتململ في مكانها محاولة النهوض حتى دفع زوجها كرسيه إلى الوراء، قائلًا:

ـإني جد مرهق، أرجو أن تعذروني. لا، لا، ابقي مكانك..

خرج، ناسيًا أن يغلق الباب وراءه، وتناهى وقع خطواته الثقيلة البطيئة إلى سمع أوتو وهو يجرها بعيدًا في الصالة وهي تطقطق في درجات السلم المتشقق.

أغلق بركهارت الباب، وتبع سيدة الدار إلى غرفة الجلوس حيث كان نسيم المساء يهب مقلبًا صفحات النوتة الموسيقية الموضوعة على البيانو الصامت.

قال في حرج:

ـ كنت أنوي أن أطلب منك عزف شيء ما. بيد أني أعتقد أن زوجك ليس على ما يرام. لقد أنفق معظم ما بعد الظهر يشتغل في الشمس. إن لم يكن لديك مانع، أعتقد أن عليّ أن أبقى إلى جانبه لبعض الوقت.

هزت فرو رأسها موافقة بحزن، ولم تقم بأي محاولة لاستبقائه. أستأذن بالخروج ورافقه ألبرت إلى بداية السلم.

5

كان الظلام يهبط عندما وضع أوتو بركهارت قدمه عند مدخل الصالة، حيث كان الشمعدان الكبير قد أُضيء، استأذن من ألبرت وخرج. توقف تحت أشجار الكستناء، يتلذذ بنداوة الأوراق البليلة وهواء المساء المنعش، ماسحًا قطرات عرق كبيرة علّقت بجبهته. إن كان يستطيع تقديم أية مساعدة لصديقه، فها هو ذا أوانها الآن.

لم يكن هناك أي ضوء في مسكن الرسام. لم يجد فرغوث في المرسم ولا في الغرف الأخرى. فتح الباب المواجه للبحيرة، وجال بخطوات بطيئة حول المنزل باحثًا عنه، ووجده في نهاية المطاف جالسًا في كرسي الخيزران ذاك الذي احتله هو نفسه ظهيرة ذلك اليوم حين كان فرغوث يرسمه. كان منكفئًا إلى الأمام ووجهه بين يديه، جامدًا تمامًا كما لو كان غارقًا في النوم.

ناداه بركهارت برقة، ووضع يده على رأسه المحني. وفي غمرة إجهاده ومعاناته، لم يجب فرغوث بشيء. وقف بركهارت إلى جواره بصمت ينتظر ويداعب بيده شعر صديقه القصير الخشن. وكانت الرياح التي تخشخش في الأشجار وحدها تبدد سكون المساء، مرّت الدقائق بطيئة. وعندئذ، وعلى نحو مفاجئ، شق ظلمة الغسق صوت عظيم رنان انبعث من منزل العزبة، نغمة قوية، تلتها أخرى، وكانت تلك النغمتان هما المداعبة الأولى لمقطوعة موسيقية على البيانو.

رفع الرسام رأسه، وهزّ يد صديقه بلطف، ونهض، تطلّع صامتًا في بركهارت بعينين كليلتين جافتين، ووجه عاجز عن التبسم، واستحالت ملامحه المتجهة إلى متوانية مرهقة.

ـ ـ هيا ندخل.

قال ذلك مصحوبًا بإشارة منه كما لو أنه بها يحمي نفسه من عذاب الموسيقى. سار في المقدمة وعند باب المرسم، توقف، وقال:

ـ يخيل لي أننا لن نستضيفك لفترة أطول؟

تعجب بركهارت كيف أنه يستشعر كل شيء! وبصوت رصين، أجابه:

ـ ما الفرق إذا ما زاد يوم أو نقص آخر؟ ربما غادرت بعد غد.

تلمس فرغوث الجدار بيده باحثًا عن مفاتيح النور. ضغط على المفتاح، غرق المرسم في ضوء ساطع.

ـ في هذه الحالة، دعنا نشرب سويًا زجاجة من النبيذ الجيد.

وقرع الجرس طالبًا روبرت وألقى إليه بجملة من الأوامر. كانت صورة بركهارت ناجزة تقريبًا، وقد ثبتت على الحامل في وسط المرسم. وقفا يتأملانها بينما أخذ روبرت ينقل المنضدة والكراسي، ويحضر النبيذ والثلج، ويضع السيجار والمنفضة.

ـ ذلك يكفي، يا روبرت. يمكن أن تأخذ راحتك هذا المساء. لا توقظني صباح الغد. إلى اللقاء.

وبدأ يخاطب صديقه:

ـ الصورة لم تنته بعد، خذ سيجارًا. كان من الممكن أن تكون زيارتك أفضل بكثير، لكن ذلك لا يهم في الواقع، سوف نلتقي مرة ثانية.

التقط سيجارًا وقطعه بترو وحطه بين أصبعين متوترتين ثم وضعه على الطاولة، وهو يسأل: "لم تجد الأمور كما يرام هذه المرة، يا أوتو، أليس كذلك؟ أنا آسف.."، وغاض صوته، وانكفأ إلى الأمام ملامسًا يدي بركهارت ثم قبضهما بين يديه بشدة، وبإجهاد: "ها قد عرفت كل شيء، الآن. وفي عينيه قطرات من الدمع متماسكًا رابط الجأش. استوى في جلسته وحاول أن يتكلم بهدوء ووقار، قال في حرج: "سامحني. ولنشرب شيئا من النبيذ. ألا تدخن؟" تناول بركهارت سيجارًا وقال: "أوه، أيها الصديق البائس!".

شربا ودخنا بصمت تام وهما يتأملان، بريق الكؤوس الكريستالية، والوهج المتّقد في النبيذ الذهبي، وشاهدا الدخان الأزرق المتصاعد في سماء الغرفة الواسعة، ثم ـ وهو يميل إلى الأسفل على هيئة خيوط متساقطة ومن حين لآخر ـ تبادلا نظرات مباشرة وآنية لم تكن بحاجة إلى مزيد من الكلمات، كما لو أن كل شيء قد قيل.

أزّت العثة وهي تعبر الأستوديو مصطدمة بالجدران ثلاث أو أربع مرات مصدرة صوتًا مكتوماً. ثم استقرت تحدق ببلاهة في مثلث رمادي، أملس على السقف.

أخيرًا سأل بركهارت في تردد:

ـ هل ستجيء معي إلى الهند في الخريف؟

خيَّم صمت طويل آخر. شرعت العثة تتحرك. عثة صغيرة رمادية، راحت تزحف ببطء كما لو أنها قد نسيت كيف تطير. قال فرغوث:

ـ ربما، ربما. لا بد أن نتحادث حول هذه المسألة.

ـ اسمع، يا يوهان. أنا لا أريد أن أثقل عليك بتطفلي لكن، لا بد لك أن تطلعني على قدر مما تعانيه. إنني لم أتوقع مطلقًا أن يعود كل شيء بينك وبين زوجتك إلى ما كان عليه. إنما...

ـ إن أي شيء لم يكن كما ينبغي أبدًا.

ـ لا. لكن، مهما يكن، إني لفي حيرة أن أجد الأمور على هذه الدرجة من السوء. هذا وضع لا يطاق. إنه يدمرك، ويقضي عليك.

ضحك فرغوث لذلك، وقال:

ـ لا شيء يدمرني، يا صديقي. وفي سبتمبر سأعرض عشر أو اثني عشر لوحة جديدة في فرانكفورت.

ـ لا بأس، هذا جيد. لكن إلى متى تظل الحال على هذا النحو؟ هذا أمر سخيف ولا يقبله العقل.. قل لي، يا يوهان، لماذا لم تنفصلا؟

ـ ليس هذا في غاية البساطة، سوف أطلعك على كل شيء. من الأفضل أن تسمع الحكاية بكاملها من البداية إلى النهاية.

ارتشف رشفة من النبيذ، وواصل حديثه. كان يتكلم وهو مستند على الطاولة أمامه، في حين ارتد أوتو إلى الوراء ليسمع وقد أراح ظهره على المقعد.

ـ أنت تعلم أن بيني وبين زوجتي مشاكل منذ البداية. ولبضع سنوات كان الوضع محتملًا، لم يكن حسنًا ولم يكن سيئًا. حينها لعله كان من الممكن إصلاح الكثير وإنقاذه؛ لكني كنت أشعر بالخيبة ولم أتمكن من إخفاء مشاعري بصورة جيدة، لقد ظللت ألحُّ في طلب الشيء الذي ما كانت إيدل قادرة على تلبيته. لم تكن يومًا متحمسة نشطة، كانت دائمًا كئيبة رزينة ولعلي قد لاحظت ذلك منذ وقت مبكر. وعندما كان هناك أي نوع من المنغصات، فإنها ما كانت لتقدر على رؤية الوجه الآخر للمشكلة أو حتى أن تكون فكرة ما عنه. كانت استجابتها الوحيدة لمتطلباتي ونزواتي ولأشواقي، وفي الأخير لخيباتي، كانت هي الصمت الطويل المعذب، وقد انفعلت غالبًا بذلك الصبر الطويل

الهادئ المثير، غير أنه لم يكن بذي جدوى، لا لها ولا لي. فكلما كنت مستثارًا وغير راضٍ، تألمت هي بصمت، وفيما بعد، حين أزمع أمري على لمّ شعث الأمور محاولًا أن أتفهمها على نحو أفضل، فأتوسل إليها أن تصفح عني، أو عندما أحاول أن أزحزحها من مكانها في لحظة تكون فيها معنوياتي مرتفعة، فإن ذلك هو الآخر لم يكن بذي جدوى؛ كانت تظل صامتة وتوصد قلبها أكثر من أي وقت معتصمة بيقينها الراسخ ذاك. وكلما كنت أنا وهي معًا، وهي منخلعة الفؤاد، خانعة، صامتة، كانت تقابل انفجارات غضبي أو ابتهاجي بنفس الاتزان ورباطة الجأش، وكلما كنت بعيدًا عنها، كانت تجلس بمفردها. وكانت النتيجة أنني رحت أخطئ أكثر فأكثر، حتى وجدتني في الأخير عاجزًا تمامًا عن الأخذ والعطاء أو التواصل. وصرت أغرق نفسي في الكدح أكثر فأكثر حتى ألفيتني وقد تعلمت أن ألتمس ملاذي في العمل.

كان يبذل مجهودًا واضحًا وهو يحاول أن يبدو هادئًا. لم يكن لديه أيّ رغبة في توجيه الاتهام، كان يرغب فقط أن يحكي حكايته، إلا أن كلماته كانت تغلف وراءها اتهامًا لا يمكن مواراته، أو على الأقل، كان ملحوظًا تمامًا في حطام حياته، خيبة آماله الشابة، ونصف الوجود الخالي من البهجة والذي لا يتفق مع الجزء الأعمق من طبيعته والذي أدين بسببه.

ـ لقد فكرت حينها بالانفصال، بين الفينة والأخرى. لكنه لم يكن من السهل عليّ. كنت قد اعتدت على العمل في هدوء وسلام، ولم يكن بإمكاني تصوّر فكرة المحاكم والمحامين، ولا إفساد برنامج عملي اليومي المعتاد. ولو أن حبًا جديدًا قد تراءى لي، فلربما صار قرار الانفصال أكثر يسرًا. لكن طبيعتي الخاصة كانت أقل مرونة مما تصوّرت لقد وقعت في حب فتيات صغيرات جميلات، غير أن ما شعرت به كان نوعًا من الغيرة المعذبة، فحسب، ولم يستطع أن يكون أعمق من ذلك. انتهى بي الأمر إلى التأكد من أنه لن يكون هنالك من حب ثانٍ أستطيع أن أكرّس له حياتي ونفسي غير ذلك الذي وجدته لفني. كانت حاجتي لتبديد طاقاتي ونسيان نفسي، وكل آلامي، ذلك كله وجد متنفسًا له في فني، ولأقل لك الحقيقة، أنني لم أصطحب في كل هاتيك السنوات الأخيرة في حياتي إنسانًا واحدًا، لا امرأة ولا صديقًا. وكما ترى، إلى أي شيء تقود إليه أي صحبة، إنها لا تكون أكثر من مجرد إذن بالسماح لخزيي أن ينكشف.

ـ خزي؟

تساءل بركهارت بصوت خفيض ونبرة لائمة.

ـ نعم، خزي! ذلك هو ما شعرت به، وهو لم يتغير إنه لعار أن تكون تعيسًا. إنه لعار أن تكون عاجزًا عن إظهار حياتك لشخص ما، وأن تضطر إلى إخفاء شيء. لكن دعنا من ذلك، ولأكمل لك حكايتي.

جعل يحدق بسوداوية إلى كأسه، ورمى بعيدًا بعقب سيجاره، وواصل:

ـ في تلك الأثناء، كبر ألبرت وشب عن طفولته. لقد أحببناه كثيرًا نحن الاثنان، وقلقنا عليه. عمل على بقائنا معًا. وإلى أن بلغ السابعة أو الثامنة، بدأت أشعر بشيء من الغيرة والاستعداد للقتال بسببه تمامًا مثلما أفعل معها الآن بسبب بيير. شعرت فجأة أن الصغير صار بالنسبة لي عزيزًا لا يمكن التعويض عنه، ثم، وعلى مدى سنوات عديدة، كنت ألاحظه بكرب مرير متواصل وهو يشب شاعرًا نحوي بشيء من البرودة، وشيئًا فشيئًا صار يميل إلى أمه. وحدث أن مرض مرضًا خطيرًا، وفي غمرة قلقنا عليه نسينا كل شيء بيننا، وعشنا في انسجام لم يسبق له مثيل. وكان أن حملت بيير في ذلك الوقت. ومنذ أن جاء بيير إلى هذه الدنيا، استغرق كل طاقتي في الحب وكل قدرتي وإرادتي في الحياة. تركت إيدل تنسل مني مرة ثانية، وبعد شفاء ألبرت، لم أفعل شيئًا لأحول بينه وبين مشاعره الميّالة إلى أمه وكان هو نصيرها الموثوق في صراعها معي، وسرعان ما صار عدوي، وفي النهاية، أرسلته بعيدًا عن المنزل. تخليت عن كل شيء، وصرت قانطًا مدقعًا، كففت عن تسقط الأخطاء أو إصدار الأوامر في البيت، صرت ضيفًا متسامحًا في بيتي، لكني لم أبال بذلك. كل ما وددت إنقاذه والاحتفاظ به لنفسي هو صغيري بيير. وحين صارت الحياة مع ألبرت في كل أمورها لا تحتمل، عرضت على إيدل الانفصال. أردت أن أُبقي بيير معي. وكان باستطاعتها أن تأخذ كل شيء، وتعيش مع ألبرت، وهبتها روزهالده ونصف دخلي، وكل شيء في الوجود. لكنها رفضت. كانت راغبة في الانفصال، وقد طلبت فقط حدًا أدنى من العون، لكنها ما كانت لتنفصل عن بيير. كانت تلك آخر معركة بيننا، وقد حاولت فيها أن أبقى على آخر أمل لي في السعادة، وعدت، وتضرعت وأذللت نفسي، وتوعدت وبكيت، حتى فقدت في نهاية الأمر قدرتي على الصبر والاحتمال، وكل ذلك ذهب عبثًا ودونما طائل. لقد وافقت حتى على إرسال ألبرت بعيدًا. وبدا لي على حين غرة، أن هذه المرأة الصبورة

الهادئة ليس لديها أي نية في التزحزح إنشًا واحدًا، كانت مدركة تمامًا مدى قوتها وتعرف أنها أقوى مني. وفي الواقع، لقد كرهتها حينئذ، وأحيانًا أتبين أن شيئًا من تلك الكراهية لا زالت بداخلي. وهكذا، أرسلت في طلب البناء، وأقام هذا المبنى الصغير وقد عشت هنا منذ ذلك التاريخ، وها أنت قد أبصرت كل شيء.

أصغى بركهات إليه بانتباه شديد، دون أن يقاطعه حتى حين كان فرغوث يتوقع مقاطعته ويرغب فيها. قال بركهارت باحتراس:

ـ يسرني أنك أنت نفسك قد رأيت كل شيء بوضوح تام. وكما بدا لي، فإن ذلك كله كثير جدًا. فلنتحدث عن ذلك بتفصيل أكثر. جميل أنك فاتحتني على هذا النحو، وقد كنت أنتظر أن تفعل ذلك منذ أن قدمت، ولعلك أنت كنت تنتظر. افترض أنك مصاب بخراج قبيح مؤلم وأنك تخجل منه إلى حد ما، وها أنا صرت أعرف عنه، وأنت نفسك، لا بد أن تشعر على نحو أفضل إذ لا حاجة لك بعد التكتم. إلا أن ذلك في حد ذاته غير كافٍ، إن علينا الآن أن نرى إن كنا نستطيع إجراء عملية جراحية ونعالجه نهائيًا.

حدق الرسام في وجه صديقه، وهز رأسه باستغراب، وتبسم.

ـ تعالجه؟ أشياء كهذه يصعب معالجتها. إنما، تقدم واعمل مشرطك.

هزّ بركهارت رأسه موافقاً. لقد أراد أن يقطع، وهو لن يترك هذه الساعة تمر عبثًا. قال وهو يفكر مليًا:

ـ شيء ما في قصتك لا يزال غامضًا بالنسبة لي. لقد قلت أنك لم تنفصل عن زوجتك بسبب بيير. لكن ألم تستطع إجبارها على أن تترك لك بيير؟ لو أنك ذهبت إلى المحكمة، لربما توجب عليهم أن يعطوك أحد الطفلين. ألم تفكر بذلك؟

ـ لا، يا أوتو، لم أفكر بذلك مطلقًا! بل لم يخطر لي على بال أن القاضي بكل ما لديه من حكمة قد يقدر على إصلاح عيوبي، ولا مبالاتي بالواجب. إذا كنت أنا نفسي عاجزًا عن جعل زوجتي تتخلى لي عن الولد، فليس أمامي من شيء لأفعله سوى الانتظار حتى أرى بيير نفسه لصالح من سيقرر وهو يتخذ مثل ذلك القرار فيما بعد.

ـ إذن، فالقضية كلها قضية بيير. ولولاه لكنت قد طلقت زوجتك بالتأكيد منذ مدة طويلة، ولكنت بحثت لك عن سعادة ما في العالم، أو على الأقل، كنت قد توصلت إلى طريقة

محددة ومعقولة في العيش. أي أنك، بدلًا من ذلك، قد وقعت في شرك من البدائل والتضحيات والحيل الخسيسة التي لا يمكن لها إلا أن تخنق رجلًا مثلك.

تطلع فرغوث بصعوبة، ثم جرع كأسه، وقال:

ـ أنت تصر على ترديد كلمات مثل الخنق والتدمير! لكنك تجدني حيًا أرزق وأواصل عملي بنشاط؛ أنا لن أسمح لهذه المصيبة أن تسحقني، ملعون أنا إن أنا سمحت بذلك.

تجاهل أوتو غضب فرغوث. وبإصرار هادئ، قال:

ـ عفوًا، إن هذا غير صحيح تمامًا. أنت رجل قوي وغير عادي وإلا لما صمدت طويلًا في وجه ظروف كهذه. وأنت نفسك تدري كم أن هذه الحياة قد آلمتك وعجلت بسنينك، وأن تحاول إخفاء ذلك عني هو أمر غير ذي جدوى. فعندما تخبرني بشيء، وعيناي تريان شيئًا آخر، فإني أصدق عيني، ثم إنه ليس من الصعب عليّ أن أتبين أنك تمر بحالة سيئة. إن عملك يساعدك على الاستمرار، لكنه في الأخير أقرب إلى المسألة الجمالية الفنية منه إلى المتعة. إنك تهدر أكثر من نصف طاقاتك في نكران الذات والمماحكات اليومية المؤسفة. أنت غير سعيد، أنت في أفضل الأحوال خانع مستسلم. وهذه، يا بني، ليست في صالحك ولا هي جديرة بك.

ـ خانع؟ ربما. الكثير من الناس هم كذلك يسيرون على نفس القارب. فمن عساه يكون سعيدًا؟

صاح بركهارت:

ـ أي إنسان عنده أمل فهو سعيد! ثم، أي أمل لك؟ فحتى النجاح، والتكريم والمال، إن لك من هذه ما فيه الكفاية. إنك ـ حتى لا تكاد تتذكر ما هي الحياة وما هي البهجة؟ لماذا؟ أنت قانع؛ لأنك تخليت عن الأمل. أنا أفهم ذلك تمامًا، إنه لأمر مريع أن يعيش المرء حالة كهذه، إنه خراج مؤذٍ، وأي إنسان يعاني منه ولا يوافق على قطعه فهو جبان.

أخذ يسير في الغرفة بتوتر، وبينما هو يتابع بسط خطته بحماس زائد، ظهر له وجه فرغوث الطفولي بازغًا من أعماق ذاكرته، مستعيدًا معه شجارًا مشابهًا نشب بينهما.

رفع بصره، ونظر في وجه صديقه، كان جالسًا هناك منكفئًا يحدق في اللاشيء. لم يبق أي أثر من الطفولة، اختفت كل ملامحها. لقد سماه جبانًا عن سبق إصرار. لكن ذلك الرجل

الآن، الذي كان من قبل سريع المبادرة في وجه أي استفزاز، ها هو ذا لا يبدي حراكًا للدفاع عن نفسه. كل ما فعله هو أن صاح بمرارة وضعف:

ـ واصل ما بدأته. أجهز عليّ فلا حاجة للإشفاق عليّ. لقد رأيت الكوخ الذي أعيش فيه. وعليك الآن أن تشير بإصبعك على عاري وتمحوه. أرجوك، استمر. لن أذود عن نفسي، بل إني لن أغضب بتاتًا.

وقف أوتو أمامه. شعر بأسف شديد على صديقه، لكنه أجبر نفسه على أن يقول بفظاظة:

ـ لكن، لا بد لك أن تغضب. يجب أن ترمي بي خارجًا وتهشّم صداقتنا، وإلا فعليك أن تعترف بأنني على صواب.

وقف الرسام أيضًا، واهنًا دونما حماس، قال باستسلام:

ـ حسن جدًا، أنت على صواب إذا كان ذلك هو ما تريد.. إنك تبالغ في تقديري. أنا لم أعد شابًا كما كنت، وما عدت أُستثار ببساطة، ثم إنني ما عدت أملك الكثير من الأصدقاء لكي أرمي أيًا منهم بعيدًا. لم يعد معي أحد غيرك. اجلس واشرب كأسًا أخرى، إنه نبيذ جيد، لن تحصل على نبيذ مثله في الهند ولعلك لن تجد هنا كثيرًا من الأصدقاء الذين سيتسامحون مع عنادك وصلابتك.

ربت بركهارت على كتفه بخفة، وقال فيما يشبه الغضب:

ـ دعنا من العاطفية، الآن بالذات. قل لي ما الخطأ الذي وجدته عندي، وبعدها نواصل.

ـ أوه، أنا لم أجد خطأ واحدًا فيك. أنت مصيب تمامًا، يا أوتو فعلى مدى عشرين سنة وأنت تبصرني أتدهور، تبصرني بعين الصديق، وربما بأسف، وأنا أغرق عميقًا في المستنقع. ولم تقل شيئًا أو تحط مني أبدًا من خلال تقديم يد العون. على مدى سنوات عديدة وأنت تعرف أنني أحتفظ بقنينة السم معي، وقد ظللت تلاحظني بقناعة نبيلة إذ إنني لم أخرجها وأرميها في نهاية المطاف. والآن، وبينما أنا غارق حتى القرار، حيث لم يعد بإمكاني الخروج، ها أنت ذا تقف هناك تتسقط الأخطاء وتوجه النصائح..

كانت عيناه المحمرتان المحمومتان تحدقان بيأس. وفي تلك اللحظة بالذات رغب أوتو في كأس من النبيذ، فأبصر الزجاجة وتبيّن أنها فارغة، وأدرك أن فرغوث قد أجهز عليها خلال تلك الدقائق القليلة.

ظلَّ الرسام يتطلّع في عيني صديقه، ثم ضحك ضحكة جافة خشنة. صاح بغضب:

ـأنا آسف. نعم لقد سكرت قليلًا، لا تنس أن تأخذ ذلك في الحسبان. هذا يحدث كل ثلاثة أو أربعة أشهر. أسكر قليلًا دون أدري.. وأنت تعرف.. أحتاج إلى شيء يحفزني..

وضع يديه الثقيلتين على كتفي صديقه، وقال بصراحة وبصوت علا واضطرب فجأة:

ـأرأيت، يا أوتو؟ كان من الممكن أن أعيش دون حاجة إلى قنينة السيانيد أو النبيذ وغير ذلك، لو أن شخصًا ما قد تفضّل عليّ بالقليل من المساعدة، لما تركني أغرق عميقًا عميقاً حتى صار عليّ أن أصرخ متوسلًا مثل شحاذ طالبًا شيئًا من المهلة؟ ايدل لم تقدر على احتمالي، ألبرت أدار ظهره لي، ويومًا ما سيهجرني بيير، وها أنت واقف هناك تتفرج. ألم تقدر على فعل شيء؟ ألم يكن بوسعك مساعدتي؟

غاض صوت الرسام، وجلس غارقًا في كرسيه من جديد. احتل وجه بركهارت شحوب الموتى. لقد كان الأمر أسوأ بكثير مما تصوّر. تلك الكؤوس القليلة استطاعت أن تجعل ذلك الرجل الصعب المعتد بنفسه في مثل هذه الحالة من الاضطراب وعدم التماسك والبوح بما يشعر به من خزي وتعاسة!

وقف إلى جوار فرغوث وتحدث إليه بوداعة كما لو كان يتحدث إلى طفل بحاجة إلى مواساة. قال:

ـسوف أساعدك، يا يوهان صدقني، سوف أساعدك. لقد كنت أشبه بجحش، كنت أعمى وغبيًا. كل شيء سيكون على ما يرام، لا تقلق.

استعاد بركهارت بعض المناسبات من طفولتهما. حدث أن فقد صديقه قدرة السيطرة على أعصابه. مشهد مثل هذا، هجع عميقًا في ذاكرته، استفاق فجأة ماثلًا أمام عينيه بوضوح غريب. كان يوهان في ذلك الوقت، قد ارتبط بفتاة جميلة، طالبة في معهد الرسم. وقد تحدث عنها أوتو مستخفًا بها حاطًا من قدرها، فقطع فرغوث صداقته به بشكل صارم عنيف. وبعدئذ، كانت كميّة قليلة من الخمر كفيلة بأن أفقدته اتزانه، حينها أحمرّت عينيه أيضًا وفقد سيطرته على نفسه وعلا صوته. صار صديقه متأثرًا بصورة غريبة من تكرار هذه الظاهرة غير العادية، والتي بدت له وكأنها سحابة من الماضي، ومن جديد، انتابه الذهول لمرأى ذلك الجحيم المفتوح الذي يعيش فيه صديقه وحيدًا ممزق القلب. كان ذلك ـبلا ريب ـ هو السر الذي ما يفتأ فرغوث يشير إليه من وقت لأخر طوال سنوات عديدة، وافترض بركهارت أنه يختبئ في أعماق كل فنان عظيم. ذلك إذن هو مصدر إلهام الرجل الخارق الذي لا يمكن

إشباعه والذي يحثه على الخلق وعلى اقتناص العالم بشكل جديد في كل لحظة، وبالتالي إثرائه وكان ذلك أيضًا هو مصدر ذلك الحزن الغريب الذي بواسطته يملأ كل عمل فني عظيم عين المتفرج الصامتة.

بدا لأوتو كما لو أنه لم يكن يفهم صديقه تمامًا حتى تلك اللحظة. أما الآن فها هو ذا يحدق مليًا في النبع العميق الذي تغترف منه روح يوهان القوة والمعاناة حيث نقعتا لأمد طويل. وشعر في نفس الوقت بعزاء سار عميق لكون الشخص والصديق القديم الذي كشف إليه ذلك المكابد الجسور أعماق نفسه، وكونه الشخص الذي اتهمه والذي توسل إليه طالبًا نجدته.

بدا فرغوث وكأنه قد نسي ما قاله قبل قليل. جلس هادئًا ساكنًا مثل طفل هدأ بعد نوبة غضب، وأخيرًا قال بنبرة واضحة:

ـ لم يحالفك الحظ معي هذه المرة. ربما كان ذلك كله لأنني لم أقم بعملي اليومي. أعصابي متوترة نافرة. والأوقات السعيدة لا تتناسب معي.

ولما حاول بركهارت أن يمنعه من فتح الزجاجة الثانية، قال: "سوف لن أقدر على النوم، على أية حال. يعلم الله ما الذي جعلني هكذا شديد التوتر والانفعال.

ـ حسنًا، دعنا نشرب قليلًا. أنت لم تكن متزمتًا في الأيام الخوالي..

ـ آه، أنت تقصد بسبب توتري. سوف أصلح من شأنه كما ينبغي، إن لي خبرة لا بأس بها في هذا المجال. في الأيام القليلة القادمة سأعود إلى ممارسة العمل منذ الصباح الباكر وفي الأماسي سأقوم بالتجوال لمدة ساعة.

وهكذا بقيّ الصديقان معا حتى انتصف الليل. تحدث يوهان طويلًا عن ذكريات الماضي، وأصغى أوتو، وبسرور منغص تقريبًا، أبصر رقة وهدوء وبهجة على صفحة مرآة قريبة من الأعماق المظلمة التي لم تكن تبعد عنه سوى مسافة قصيرة قبل وقت قصير.

6

ذهب بركهارت متوترًا لرؤية الرسام في صباح اليوم التالي. توقع أن يجد صديقه وقد تغيّر، وخشي أن اهتياجه ليلة البارحة قد تبدد وأفسح بالتالي مجالًا للتهكّم البارد والحرج، وبدلًا من ذلك كله، فقد أقبل يوهان للقياه وقد غشيه حزن صامت. قال:

ـ سوف تغادرنا في الغد، إذن، كما فهمت، شكرًا على كل شيء.. أنت تدري، لم أنس بعد ليلة أمس؛ لا بد لنا أن نتحدث أيضا لبعض الوقت.

وافق أوتو على الرغم من أن شكوكًا كانت تراوده. قال:

ـ إذا أحببت، لكني لا أريد أن أزعجك ثانية دونما حاجة لذلك. لعلنا قد نكأنا العديد من الجراح في الليلة الماضية. لِمَ كان علينا أن نؤجل ذلك حتى اللحظة الأخيرة!

تناولا فطورهما في المرسم. قال يوهان بتأكيد:

ـ لا، لقد فعلنا عين الصواب، تمامًا. لقد حظيت بليلة أرقة، فبقيت أقلّب التفكير في كل شيء مرارًا وتكرارًا. لقد نكأت عددًا لا بأس به من الجراحات، تقريبًا أكثر مما كنت قادرًا على حمله. تذكر، أنه لم يكن لي من أحد لأتحدث إليه على مدى سنوات عدة. لكن عليّ الآن أن أسوي كل شيء؛ وأن أفعل ما ينبغي فعله، فأنا حقًا ذلك الجبان الذي دعوتنيه ليلة أمس.

ـ أوه، هل آلمك ذلك؟ انسها، يا رجل.

ـ لا، أعتقد أنك كنت على حق. إنني أود أن أفوز معك بيوم سعيد آخر، سوف نذهب معًا في جولة بالسيارة بعد الظهر وسأريك جزءًا جميلًا من الريف. غير أن علينا أن نعد لوهلة بعض الأشياء. لقد انهار كل شيء بالأمس عليّ فجأة حتى فقدت صوابي. أما اليوم فقد حسبت كل شيء على نحو أفضل، وأعتقد أنني فهمت الآن ما كنت تحاول أن تخبرني به بالأمس.

كانت طريقته في الحديث جد هادئة وودودة حتى أن كل تحفظات بركهارت تبددت وانتهت.

ـ إن كنت قد فهمتني، فكل شيء على ما يرام وليس هناك من حاجة أبدًا لنعيد منذ البداية. لقد أخبرتني كيف حدث كل ذلك وكيف هو كل شيء في الوقت الحاضر. إنني الآن أرى أن السبب الوحيد لاستمرارك في زواجك وحياتك العائلية وحماسك للحياة بأكملها هو أنك لا تريد أن تنفصل عن بيير. هل أنا على حق؟

ـ نعم، بالضبط.

ـ حسنًا، كيف تنظر إلى المستقبل؟ أعتقد أنك أشرت البارحة أنك تخشى أن تفقد بيير أيضًا ذات يوم. أم أنني قد أسأت الفهم؟

أطلق فرغوث زفرة ثقيلة ورفع يده إلى جبهته؛ لكنه أضاف قائلًا بنفس النبرة:

ـ ربما كان الأمر كذلك. ذلك هو الموضع المؤلم. أنت ـ إذن ـ ترى أن عليّ أن أتخلى عن الولد؟

ـ نعم، هذا ما أراه. الأرجح أن زوجتك لن تتخلى لك عنه وهذا سيكلفك سنوات عديدة من العناء

ـ هذا صحيح. لكنك ترى، يا أوتو أنه هو كل شيء بالنسبة لي. إنني أعيش بين الأنقاض، ولو حدث أن مت اليوم، فلا أحد غيرك أنت وبعض الصحفيين سيكترث لموتي. إني رجل بائس، لكنني لا زلت أملك هذا الطفل، لا يزال لدي ذلك الطفل الحبيب الذي أستطيع أن أحيا من أجله، والذي أتعذب من أجله والذي أستطيع معه في تلك السويعات السعيدة أن أنسى نفسي. أنت تدرك هذا، أليس كذلك؟ وتريدني أن أتخلى عنه!

ـ ليس ذلك سهلًا، يا يوهان إنها مسألة عويصة. وأنا لا أرى أي سبيل آخر. انظر، ها أنت ذا قد نسيت كل شيء عن العالم. دفنت نفسك هنا، منغمسًا في عملك وزواجك النكد. تحرّك، وانتشل نفسك من كل ذلك؛ سوف تفتح عينيك وترى أن في العالم آلاف المسرّات والمباهج التي يبسطها بين يديك. لقد ظللت تعيش بين أشياء ميتة لأمد طويل، لقد فقدت صلتك بالحياة بالطبع، أنت متعلق ببيير إنه طفل وديع سار، لكن هذه ليست المسألة الأساسية. كن قاسيًا قليلًا لمرة واحدة، واسأل نفسك إن كان بحاجة إليك فعلًا.

ـ إن كان هو بحاجة إليّ...؟

ـ نعم. إن ما تستطيع أن تمنحه هو الحب، العطف، الأشياء المحسوسة التي يحتاج إليها الأطفال عمومًا. وهي أقل ما نفترضه نحن الكبار. ومن ناحية ثانية، فالطفل يكبر مع أم وأب هما تقريبًا غريبان أحدهما عن الآخر، غيوران أحدهما من الآخر عليه. إنه لا ينشأ في بيت نموذجي سعيد وصحي، إنه ينضج قبل الأوان، ولسوف يشب بصورة غير سويّة ويصير مهزوزًا. وفي يوم ما.. واعذرني لذلك، سيكون عليه أن يختار بينك وبين أمه في نهاية الأمر. ألا تظن ذلك؟

ـ ربما كنت على صواب. إنك على حق، بالتأكيد؛ لكني أتوقف عن التفكير عند هذه النقطة بالذات. إنني متعلّق بالطفل. إنني موثق بحبه؛ لأنني لم أجد أي دفء آخر أو شعاع على مدى طويل، لعله قد يخذلني بعد سنوات قليلة، لعله قد يخيب آمالي فيه، بل لعله يكرهني في يوم ما كما يكرهني ألبرت لقد قذفني مرة بمُدْيَة عندما كان في الرابعة عشر. بيد أني لا زلت قادرًا على أن أعيش معه وأحبه لبضع سنوات، لا زال بإمكاني أن آخذ يده الصغيرة في يدي وأن أصغي إلى سقسقة صوته الشبيه بسقسقة العصفور، لا زال هذا بوسعي. والآن، قل لي: هل عليّ أن أتخلى عن ذلك؟ هل...؟

هزّ بركهارت كتفيه بحزن، وقطب قائلًا بهدوء تام:

ـ لا بد، يا يوهان. أعتقد أن عليك أن تفعل، وليس بالضرورة أن يتم ذلك اليوم، وإن كان عليك ألّا تتريث طويلًا. عليك أن تلقي بكل ما تملكه وأن تغسل نفسك من الماضي، وإلّا فلن تقدر ثانية أبدًا على مواجهة العالم كرجل حر سعيد. افعل ما تقدر عليه. إذا كانت هذه الخطوة عسيرة عليك، فابق هنا وواصل عيشتك هذه. لسوف أظلّ صديقك، ولا زال بوسعك استضافتي، أنت تعرف ذلك. إلا أنني لا أخفي عليك، إنني أشعر بالأسف.

ـ انصحني بشيء ما. إنني أكاد لا أرى شيئًا أمامي سوى الظلمة الدامسة.

ـ سأخصك ببعض النصح. هذا هو شهر يوليو، وفي الخريف سأرجع إلى الهند. قبل أن أرحل، سأعود إلى هنا؛ وحينها، آمل أن تكون حقائبك محزومة، وأن تكون مستعدًا للرحيل معي. إن كنت عندئذ قد اتخذت قرارك وقلت نعم، فكل شيء سيكون على ما يرام. أما إذا لم تكن قد استقريت على رأي، فتعال واخرج من هذا المحيط لعام واحد، لستة أشهر إن شئت. وأنت معي تستطيع أن ترسم، وأن تركب الحصان، تستطيع أن

تذهب لاصطياد النمور أيضا وأن تقع في حب امرأة مالاوية، بعضهن فائقات الجمال وفي كل الأحوال. ستكون بعيدًا عن هذا المكان لبعض الوقت، سيكون أمامك فرصة أن تتبيّن إن كانت هذه هي حياة أفضل. ما رأيك؟

وبعينين مغمضتين هزّ الرسام رأسه الكبير الأشعث بوجهه الشاحب وشفتيه الذاويتين.

ـ أشكرك. أنت جد عطوف ولطيف. سأخبرك في الخريف إن كنت راحلًا معك. أرجوك أن تبقي تلك الصور هنا.

ـ يمكنك الاحتفاظ بها. لكن ألا يمكنك أن تتخذ قرارًا بشأن رحلتك اليوم أو غدًا؟ إن هذا سيكون أفضل لك.

نهض فرغوث ومضى إلى الباب، قائلًا:

ـ لا، لا أستطيع ذلك. الله يعلم ما قد يحدث منذ الآن حتى ذلك التاريخ. لسنوات عديدة لم يحدث أن كنت بدون بيير أكثر من ثلاثة أو أربعة أسابيع. أعتقد أنني سآتي معك لكنني لا أريد أن أتفوّه بأي شيء الآن قد أندم عليه فيما بعد.

ـ حسنًا، لنترك الأمر على هذا النحو. سوف تعرف دومًا كيف تتصل بي. وإذا ما حدث يومًا أن أبرقت لي بكلمات ثلاث قائلًا إنك آت، فلن يكون عليك أن تحرّك أصبعًا واحدة بشأن الرحلة. سأتولى كل شيء، فقط خذ بعض القمصان والملابس الداخلية ومستلزمات الرسم، الكثير من ذلك؛ وسأرسل كل ما عدا ذلك إلى جنوا.

عانقه فرغوث للحظات:

ـ لقد ساعدتني كثيرًا، يا أوتو. لن أنسى لك ذلك. والآن سأرسل في طلب العربة. لن ينتظرونا اليوم على الأكل. ولنتحرر اليوم من القيام بأي شيء غير الاستمتاع معًا بيوم جميل، كما اعتدنا أن نفعل في عطلاتنا الصيفية. سنتجوّل في الريف، ونتفرج على بعض القرى الجميلة ونتمدد في الغابة. سنأكل سمك التروت ونشرب نبيذ الريف الجيد بكؤوس زجاجية غليظة. ما أجمل الطقس اليوم.. ما أروعه!

ضحك بركهارت:

ـ لقد ظلّ على هذه الشاكلة دون تغيير على مدى عشرة أيام.

وضحك معه فرغوث قائلًا:

ـ أوه، لقد خُيل لي أن الشمس لم تشرق هكذا منذ سنين!

7

استولت على الرسام بعد رحيل بركهارت مشاعر وحدة غريبة. انقضّت عليه مشاعر الغربة التي تعايش معها لسنوات وسنوات، والتي امتلك معها بحكم العادة مقاومة وقدرة على كبت نفسه، هاجمته مثل عدو غريب لم يتوقعه، وراح يحاصره من كل جانب يود خنقه. وفي نفس الوقت، شعر بقطيعة، أكبر من ذي قبل، عن أسرته، بل وحتى عن بيير نفسه. كان السبب يرجع إلى أنه قد تحدث عن هذه الأمور للمرة الأولى، إلا أنه لم يكن يدرك ذلك.

كان قد انتابته في أوقات شتى مشاعر البؤس وذل الضجر والوحدة. وحتى ذلك الحين، كان فرغوث قد عاش حياة غير عادية لكنها حياة رجل قانع، أحبس نفسه بإرادته الحرّة وفقد اهتمامه بالحياة التي كان يتجرعها أكثر مما كان يحياها. وزيارة صديقه تلك اخترقت جداره؛ ومن خلال مئة صدع، انسلّ صوت الحياة وضوءها ورائحتها وحسّها في الرجل الوحيد المستوحش فتحطم الطلسم القديم، وعندما استيقظ، فإذا بالنداء يرن عاليًا في الخارج ويثقب أذنيه لحد الألم.

أكب على عمله بصورة مضنية بادئًا لوحتين كبيرتين. أخذ يشتغل عليهما في وقت واحد تقريبًا. كان يستفتح يومه بحمام بارد ويعمل دون توقف حتى الظهر؛ وبعد استراحة قصيرة يجدد نشاطه بالقهوة والسيجار، وأحيانًا ما كان يستفيق في الليل بقلب واجم ورأس مصدوع. لكنه مندفع متحكم بنفسه كما كان ينبغي له، جامد في داخله، محجوب بأبسط الأقنعة، الانتباه إلى أن أحد الأبواب كان مفتوحًا، وأن خطوة سريعة يمكنها أن تحمله إلى حريته في أي وقت شاء.

لم يفكر بذلك، بل أمات أفكاره بالعمل المتواصل. ويحدث نفسه: "باستطاعتك أن تذهب في أي وقت، الباب مفتوح، أصفادك يمكن أن تتحطم غير أن ذلك سيتطلب منك قرارًا صعبًا وتضحية ثقيلة، ثقيلة.. لذا، فلتكف عن التفكير بذلك، بالرغم من كل شيء، والأهم من كل شيء، كف عن التفكير بذلك!"

إن القرار الذي توقعه منه بركهارت، والذي لعله قد اتخذه في قرارة نفسه سلفًا، كان قد استقر في عقله كما تستقر رصاصة في جسد رجل جريح، والمسألة تنحصر فقط فيما إن كانت

ستشق طريقها خارجة من الجرح المتقيح أم ستصير بمرور الوقت أكثر التصاقًا. إن القرار متقيح ويؤلمه، لكنه حتى الآن لا يؤذيه بالقدر الكافي؛ إن الألم الذي يخشاه من تضحيته كان لا يزال جد عظيم.

ولذا فإنه لم يفعل شيئًا؛ لقد ترك جرحه يلتهب، وطوال الوقت كان شديد الفضول لمعرفة ما سيؤول إليه كل شيء في نهاية المطاف.

وفي خضم بلواه رسم لوحة كبيرة؛ كانت فكرتها حاضرة في ذهنه منذ زمن طويل، لكنها الآن فقط استثارت اهتمامه. كان في بداية الأمر، منذ بضع سنوات، قد استشعر سرورًا بالغًا للفكرة، ثم أخذت أكثر فأكثر تتحول إلى فكرة فارغة ومجازية، قبل أن تستعصي عليه كلية. لكنه الآن يرى اللوحة كلها بوضوح. وقد نسي المجاز فيها، فاندفع للعمل برؤية جديدة.

كان في اللوحة ثلاثة شخوص بأحجامهم الحقيقية، رجل وامرأة، كل منهما غارق في ذاته وناء عن الآخر، وفيما بينهما طفل صغير يلعب وقد غمرته سعادة صامتة، ولا يرين عليه أي شك في السحابة القائمة التي تتدلي فوقه. كانت الخاصية الشخصية بادية للعيان، إلا أن الرجل ما كان يشبه الرسام ولا كانت المرأة تشبه زوجته؛ أما الطفل فقد كان على أي حال هو بيير، وإن بدا أصغر من سنه بسنوات. الطفل في أبهى وأعظم صورة فاتنة، جلس الشخصان في كلا الجانبين جلسة جامدة صارمة، خيالان حزينان للوحدة، الرجل غارق في التأمل وقد استند رأسه على إحدى يديه، في حين كانت المرأة تائهة سادرة في المعاناة والخواء الأبكم.. ولم تكن الحياة سارة. بالنسبة لروبرت، الخادم. لقد صار فرغوث عصبيًا على نحو غريب. ما عاد يقدر على احتمال أدق صوت في الغرفة المجاورة عندما يكون مكبًا على عمله.

كان الأمل الخفي الذي أخذ يحيا في نفس فرغوث منذ أن قدم بركهارت لزيارته أشبه بنار ملتهبة في صدره؛ مهما حاول إخمادها ازدادت اشتعالًا، ملونة أحلامه الليلية بضوء مغر، مثير. حاول أن يتجاهلها، أن يمحوها من أفكاره، كان يريد فقط أن يتفرغ لشغله، هادئ البال، مطمئن القلب. لكنه لم ينل شيئًا من السكينة. كان يشعر أن جليد وجوده الخالي من البهجة آخذ في الذوبان، وأن كل أسس حياته أخذت تتقلقل. رأى في أحلامه مرسمه مغلقًا فارغًا، ورأى زوجته ترحل عنه بعيدًا، لكنها أخذت معها بيير، في حين كان الصغير يمد ذراعه النحيلة إليه. كان يجلس أحيانًا في المساء لساعات طويلة وحيدًا في غرفة المعيشة غير المريحة، غارقًا يتأمل الصور الهندية؛ ثم يضعها جانبًا ويغمض عينيه المرهقتين.

في داخله، كانت تصطرع قوتان اصطراعًا عنيفًا، وكان الأمل هو الأقوى. وجد نفسه يستعيد أحاديثه مع أوتو المرة تلو الأخرى؛ وبدفء متزايد دوما كانت الرغبات المكبوتة وحاجات طبيعته النشطة تتصاعد من الأعماق حيث ظلّت راقدة هناك جامدة حبيسة لأمد طويل، وهذا الجيشان، في هذا الربيع، أخذ يحرر أشد مرارات وهمه العتيق، الوهم المريض بأنه صار رجلًا عجوزًا لا يقدر على فعل أكثر من احتمال الحياة. تصدع خدر الاستقالة العميق، المستفحل، ومن خلال شقوقه طفحت قوى اللاوعي الغريزية لحياة طالما ألجِمت وغُرر بها. وكلما أصغى إلى تلك الأصوات وسمعها بوضوح، ازدادت أعماقه ارتعاشًا وخالجه خوف مريع من يقظته الأخيرة، ومرات ومرات يغلق عينيه الغائمتين كلما اعترته قشعريرة تمرد ضد التضحية الضرورية.

نادرًا ما كان يوهان فرغوث يظهر في المنزل، كان يطلب منهم أن يأتوا له بوجباته إلى المرسم، وكان غالبًا ما ينفق الأماسي في المدينة. لكنه حين كان يلتقي بزوجته أو بألبرت، فإنه كان يتحوّل إلى رجل هادئ مهذب ويبدو وكأنه قد نسي كل مشاعر الكراهية.

وبدا كأنه يقلل من اهتمامه ببيير. في السابق كان يغري الطفل بالمجيء إلى الأستوديو على الأقل مرة في اليوم ثم يبقيه هناك أو يخرج معه إلى الحديقة. أما الآن فإن أيامًا كاملة تنقضي دون أن يراه أو يلتمس مجيئه. وحين كان الصغير ماضيًا في طريقه قبله وهو سابح الفكر على جبينه، وحدق في عينيه وقد غشيه الحزن، ثم تركه ومضى في طريقه.

وذات مرة، ذهب فرغوث إلى غيضة الكستناء. كانت تهب الرياح المنعشة، مصحوبة بمطر خفيف دافئ. وكان صوت الموسيقى يأتيه من نوافذ المنزل. توقف الرسام يصغي بهدوء. لم يتعرّف على المقطوعة. كانت مقطوعة صافية حزينة في صرامة، رائعة التأليف، جميلة وعذبة النغم، فأصغى إليها فرغوث بسرور وانشداه غريبين. لقد بدت له تلك الموسيقى وكأنها موسيقى تعزف للعجائز، بدت ناضجة وقديمة، لا شيء فيها من موسيقى باخ الفاتنة التي أحبها أكثر من أي شيء آخر في شبابه.

دلف إلى البيت بهدوء، صعد السلم، لم يكن هنالك حس ولا حركة حتى وصل إلى غرفة الموسيقى، حيث أدركت مجيئه فراو إيدل. كان ألبرت يعزف بينما وقفت أمه بجوار البيانو تصغي؛ جلس فرغوث على أقرب كرسي، محنيًا رأسه، وراح يصغي هو الآخر. من حين لآخر كان يرفع بصره ويترك عينيه تستقران على زوجته. كان هذا بيتها، قضت في هذه الحجرات

سنوات خائبة الأمل متحررة من الوهم مثلما فعل هو في مرسمه بجانب البحيرة، لكنها كانت مع ألبرت، لقد كان لها، وقد كبر وكبرت هي معه، أما الآن فإن ابنهما هو ضيفها وصديقها، وهو معها في البيت.

فراو إيدل تقدمت في السن قليلًا، لقد تعلمت أن تعيش في هدوء وقد وجدت قناعتها؛ كان تعبيرها قد صار جادًا صارمة وبدا فمها غائرًا قليلًا: لكنها لم تكن تشعر بأنها مستأصلة، كانت تعيش في سلام في محيطها، وفي محيطها كان ابناها يشبان. كانت قد اكتسبت قليلًا من الحيوية والمرح أو شيء من اندفاع العاطفة، لقد كان يعوزها كل شيء مما كان زوجها يبحث عنه ويأمل فيه، لكن ما كان يحيط بها هو البيت، كان هناك سمة في وجهها، في حضورها، في حجراتها؛ تلك كانت هي التربة التي يستطيع الأطفال أن يترعرعوا فيها ويشبوا بصورة رائعة.

هزّ فرغوث رأسه كما لو أنه راضٍ. هو ذا يجد أنه ما من أحد سيخسر شيئًا أبدًا لو أنه اختفى إلى الأبد. في هذا البيت، لم يكن هو بالشخص الذي لا يمكنهم الاستغناء عنه. وإن باستطاعته أن يبني مرسمًا في أي مكان في العالم ويحيط نفسه بالنشاط والحماس للعمل، غير أن ذلك لن يكون هو البيت. إنه في الواقع قد أدرك ذلك منذ فترة طويلة، وقد كان الأمر كذلك تمامًا.

توقف ألبرت عن العزف. شعر، أو أبصر في عينيّ أمه، أن أحدًا ما قد دلف إلى الغرفة. استدار ونظر إلى أبيه باستغراب. قال فرغوث:

ـ مساء الخير

رد ابنه بحرج، وأخذ يتشاغل بدرج البيانو. سأل فرغوث بود:

ـ لقد كنت تعزف؟

هز ألبرت كتفيه كما لو أنه يسأل: أو لم تكن تسمع؟ أحمر وجهه فأخفاه عميقًا في النظر إلى أدراج الخزانة.

ـ كان عزفًا جميلًا

واصل فرغوث مبتسمًا. كان يشعر تمامًا أن زيارته لم تكن مستحبة؛ قال بفرح أكيد ماكر:

ـ ألن تعزف شيئًا آخر؟ أي شيء يروق لك. لقد أحرزت تقدمًا عظيمًا.

ـأوه، لم يعد لدي أي مزاج.

رد ألبرت بعصبية:

ـأنا متأكد أنه سيكون عزفًا رائعًا. أرجوك افعل.

نظرت فراوفرغوث إلى زوجها متسائلة. قالت:

ـتعال يا ألبرت، اجلس.

ووضعت كتابًا موسيقيًا على التخت. عندما فعلت ذلك، لامس كمها مزهرية صغيرة مليئة بالورود، فسقطت بعض البتلات الذاوية على الخشب الأسود الشديد الصقل.

جلس الولد على مقعد البيانو وشرع في العزف. محتارًا غاضبًا، راح يعصر الموسيقى ويلفها لفًا كأنه يقوم بتدريب مضجر، بسرعة وبدون حب.

أصغى أبوه بانتباه لبعض الوقت، ثم غرق في أفكاره، وفي النهاية نهض وغادر الغرفة في صمت وقبل أن يفرغ ألبرت من عزفه.

سمع الولد من الخارج ثانية وهو يطرق بعنف على المفاتيح ثم توقف عن العزف.

"لن يفتقدوني على الإطلاق حين أرحل.. يا إلهي! كم أننا بعيدون عن بعض، ومع هذا، فقد كنا ذات مرة أسرة بأي حال." يفكر الرسام وهو ينزل درجات السلم.

وفي الردهة جرى بيير نحوه مبتسمًا ابتسامة مشرقة ومستثارة يوشك أن يطير من الفرح. صاح لاهثًا

ـأوه، بابا،؛ أنا مسرور أنك هنا. احرز ماذا! لقد حصلت على فأر، فأر صغير حي! انظر، هنا في يدي هل ترى عينيه؟ القطة الصفراء اصطادته، كانت تلعب وإياه، لقد عذبته، كانت تتركه يجري مبتعدًا قليلًا، ثم تنقض عليه وتمسكه من جديد. لذا فقد هرعت سريعًا، وخطفت الفأر من تحت أنفها. ماذا سنفعل به الآن؟

تطلّع إلى أبيه، بوجه طافح بالبهجة، لكنه ارتجف حين تحرك الفأر في يده الصغيرة المزمومة بشدة، مصدرًا أصوات قصيرة خائفة. قال أبوه:

ـسنأخذه إلى الحديقة ونطلق سراحه. هيا، تعال.

أخذ معه مظلة واصطحب الولد إلى الخارج. صارت السماء أكثر إشراقًا واستحال المطر إلى رذاذ، كانت جذوع أشجار الخوخ الملساء المبلولة تلمع سوداء مثل سبائك الحديد.

توقفا عند بقعة تتشابك فيه جذور الأشجار. انحشر بيير بين الجذور وببطء فتح قبضته. تورّد وجهه، والتمعت عيناه الرماديتان بانفعال. وفجأة، كأن توقعاته قد صارت أعظم مما يقدر على حمله، فتح يده كلية. الفأر، ذلك المخلوق الصغير، انطلق على غير هدى من سجنه، توقف على بعد بضعة أقدام بجوار عقدة كبيرة من الجذور المتشابكة، وجلس هناك بصمت، كان جنباه يرتفعان وينخفضان وكانت عيناه الصغيرتان السوداوان تتلفتان مذعورتين في كل اتجاه.

صاح بيير مبتهجًا وصفق يديه. ارتعب الفأر وغاب في الأرض كأنما أخفته قوة سحرية. وبرقة، ربت الأب شعر الطفل الكثيف، قائلًا:

ـ هل ستأتي معي، يا بيير؟

وضع الطفل يده اليمني في يسرى أبيه ومضى بجواره.

ـ إن الفأر الصغير الآن في بيته مع بابا وماما، يحدثهما بكل ما جرى له.

تدفقت الكلمات من فم الطفل، بينما يقبض الرسام على يده الصغيرة الدافئة بإحكام. ومع كل كلمة وصيحة فرح أطلقها الطفل، كان قلبه يرتعش ويغرق عائدًا إلى الأشغال الشاقة وعبودية الحب الفاتنة الباهظة.

أوه، لن يعيش في حياته ثانية أبدًا تجربة حب كهذه التي عرفها مع هذا الطفل. لن يعرف ثانية أبدًا لحظات جد مليئة بدفء المحبة وبهائها، جد مليئة بالتسامح الطفولي، بنعمة الإثارة، بعذوبة الأسى كما عاشها مع بيير هذا الخيال الحبيب الباقي من طفولته هو؛ فتنته، ضحكته، طراوته الآسرة، هكذا بدا لفرغوث، الذكرى الأخيرة للفرح النقي في حياته، التورّد الأخير في حديقة خريفية. في ذلك الدفء النشوان وإشراقة الشمس، في الصيف والمسرة الرعوية لكن حين تُعري العاصفة والصقيع بَتلاتها، عندئذ، كل البهجة وكل حميمية السعادة ستبلغان منتهاهما. سأل بيير فجأة:

ـ لماذا لا تحب ألبرت؟

ضغط فرغوث يد الصغير بشدة أكثر.

ـ إنني أحبه. إنه فقط يحب أمه أكثر مما يحبني. وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا بهذا الخصوص.

ـ أعتقد أنه لا يحبك مطلقًا، يا بابا. وهل تدري، إنه لا يحبني كما اعتاد أن يفعل، إنه دائمًا يعزف على البيانو أو يجلس في غرفته وحيدًا. في أول يوم جاء، أخبرته عن حديقتي التي زرعتها بنفسي، وكل الذي فعله هو أنه نظر نظرة متعالية وقال: «حسن جدًا، سوف نذهب ونبصر حديقتك غدًا.» لكنه لم يتذكر ذلك أبدًا. إنه ليس صديقًا طيبًا، وبالإضافة إلى ذلك، فقد بدأ ينمو له شارب صغير. وهو يبقى على الدوام مع ماما، ما عدت أحظى بها إلا نادرًا.

ـ لكنه سيمكث هنا بضعة أسابيع فقط، يا بني، لا تنس ذلك. وإذا أنت لم تجد ماما وحدها، باستطاعتك دائمًا أن تجيء لرؤيتي. ألا تحب أن تفعل هذا؟

ـ ليست الحكاية هكذا، يا بابا. أحيانًا أرغب أن آتي لرؤيتك وأحيانًا أرغب في أن أرى ماما. وفضلًا عن ذلك، فإن عليك دائمًا أن تغرق نفسك في العمل.

ـ لا تدع ذلك يصرفك عني، يا بيير. عندما ترغب في أن تراني بإمكانك أن تأتي على الدوام، هل تسمع؟ حتى لو كنت في المرسم أشتغل.

لم يجب الولد. نظر إلى أبيه، وتنهد تنهيدة خفيفة، وبدا غير مقتنع. سأل فرغوث وقد أثقله التعبير البادي على وجه الطفل، الذي كان قبل لحظات قصيرة فقط يومض بمعنويات طفولية عالية، لكنه الآن يبدو مكروبًا بالغ الكبر . سأل:

ـ ألا يناسبك هذا؟ حسنًا، ثم ما الذي كدرك؟

ـ أنت تربت على شعري، عندما أجي لأراك في المرسم، إنك دائمًا تربت على شعري ولا تقول شيئًا، ويكون لك دائمًا عينان مختلفتان تمامًا، وأحيانًا تبدوان غاضبتين. نعم. وحينها إذا قلت شيئًا، فإنني أعرف من عينيك أنك لا تصغي إليّ، إنك فقط تقول نعم، نعم، ولا تعيريني أي اهتمام. وعندما آتي وأريد أن أخبرك بشيء، فإني أريدك أن تصغي لي.

ـ حسنًا، لا يهمك، كما تريد تمامًا، لا بد أن تأتي ثانية، يا حبيبي. أنت تعرف، حين أنغمس كلية في عملي ويتطلب ذلك مني أن أفكر بجد عن أفضل طريقة لفعل شيء ما، فإنني أحيانًا لا أستطيع أن أنتشل نفسي من ذلك بسرعة وأصغي إليك. لكني سأحاول في المرة القادمة حين تجيء.

ـ نعم، أنا أفهم. إن هذا هو ما يحدث لي أنا بالضبط. أحيانًا أكون غارقًا أفكر بشي معين ثم يحدث أن يناديني شخص ما ويكون عليّ أن أذهب ـ إن ذلك مزعج. أحيانًا أرغب في أن أبقى ثابتًا في مكاني أفكر طوال اليوم، وهذا يحدث فقط عندما ألعب أو أدرس أو أقوم بعمل ما، حينها أغضب جدًا.

كان بيير يحدق في الفراغ سارحًا في تأملاته ومحاولاته للتعبير عن المعنى الذي يريده. كان ذلك صعبًا وفي الغالب لا أحد يفهمه على أي حال.

دخلا غرفة معيشة فرغوث، جلس واحتضن الطفل بين ركبتيه. وقال بحنان:

ـ إني أفهم ما تقول يا بيير، والآن أتريد أن تشاهد اللوحات، أم أنك تفضل أن ترسم؟ لماذا لا ترسم قصة الفأر؟

ـ أوه، نعم، سأفعل ذلك. لكني أحتاج قطعة كبيرة من الورق.

سحب فرغوث ورقة رسم من الدرج، وكشط قلم رصاص، وقرّب كرسيًا للولد.

جلس بيير، وشرع يرسم في الحال الفأر والقط. وجلس خلفه فرغوث بصمت يحدق في عنقه الناحل الذي لوحته الشمس، وفي ظهره الرشيق، ورأسه الأرستقراطي العنيد. انكب بيير على عمله بجدية وانهماك، وجعل يحرّك شفتيه باستمرار حركات قلقة. كل خط، وكل حركة ناجحة أو فاشلة من قلمه تنعكس بوضوح في شفتيه المتوترتين، وفي حركات حاجبيه وتغضنات جبينه. وبعد قليل صاح:

ـ أوه، إنها غير جيدة.

استوى في جلسته وأسند خديه على راحتي يديه وأخذ يتفحص الرسم بتقطيبة ناقدة. وأضاف بنفاد صبر حزين:

ـ إنها لا تعني شيئًا. بابا، كيف ترسم قطًا؟ إن قطي يشبه الكلب.

أخذ أبوه الورقة وراح يتأملها بلهفة وقال بلطف:

ـ سيكون علينا أن نمحو أشياء بسيطة. الرأس كبير جدًا وغير مستدير بما فيه الكفاية، والسيقان طويلة. انتظر، لسوف نصلحها.

وباهتمام أجرى الممحاة على لوحة بيير وتناول ورقة جديدة، ورسم عليها قطًا.

ـ انظر، هكذا يجب أن يكون. تطلّع إليه قليلًا، ثم ارسم قطًا جديدًا.

بيد أن صبر بيير كان قد نفد، فأعاد القلم الرصاص، وكان على أبيه الآن أن يرسم، خلف القط، قطًا صغيرًا ومن ورائه فأرًا، ثم بيير جاء وأطلق الفأر. وأخيرًا طلب الطفل عربة وأحصنة وسائقًا يجلس على الصندوق.

وفجأة أضجره ذلك أيضًا. أخذ يغني ويجري في الغرفة ويتطلّع من النافذة ليرى إن كانت السماء لا تزال تمطر، ثم راح يرقص وهو خارج من الباب. كان صوت غنائه الرقيق يسمع آتيًا من تحت النوافذ ثم حل الصمت. جلس فرغوث وحيدًا، ممسكًا الورقة بالقطط المرسومة عليها.

8

وقف فرغوث مواجهًا رقعته الكبيرة وسط شخوصها الثلاثة، وراح يشتغل على الزرقة الخفيفة لثوب المرأة. كان على جيدها صيغة ذهبية تتلألأ بالحزن، تائهة وحيدة لا تقدر على الإمساك بالضوء البهي الذي لم يجد مكانًا ليستريح عليه في ذلك الوجه المظلل، وانسحب متوحدًا دونما فرح على لون الفستان الأزرق الهادئ.. ذلك الضوء نفسه كان يتراقص بمرح ورقة على الشعر الأشقر الأشعث للطفل الجميل الذي بجوار المرأة.

قرع الباب، وارتد الفنان إلى الوراء متذمرًا. وبعد برهة انتظار، تكرر الطرق، فمضى نحو الباب وفتح أحد مصراعيه.

كان ألبرت، الذي لم تطأ قدماه الأستوديو منذ أن بدأت عطلته، واقفًا هناك، ممسكًا بقبعة القش بيده، تطلّع إلى وجه أبيه المتوتر في شك. دعاه فرغوث للدخول قائلًا:

ـ أهلًا ألبرت. أحسب أنك آت لإلقاء نظرة على لوحاتي. ليس هناك الكثير منها هنا.

ـ أوه، لم أرد إزعاجك، إني فقط أود أن أسألك..

كان فرغوث قد أغلق الباب واتجه صوب مسند اللوحات الرمادي إلى حيث كانت تقف لوحاته منتصبة في درج ضيق ذي عجلات. سحب لوحة الأسماك.

وقف ألبرت بجوار أبيه بطريقة غير مناسبة، وراح الاثنان يتطلّعان إلى اللوحة الفضية الوامضة. سأل فرغوث بحماس:

ـ هل أنت مهتم بالرسم أم تهتم فقط بالموسيقى؟

ـ إنني أحب الرسم كثيرًا، وهذه لوحة رائعة الجمال.

ـ هل أعجبتك؟ أنا سعيد أنها أعجبتك، سأصور نسخة منها من أجلك. وكيف تشعر وقد عدت إلى روزهالده؟

ـ شكرا لك، يا أبي. إني لأشعر بالسعادة لكني، فعلًا، لم أرد أن أزعجك. لقد جئت فقط كي أسألك..

لم يكن الرسام يصغي.. وبنظرة المتلمس طريقه ذات التعبير المنقبض الذي طالما ارتسم على وجهه وهو يرسم، تطلع بذهول إلى وجه ابنه.

ـقل لي كيف تشعرون، معشر الشباب، تجاه فن هذه الأيام؟ أعني، هل توافقون على نيتشه، أم أنكم لا زلتم تقرؤون تينـ لقد كان ذكيًا، ولا بد لي أن أسلم بهذا، لكنه مضجرـ أم أن لك رأيًا آخر؟

ـأنا لم أقرأ لتين بعد، وأنا متأكد أنك قد فكرت بهذه الأمور أكثر بكثير مما قد فعلت أنا.

ـمن قبل، نعم، الفن والثقافة، والأبوليني‍ين والدينوسيين، وكل أولئك، بدوا جد مهمين إلى حد بعيد. أما الآن، فيكفيني أن أرسم لوحة جيدة، لم أعد أجد المشاكل أبدًا، وفي أي حال، لا مشاكل فلسفية. وإن كان عليّ أن أقول لك لماذا أنا رسام، ولماذا أنشر الألوان على القماش، فسيكون عليّ أن أقول: إنني أرسم لأنه ليس لدي ذيل لأهزه.

نظر ألبرت بدهشة إلى أبيه الذي لم يسبق له أن تحدث إليه بهذه الطريقة منذ أمد طويل:

ـلا ذيل لك؟ ماذا تعني؟

ـالأمر جد بسيط. الكلاب والقطط والحيوانات الذكية الأخرى لها ذيول، وذيولها بآلاف تلميحاتها وإيماءاتها، تزودها بلغة مزخرفة رائعة ومكتملة، وليس فقط للتعبير عما تفكر فيه أو تشعر به أو تعانيه، بل أيضًا للإفصاح عن كل مزاج أو ذبذبة لكينونتها، وعن كل صغيرة وكبيرة في نبرة مشاعرها. أما نحن فليس لدينا ذيول، وما دام أكثرنا حيوية يحتاجون إلى مثل هذا النوع من التعبير، فإننا نصنع لأنفسنا فراشي للرسم، وبيانوهات وكمنجات..

وتوقف فجأة وكأنما فقد اهتمامه بالمحادثة، أو كأنما بدا له أنه كان يتحدث مع نفسه فحسب، إذ لم يكن هنالك أي تجاوب من طرف ألبرت. وقال بصورة اعتباطية:

ـحسنا، شكرا لك على هذه الزيارة.

وعاد إلى لوحته وأخذ صفيحة ألوانه، وراح يحدق بحثًا عن نقطة ما حيث كان قد صنع آخر ضربة بالفرشاة.

ـمعذرة، يا أبي، إني أود أن أسألك عن شيء ما

استدار فرغوث. كانت عيناه قد نأتا، كان قد فقد صلته بكل شيء خارج عمله.

ـنعم؟

ـ إنني أود أن آخذ بيير في جولة بالعربة. لقد قالت لي أمي أن باستطاعتي أن أفعل ذلك، لكنها طلبت مني أن استأذنك.

ـ وأين تريد الذهاب؟

ـ سنذهب في جولة لبضع ساعات في الريف، وربما ذهبنا إلى بيقولزهيم.

ـ عرفت.. ومن الذي سيتولى القيادة.

ـ أنا بالطبع يا أبي.

ـ حسنًا. يمكنك أن تذهب مع بيير إنما خذ العربة والكميت، وتأكد من أنه يتناول كمية كبيرة من الشوفان. أنا آسف. عندما تكون لوحدك، يمكنك أن تفعل ما تريد، لكن ما دام الصغير معك، فإن عليك أن تأخذ الكميت.

انسحب ألبرت شاعرًا بالخيبة. كان في حين آخر سيحاول أو يتوسل، لكنه لاحظ أن الرسام كان قد انغمس ثانية في عمله، وهنا في الأستوديو، حيث تفوح رائحة الألوان، فإن أباه، إزاء كل عناد الولد الداخلي، لا يزال قادرًا على فرض تأثير قوي عليه، لكنه في مكان آخر لم يعترف بسلطة أبيه، أما هنا فقد شعر بأنه صبي يثير الإشفاق، بحضوره الضعيف.

وعلى الفور، صار الرسام أكثر انغماسًا في عمله، ناسيًا تمامًا إزعاج ابنه، بل إن العالم كله قد توارى عن اهتمامه. وبتركيز شديد قارن اللوحة بالصورة الحيّة في داخله.. شعر بموسيقى الضوء كيف غاب تدفق رنينها ثم رجع ثانية، وكيف وهن عند معارضته في المقابلة، وكيف غاض لكنه استعاد توهجه وسطوته بقوة وطغى على كل شيء، كيف تراقص على الألوان متقلبًا ولكن بحساسية ثاقبة ناجعة، ثابتًا رغم آلاف الاهتزازات، وفي كل تمعجاته الراقصة المتعرجة لم يتخل عن قانون فطرته.

وبتلذذ زفر هواء الفن العنيف، والمتعة المريرة للمبدع الذي عليه أن يكرّس نفسه حتى يقف على شفير الإلغاء، ويقدر على اكتشاف سعادة الحرية المقدسة عبر الانضباط الحديدي الصارم الوحيد الذي يرقب كل نزوة جامحة للهوى ويظفر بلحظات الإنجاز من خلال الإذعان الزاهد لإحساسه بالحقيقة.

لقد كان ذلك أمرًا غريبًا ومحزنًا؛ ولكنه ليس أكثر غرابة ولا حزنًا من كل قدر إنساني؛ فهذا الفنان المنضبط الذي يستمد كل طاقاته للعمل من أعمق أعماق المصداقية ومن التركيز الصافي الذي لا توسط فيه، هذا الإنسان نفسه الذي ليس في مرسمه مكان للنزوات أو

اللايقين، كان محبًا للفنون في حياته، وفاشلًا في بحثه عن السعادة، وهو، الذي لم يرسل أبدًا عملًا غير متقن من أعماله الفنية إلى العالم، يعاني بعمق في الظلمة الكثيفة للأيام والسنين اللامتقنة التي لا تمضي، ويعاني من المحاولات المتعثرة في الحب والحياة.

ولم يكن واعيًا لهذا. إذ إنه لسنين عديدة لم يشعر بحاجة إلى أن يرى حياته بوضوح. لقد عانى وقاوم المعاناة بعناد واستسلام، لكنه بعد ذلك ترك الأشياء تمضي واحتفظ بنفسه لعمله، فحسب. وبتشبث ضارٍ، نجح تقريبًا في إعطاء فنه الثراء والعمق والدفء الذي افتقدتها حياته. والآن، وهو مطوق بالوحدة، ها هو ذا مثل مسحور، واقع في شراك غايته الفنية وحرفته التي لا تساوم، صحيحًا معافى وعاقد العزم على أن يرى أو يعترف بفقر وجود مثل هذا. هكذا كان عليه حاله إلى وقت قريب، حين هزته زيارة صديقه هزًا عنيفًا. منذئذ عاش الرجل المتوحّد مع نذر الخطر وتوعدات القدر والمكابدات والمحاولات التي لن يجديه معها كل الفن والبراعة من أجل إنقاذ نفسه. وفي أعماق إنسانيته أحس أن عاصفة تتهيأ للهبوب، وأن الجذور والقوة الداخلية تعوزانه للوقوف في وجهها، وكيّف نفسه في عزلته ببطء شديد، مع فكرة أن عليه عما قريب أن يتجرع كأس المعاناة حتى الثمالة.

وبمقاومته لنذر الشؤم السوداء، وعيشته في خضم القرارات المفزعة، بل حتى في خضم الأفكار الضبابية المعتمة، حشد الفنان كل طاقاته كأنما ليلقي بنفسه دفعة واحدة في الموقعة الأخيرة، مثله في ذلك مثل حيوان مطارد يجمع كل أوقية في قوته للقفزة التي ستنقذ حياته. وهكذا في تلك الأيام التي وقع فيها تحت وطأة الكرب الداخلي، أبدع يوهان فرغوث بجهد مستميت واحدة من أعظم أعماله وأكثرها جمالًا وروعة؛ الطفل اللاهي بين والديه المحببين المحزونين. والوقوف على نفس الخلفية، والانغماس في نفس الضوء والبهاء، تنفس الرجل والمرأة أنفاس الموت والمرارة الباردة، وبينهما أشرق الطفل الذهبي المتهلل الوجه وكأنما في ضوء سعادة كاملة تحضنه وحده. بعد هذه اللوحة وضعَه بعض معجبيه في مصاف عظماء الفنانين رغم أن تواضعه الشديد قد أوحى بعكس ذلك، ويرجع تميّز اللوحة إلى أنه قد أنفق فيها كل كروب نفسه مع أنه لم يقصد إلا إلى إنجاز لوحة فنية بارعة.

في تلك الساعات لم يعرف فرغوث شيئًا عن الضعف أو الخوف، عن المعاناة أو الشعور بالذنب أو الإخفاق في الحياة. لم يكن مبتهجًا ولا حزينًا، بل منغمسًا كليا في عمله يتنفس هواء العزلة الخلاّقة، لا يريد شيئًا من عالم نسيه تمامًا. وبسرعة ويقين، حدق بعينيه الثاقبتين،

وراح يضع الألوان بضغطات خفيفة حادة، مانحًا الظلال عمقًا أعظم برقة وحرية في الضوء. لم يهتم مطلقًا بالتفكير فيما تحاول لوحته التعبير عنه. لقد ترك ذلك خلفه، لقد كانت مجرد فكرة، إلهام، أما الآن فما يعنيه ليس المعاني، والمشاعر، أو الأفكار، بل الحقيقة الصافية، لقد ذهب إلى أقصى مدى حيث حاول أن يرقق أو تقريبًا يمحو تعابير الأوجه، لم يكن لديه رغبة في أن يحكي قصة؛ إن ثنية الرداء التي تجمعت حول الركبة كانت مهمة ومقدسة بالنسبة له مثل جبين منحنٍ أو فم مغلق.

لم تكن اللوحة تود الإفصاح عن شيء واضح بيّن، سوى أن ثلاثة شخوص بشرية ترى كموضوعات محضة ارتبط أحدها بالآخر في الفراغ والهواء، ومع هذا، فإن كلًا منها محاط بهالة فريدة تفصل بعمق كل شخص مرئي عن عالم علاقات متنافرة وتستثير رعشة الدهشة في حراجتها المصيرية. وهكذا من لوحات عظماء الفنانين الموتى، يقف ثلاثة شخوص غرباء بحجمهم الطبيعي، لا ندري من هم، وما أسماؤهم، ولا نود أن ندري، يقفون ناظرين إلينا بغموض وإبهام وكأنهم رموز للإنسانية جمعاء.

كانت اللوحة على وشك أن تنجز وتكتمل. لقد أجلّ ضربات الفرشاة النهائية على صورة الطفل الساحر حتى الأخير، وسيشتغل عليها غدًا أو بعد غد.

كان الوقت قد تجاوز ساعة الغداء، حين استشعر الفنان الجوع، ونظر في ساعته. غسل بسرعة، وغيّر ملابسه وذهب إلى البيت حيث وجد زوجته بمفردها تنتظر على الطاولة.

سأل في دهشة:

ـ أين الولدان؟

ـ لقد ذهبا في جولة بالعربة. ألم يأت ألبرت لرؤيتك؟

حينئذ فقط تذكر زيارة ألبرت، ذاهلًا محرجًا. أخذ يتناول غداءه. وجعلت فراو أديل تراقبه بسأم وشرود وهي تقطع اللحم. كان من الخير لها أن لا تنتظره. لقد أصابها التوتر البادي على ملامحه بنوع من الإشفاق. أخذت تقدم له الطعام وتصب له النبيذ في صمت، وحاول هو، وقد شعر بعاطفة رد غامضة، أن يقول شيئًا سارًا.

ـ هل ينوي ألبرت أن يصير موسيقيًا؟ أعتقد أن لديه قدرًا طيبًا من الموهبة.

ـ نعم، إنه موهوب. لكني لا أعرف إن كان مؤهلًا لأن يصير فنانًا. أعتقد أنه لا يرغب أن يصير واحدًا منهم. وحتى الآن فإنه لم يظهر بعد كثيرًا من الحماس لأي مهنة، إنه

يطمح إلى أن يكون سيدًا يعني بالرياضات والدراسات، الحياة الاجتماعية والفنون وكل شيء دفعة واحدة. إنني لا أرى كيف يمكنه أن يكسب عيشه بطريقة كهذه. إن عليّ أن أوضح له ذلك شيئًا فشيئًا. إنه في الوقت الحاضر يعمل بجد وسلوكه جيد. إنني لا أرغب في إزعاجه وإقلاقه دونما ضرورة، بعد التخرج من المدرسة عليه أن يؤدي خدمته العسكرية أولًا، وبعد ذلك، سنرى.

لم يقل الرسام شيئًا. قشر موزة، وأخذ يستمتع برائحة الفاكهة الناضجة المغذية. وأخيرًا قال:

ـ إن لم يزعجك هذا، فأنا أريد أن أتناول قهوتي هنا.

كانت نبرة صوته ودودة، حانية، غشيها بعض الضجر. وكأنما كانت استراحته هنا كفيلة بأن تخفف عنه وتدخل عليه قليلًا من السرور.

ـ سأطلب أن تُحضر إلى هنا. هل اشتغلت كثيرًا؟

ـ انفلتت تلك الكلمات بدون وعى تقريبًا. إنها لم تعن بها شيئًا، لقد ودت فقط، ما دام أن تلك اللحظة قد كانت لحظة سرور غير عادية، أن تظهر شيئًا من الاكتراث، ولم يكن ذلك سهلًا. إذ إنها لم تعد معتادة عليه. رد زوجها بجفاف:

ـ نعم، لقد ظللت أرسم لعدة ساعات.

ـ لقد أزعجه أن تسأل. لقد صار من المألوف بينهما ألا يتحدث عن شغله، كان هناك العديد من أعماله الأخيرة التي لم ترها أبدًا.

وشعرت هي أن اللحظة المشرقة قد تبددت ولم تبذل أي جهد للإبقاء عليها. وهو، الذي كان يحاول الآن أن يعد غليونه، وكان على وشك أن يستأذن في التدخين، فقد رغبته، وترك يده تسقط، لكنه شرب قهوته دون عجل، وسأل عن بيير، وشكر زوجته بأدب، وبقي لبضع دقائق أخرى، يتطلّع في لوحة صغيرة كان قد قدمها لها قبل سنوات، قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ إنها لا زالت جيدة وتبدو جميلة، ماعدا الزهور الصفراء، ما كان يجب في الواقع أن تكون تلك الزهور هناك، إنها تلقي الكثير من الضوء.

ـ لم تجب فراو فرغوث بشيء؛ لقد صادف تمامًا أن تلك الزهور الرقيقة التي رسمت بدقة، كانت هي ما أحبته في اللوحة كلها.

استدار وعلى وجهه ظل ابتسامة، وقال:

ـ وداعًا لا تدعي الوقت يمر ثقيلًا عليك وأنت تنتظرين رجوع الولدين.

وغادر الحجرة نازلًا درجات السلم. وفي الخارج قفز الكلب إليه. أخذ مخالبه في يده اليسرى وأخذ يربت عليه بيده اليمنى ويتطلّع في عينيه المشوقتين. ثم نادى إلى المطبخ طالبًا قطعة سكر، أعطاها للكلب، وألقى نظرة على المرج المشمس، وعاد يجر خطاه ببطء إلى قاعة الرسم. كان يومًا بهيجًا يشجع على الخروج، كان الجو بديعًا لكنه لا يملك الوقت الكافي، إن عمله في انتظاره.

ها هي ذي لوحته هناك في الأعلى، تقف في الأعلى في ضوء المرسم الخافت. وعلى سطح أخضر مبقع بزهور برية جلس الأشخاص الثلاثة، انحنى الرجل فتمعن في يأس، وانتظرت المرأة في استسلام وخيبة أمل كئيبة، وأخذ الطفل البريء البهي يداعب الأزهار، وفوقهم جميعًا يتدفق ضوء كثيف حاد زاه مع نفس الدفء البهيج الخالي من الهم في كل زهرة كما في شعر الولد اللامع وفي الصيغة الذهبية على جيد المرأة الكئيبة المغمورة.

9

واصل الرسام عمله حتى المساء، وصار الآن نهبًا للإرهاق، فجلس لبرهة في كرسيه ذي الذراعين واضعًا يديه في حضنه، مستنزفًا تمامًا، بهدبين متهدلين وعينين محمرتين قليلًا، عجوز وهامد تقريباً مثل فلاّح أو حطّاب بعد نهار من العمل الشاق.

لقد أراد أن يظل في كرسيه ويستسلم لأعبائه طالبًا النوم. غير أن العادة والنظام الصارم لن يتركاه يفعل ذلك، فهب مستيقظًا بعد عشر أو خمسة عشرة دقيقة. وقف وبالكاد ألقى نظرة سريعة على اللوحة، وخلع ملابسه وراح يسبح ببطء جانب البحيرة.

كان مساء حليبيًا شاحبًا تكممه الأشجار، وسُمعت أصوات طقطقة عربات التبن وضحكات وصيحات العاملين الملولة المرهقة، وهم يعودون بعد عمل النهار المضني في طريق مجاور. خرج فرغوث من مياه البحيرة يرتجف، وجفف نفسه بحرص، ودلف إلى غرفة جلوسه الصغيرة وأشعل سيجارة.

قرر أن يكتب بعض الرسائل هذا المساء، ففتح درجه دونما اهتمام، ثم أغلقه بعصبية ورنّ الجرس طالبًا روبرت. وما أن ظهر الخادم حتى بادره بالسؤال:

ـ قل لي متى عاد الولدان بالعربة؟

ـ لم يعودا بعد، يا سيد فرغوث.

ـ ماذا؟ لم يرجعا بعد؟

ـ لا، يا سيد فرغوث. آمل فقط ألا يكون السيد ألبرت قد أرهق الطفل كثيرًا. إنه أميل إلى العنف قليلًا مع الحصانين.

لم يجب سيده. لقد أراد أن ينفق نصف ساعة مع بيير الذي يفترض أن يكون قد عاد منذ وقت طويل. وها هو الآن قد انتابه الغضب، بل الخوف والتوجس من الأخبار.

جرى نحو المنزل، وطرق باب غرفة زوجته. كان في ردها دهشة، لأنه لم يحدث له أن جاء لرؤيتها في مثل هذه الساعة، قال محاولًا كبت عصبيته:

ـ معذرة، ولكن أين هو بيير؟

نظرت فراو إيدل إلى زوجها باستغراب، وقالت:

ـ لقد ذهب الولدان في جولة بالعربة، ألا تتذكر؟

وأضافت وقد أدركت اهتياجه:

ـ أقلق أنت؟

هزّ كتفيه بنفاذ صبر:

ـ لا. لكن هذه لا مبالاة من ألبرت. قال بضع ساعات. كان باستطاعته أن يتصل بالتليفون، على الأقل.

ـ لكن الوقت لا زال باكرًا. سوف يصلان بالتأكيد قبل العشاء.

ـ إن الصغير يذهب دائمًا حين أريد أن أقضي معه وقتًا قصيرًا.

ـ لا حاجة أبدًا لأن تستثار. مثل هذه الأمور تحدث. وبيير يقضي معك أوقاتًا طويلة.

عض شفتيه وغادر دون أن يقول كلمة واحدة. لقد كانت على صواب، فلا حاجة لأن يثور، ولا حاجة لأن يتوتر أو يلح في طلب أي شيء في تلك اللحظة. الأفضل أن يجلس هناك هادئًا صبورًا ولا مباليًا كما فعلت هي.

هبط درجات السلم بغضب واجتاز البوابة خارجًا إلى الطريق. كان ذلك شيئًا لا يرغب في تعلمه، إنه يريد بهجته وغضبه، أي مثبط كئيب قد طمرته عليه هذه المرأة، أي عجوز هادئ معتدل قد صاره، هو الذي كان يطيل أيامه السعيدة إلى الليل بحذق وبراعة، ويحطم الكراسي في غضب. واستفاقت كل مرارته وامتعاضه بداخله، وفي الوقت نفسه عصف به شوق حار للصغير الذي صوته ونظراته وحدها يمكن أن تمنحه البهجة.

أخذ يقطع الطريق بخطوات طويلة. وسمع صوت عجلات، فحث خطاه في شوق، غير أن لا شيء هناك، فقط فلاّح بعربة مليئة بالخضار. حدث فرغوث الفلاّح قائلًا:

ـ هل صادفت ولدين بعربة يجرها حصانان؟

هزّ الفلاح رأسه دون أن يتوقف، وانطلق حصان المزرعة المحمل بأكوام الخضار يعدو دون مبالاة في عتمة المساء المعتدلة.

شعر الرسام بعد مسافة من المشي بأن غضبه قد هدأ وتبدد، وصارت خطواته أهدأ من ذي قبل، وسكن الإرهاق الذي اعتراه، بينما كان يواصل سيره وقعت عيناه على مشهد بديع من مشاهد الريف يمتد شاحبًا هادئًا في ضوء المساء الضبابي. وبالكاد راح يفكر في ابنيه بعد أن

ظلّ يمشي لمدة نصف ساعة، إذ بعربتهما تقترب نحوه قبل أن يتمكن من التنبه لها. وقف تحت شجرة كمثرى ضخمة. ولما استبان وجه ألبرت ارتد إلى الخلف غير راغب في أن يراه الولدان فيناديا ه.

كان ألبرت وحده في صندوق القيادة، بينما تكور بيير في ركن العربة، وقد أحنى رأسه العاري وبدا كأنه نائم. انطلقت العربة متجاوزة الرسام فجعل ينظر إليها وهو يقف في الطريق الترابي إلى أن توارت. استدار ومضى راجعًا. لقد ودّ أن يرى بيير، لكن الوقت الآن قد صار متأخرًا إذ يأوي الولد عادة في مثل هذه الساعة إلى سريره، فضلًا عن أن فرغوث لم يرد أن يظهر من جديد في منزل زوجته.

ولذا، اجتاز الحديقة، والبوابة، وواصل طريقه صوب المدينة حيث تناول عشاءه هناك في إحدى الفنادق وتصفح الجرائد.

في ذلك الحين، كان ولداه في البيت منذ وقت طويل. جلس ألبرت مع أمه يحدثها عن رحلته. أما بيير فقد كان في غاية الإرهاق، فلم يتناول عشاءه، وأوى إلى فراشه في غرفته الصغيرة الجميلة. ولما مرّ أبوه بالمنزل في طريق عودته لم يرَ أي إضاءة. بل غطى سماء الليل الساكنة التي لا نجوم فيه على الحديقة والمنزل والبحيرة بالسكون الأسود، وأخذ رذاذ خفيف يتساقط من الهواء الهاجع.

أضاء فرغوث غرفة الجلوس وجلس في كرسيه، وما عاد يشعر بحاجته الشديدة إلى النوم. أخذ ورقة وكتب إلى أوتو بركهارت. أخذت بعض حشرات العثة تتطاير بسرعة عبر النوافذ. كتب:

صديقي العزيز:

لعلك لم تكن تتوقع أن تصلك رسالة مني بهذه السرعة. لكني ما دمت أكتب إليك الآن، فلا شك أنك ستتوقع مني أكثر مما أستطيع أن أعطيك. أنت تعتقد أن الوضوح قد جاءني وأنني الآن صرت أرى بوضوح ما لحق بآلية حياتي من أضرار، تمامًا كما تراها أنت. لسوء الحظ، الأمر ليس كذلك. نعم، لقد ومضت في داخلي بعض ومضات الصيف منذ أن تحدثنا معًا عن تلك الأمور، ومن حين لآخر شعرت أن إيحاءً مؤلمًا إلى حد بعيد يحدق في وجهي، بيد أن ضوء النهار لم يحن بعد.

لذا، فكما ترى، إنني لا أستطيع أن أقول لك عما سأفعله أو لن أفعله فيما بعد. غير أننا سنذهب سويًا. لسوف أسافر إلى الهند معك، أرجو أن تحجز لي مكانًا في سفينة فور معرفتك بموعد الرحيل. لكني لن أستطيع الرحيل قبل نهاية الصيف، أما في الخريف، فكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

إنّي أريد أن أعطيك اللوحة التي رأيتها هنا، تلك اللوحة الخاصة بالأسماك، لكني سأكون مسرورًا لو أنها بقيت في أوروبا، فإلى أين أرسلها لك؟

كل شيء هنا كما هو عليه. ألبرت يواصل لعب دور السيد المعقد، لن تستطيع أن تتخيل الاحترام الذي يعامل به أحدنا الآخر، تمامًا مثل سفراء دولتين عظيمتين.

قبل أن نغادر، إنني أتوقع أن أراك هنا في روزهالده، لا بد أن أريك اللوحة التي سأكملها غدًا أو بعد غد. إنها عمل فني جيد، عمل سيرفع من شأني في حالة ما إذا ابتلعتني تماسيحك دفعة واحدة، ولا بد لي من الإقرار هنا، بأنني سأكون سعيدًا لو حدث هذا بالرغم من كل شيء.

عليّ الآن أن آوي إلى فراشي، مع أنني لا أشعر بالنوم. لقد قضيت اليوم تسع ساعات أرسم دون توقف.

صديقك يوهان

عنون الرسالة ووضعها في الصالة كي يأخذها روبرت إلى البريد في الغد.

تطلّع من النافذة قبل أن يأوي إلى سريره، وأصغى إلى هسيس المطر المتساقط الذي لم ينتبه له الرسام بينما كان يكتب رسالته كان يسقط خفيفًا ناعمًا في عتمة الليل؛ ولوقت طويل، استلقى يستمع لصوت قطرات المطر المنغم في الجدول الصغير متساقطة من أوراق النبات المنقوعة به إلى الأرض العطشى.

10

قال ألبرت لأمه حين ذهبا إلى الحديقة النديّة في الصباح الماطر لقطف الورود:

ـ إن بيير مضجر. لم يعرني الكثير من الاهتمام طوال الوقت، لكني بالأمس لم أستطع أن أحصل على أي شيء منه، وعندما اقترحت عليه قبل بضعة أيام الذهاب في جولة بالعربة، كان مليئًا بالحماس. لكنه أمس لم يرد فعلًا أن يذهب. لقد كان عليّ أن أتوسّل إليه تقريبًا، ولم يكن ذلك مريحًا لي، ثم إنني لم أقدر على أخذ الحصانين، وقد خرجت في الواقع من أجله هو.

سألت فراوفرغوث:

ـ هل كان سلوكه حسنًا؟

ـ نعم، بالطبع، لكنه كان مضجرًا جدًا. إنه أحيانًا يكون سئمًا جدًا. ما اقترحته عليه أو أريته أو قدمته له، لم أكن أظفر منه على ابتسامة إلا بالكاد، ونادرًا ما تفوه حتى بـ»أوه، صحيح..». لم يرد أن يجلس في صندوق قيادة العربة، ولم يرغب في أن يتعلم كيف يمسك باللجام، إنه حتى لم يرد أن يأكل المشمش. لقد كان أشبه بأمير صغير أفسده التدليل. لكم استفزني ذلك! إنني أقول لك لأني بصراحة لا أريد أن أصطحبه معي مرة ثانية.

وقفت أمه صامتة وتطلعت إليه فاحصة، كانت عيناه تتقدان سخطًا ولم تستطع هي أن تكبح ابتسامة ذاهلة، ثم قالت تلطّف الأمر:

ـ يا طفلي الكبير، لا بد أن تكون صبورًا معه. لعله لم يكن بخير، فهو لم يتناول سوى القليل جدًا هذا الصباح. هذا يحدث بين حين وآخر لكل الأطفال، وهذا ما حدث معه بالضبط. أحيانًا ما يكون ذلك بسبب مغص في المعدة، أو بسبب أحلام سيئة في الليل، صحيح، أيضًا أن بيير ضعيف وحساس، وفوق هذا، فلعله يشعر بالغيرة. لا تنس أنه دائمًا ما أكون معه طوال الوقت، أما الآن فأنت هنا وعليه أن يتشاركني معك.

ـ لكنها عطلتي. وعليه أن يقدر ذلك، إنه ليس غبيًا.

ـ إنه طفل صغير، يا ألبرت وعليك فقط أن تكون أكثر ذكاء منه.

كان المطر لا يزال يتساقط من الأوراق المتصلبة اللامعة، حين قد ما لقطف الورود الصفراء التي كان ألبرت مغرمًا بها بصفة خاصة تولّى هو إحناء رؤوس الشجيرات في حين قامت أمه بقصها بمقص الحديقة الذي كان لا يزال يتدلَى وقد ثقل قليلًا بسبب المطر.

سأل ألبرت متفكرًا:

ـ هل كنت مثل بيير حين كنت في مثل عمره؟

حاولت فراو فرغوث أن تتذكر. أخفضت يدها التي كانت تمسك بالمقص، ونظرت إلى عيني ابنها، ثم أغلقت عينيها محاولة أن تستعيد صورته وهو طفل. قالت:

ـ لقد كنت تشبهه إلى حد بعيد باستثناء عينيك، لكنك لم تكن طويلًا ولا نحيفًا مثله، لقد بدأت نموك فيما بعد.

ـ والأشياء الأخرى؟ أعني السمات الشخصية.

ـ حسنًا يا بني، لقد كان لك أنت أيضًا أمزجتك. غير أني أظن أنك كنت أكثر ثباتًا، لم تكن تنتقل من لعبة أو عمل إلى آخر بسرعة مثلما يفعل بيير وهو عاطفي أكثر مما كنت أنت، لم يكن متوازنًا مثلك.

أخذ ألبرت المقص من يد أمه وانحنى فوق شجرة، ورد قائلًا برقة:

ـ إن بيير أكثر شبهًا بأبي. أليس غريبًا! يا أمي كيف أن سمات الوالدين والأجداد أو خليطًا منها تظهر عند الأطفال؟ إن أصدقائي يقولون إن كل طفل لديه كل العناصر التي ستشكّل حياته كلها، وألّا شيء يمكن فعله بهذا الشأن. لا شيء مطلق. فمثلًا، إن كان شخص ما مؤهلًا لأن يصير لصًا أو مجرمًا، فلا يمكن القيام بشيء ليحول دون ذلك، إذ سيصير مجرمًا حتمًا. إنه لأمر فظيع. أنت توافقين على هذا، أليس كذلك؟ إنها مسألة علمية مؤكدة.

ابتسمت فرو إيدل وقالت:

ـ يمكن أن يكون ذلك صحيحًا. فعندما يصير الإنسان لصًا أو قاتلًا، يكون العلماء قادرين على أن يثبتوا مستقبلًا أنه قد أمتلك هذه المزايا فيه. لكني متأكدة من أنه يوجد الكثير من الناس الطيبين الذين ورثوا العديد من الشرور عن والديهم وأجدادهم، لكنهم عاشوا كأشخاص طيبين. غير أن العلم لا يستطيع بحث هذه المسألة بشكل جيد. ما أريد قوله هو إن الإرادة الطيبة، والنشأة الجيدة يمكن الاعتماد عليهما أكثر من

الاعتماد على الوراثة. كلنا نعرف ما هو حسن وصواب، أو أن باستطاعتنا أن نتعلم هذا، وهذا هو ما يجب علينا أن نفعله، لا أحد يعرف أسرار الوراثة التي يمكن أن تتوفر في أي إنسان، ومن الأفضل ألّا نقلق كثيرًا بشأنها.

كان ألبرت يعرف أن أمه لا تحب أن تضع نفسها في المناقشات الجدلية، وبإحساسه الغريزي شعر أن رد فعلها الساذج كان صوابًا. ومع ذلك فهو يعرف أن خلاصة القول في هذه المسألة وفي موضوع خطير كهذا لم يكن كذلك، وقد ودَ أن يقول شيئًا جازمًا عن نظرية السببية التي بدت له مقنعة عندما تحدث عنها بعض أصدقائه، ولم يفلح هو في التوصّل إلى أمر حاسم من خلال اعتساف الصيغ، خلافًا لأصدقائه الذين يقدرهم. على كل حال، لقد شعر في قرارة نفسه أنه أكثر ميلًا إلى الاعتقاد بأن الموقف الأخلاقي أو الجمالي هو أكثر فاعلية من المسألة العلمية والموضوعية التي أفصح عنها لأصدقائه.. وصرف النظر عن الأمر في آخر المطاف، والتفت للورود.

في تلك الأثناء، كان بيير فعلًا في حالة حسنة، وقد استيقظ أبكر بكثير من المعتاد وشعر بخمول فبقي في غرفته مع ألعابه حتى أحسَّ بالضجر، كان يشعر بالإعياء والفتور، وبدا له أنه لا بد من حدوث شيء بعينه لجعل هذا اليوم الباهت أكثر احتمالًا والظفر بالقليل من المسرة.

متردد بين استباق الأمور وعدم اليقين، غادر المنزل واتجه إلى غيضة الليمون بحثًا عن شيء جديد، عن اكتشاف ما أو مغامرة. كان يشعر بتوعّك معدته، وقد حدث هذا من قبل، لكنه لم يشعر بالإجهاد الشديد والثقل في رأسه. لقد أراد أن يجري إلى أمه ويبكي لكن ذلك كان مستحيلًا في حضور أخيه الأكبر المتباهي، الذي دائمًا ما يفصح ـ حتى في الأيام العاديةـ أن بيير مازال طفلًا صغيرًا. فقط لو أن أمه تتبين هي بنفسها أنها لا بد أن تفعل شيئًا، أن تدعمه، أن تقترح عليه لعبة ما وتكون لطيفة معه. لكنها بالطبع قد ذهبت مع ألبرت مرة ثانية. شعر بيير أن ذلك كان يومًا سيئًا، ولا يستطيع أن يأمل فيه سوى بالقليل.

مكتئبًا متوانيًا، راح يتسكع في الممرات المفروشة بالحصى وقد دسَّ يديه في جيبيه، وأخذ يلوك برعم ليمونة. كان صباحًا نديًا باردًا قليلًا في الحديقة، كان طعم برعم الليمون مرة. بصقه وتوقف ثابتًا شاعرًا بشيء مختلف تمامًا. لم يستطع التفكير بأي شيء اليوم، شعر اليوم بأنه لا هو أمير ولا قاطع طريق، لا صاحب مُعدّية ولا بناء.

نظر إلى الأرض مُقطّبًا، وجعل ينكث الأرض بطرفي حذاءيه، ركل بزّاقة رمادية صغيرة نحيلة بعيدًا عن الممر إلى العشب البليل. ما من شيء سيتحدث إليه اليوم، لا طير ولا فراشة، وما من شيء سيبتسم له ويسليه ويدخل البهجة إلى نفسه. كان كل شيء صامتًا، وكل شيء بدا مغلقًا ولا أمل فيه.

حاول أن يتذوق بعض الأعناب اللامعة الحمراء من أول شجيرة مر بها؛ فوجدها باردة وحامضة، وفكر أن من الأفضل له أن يستلقي وينام، ولا يصحو حتى يصير له شيء جديد جميل وسعيد مرة ثانية. لا جدوى من التجوال هكذا جاعلًا من نفسه إنسانًا بائسًا ينتظر أشياء لن تحدث أبدًا. كم سيكون جميلًا، مثلًا لو أن حربًا نشبت، وأقبل الجنود فاكتظَّت بهم الطرقات وهم على أحصنتهم، أو لو أن بيتًا ما اشتعلت فيه النيران، أو أن الأرض قد غمرها الفيضان. آه، إن مثل هذه الأشياء لا تحدث إلا في الكتب المصورة فقط، أما في الواقع فإنك لا تراها أبدًا، الأرجح أن لا وجود لها على الإطلاق.

وواصل الطفل مشيه الهُوَيْنِى يتنهد مكروباً وقد تلاشى البريق من وجهه الجميل الأنيق، ولما سمع صوت ألبرت وأمه خلف التعاريش، غمرته الغيرة الشديدة والحقد البغيض حتى أن الدموع طفرت من عينيه. استدار وابتعد بصمت خشية أن يسمعاه ويأتيا نحوه أو يناديا. لم يُرِد أن يَرُد، لم يُرِد أن يلتقي بأحد يلزمه بالحديث أو الإصغاء ويطلب منه أن يكون لطيفًا. كان يشعر بالتعب. ولا أحد يعنيه من أمره شيء؛ حسنًا، إنه إذن يريد على الأقل أن يصون وحدته وحزنه ويشعر حقًا بالتعاسة. تذكر الله في سمائه، حيث ظن في أوقات عديدة أنه عالٍ جدًا، وقد جلبت له الفكرة بصيصًا من عزاء ودفء نائيين، لكن سرعان ما خبا لعل فكرة أن الله في سمائه هي فكرة زائفة أيضًا. وعليه فإنه الآن، أكثر من أي وقت آخر، سيكون أسعد إنسان لو أنه وجد شخصًا ما يمكن الاعتماد عليه، شخص يمتلك فعلًا السرور والسعادة كي يمنحهما إياه.

عندئذ، تذكر أباه، لعله قد شعر بالأمل، إذ من المحتمل أن أباه سيفهمه، لأنه هو نفسه عادة ما يبدو صامتًا متوترًا وتعيسًا، ولا شك أن أباه الآن واقفًا في مرسمه الواسع الصامت، يرسم لوحاته، إنه دائمًا هكذا. وبالتأكيد، فلن تكون فكرة جيدة أن يذهب إليه ويعطله عن شغله. لكنه قد أخبره عما قريب أن بيير يستطيع دائمًا أن يجيء لرؤيته كلما أراد. لعله قد نسي، إن

الكبار دائمًا ما ينسون وعودهم بسرعة. لكن لا ضير من المحاولة. يا إلهي، لا، ما دام أنه لم يستطع التفكير بأي عزاء آخر، وهو بحاجة ماسة إلى عزاء.

وببطء أولًا، ثم وقد تزايد أمله، أسرع أكثر، نزل إلى الممشى الظليل الموصل إلى المرسم. وضع يده على المزلاج وبقي ساكنًا يصغي، وارتد حين استنشق رائحة الورنيش والتربنتاين، لكن هيئة أبيه القوي العملاق رفعت من أمله. دخل بيير غالقًا الباب خلفه، وعند سماعه لصوت المزلاج، ووقوع عيني بيير على منكبيه العريضين، هب مديرًا رأسه. كان في عينيه الحادتين نظرة متسائلة جارحة وتدلّى فمه مفتوحًا بلا فرح.

وقف بيير بلا حراك. نظر في عيني أبيه وانتظر، وعلى الفور صارت العينان ودودتين أكثر، وتلاشى الانزعاج من وجه الرسام. قال:

ـ حسنًا، إن لم يكن بيير! من عساه! لم يرَ أحدنا الآخر طوال يوم كامل. هل أرسلتك أمك؟

هزّ الطفل رأسه نفياً، وترك أباه يقبّله. وسأله أبوه بلطف.

ـ هل تحب أن تبقى هنا قليلًا وتتفرج؟

والتفت إلى لوحته مصوبًا فرشاة صغيرة حادة نحو لوحته بتركيز، ورأى عينيه تحدقان بدقة وغضب تقريبًا، ويده القوية العصبية تصوب الفرشاة، رآه يقطب وجهه، ويعض شفته السفلي. واستنشق هواء المرسم الحاد الذي طالما كرهه، والذي هو بالنسبة له اليوم أكثر حدة ونفاذًا.

انطفأ النور في عينيه ووقف بجوار الباب كما لو كان قد عجز عن الحراك. كان يعرف كل هذا، الرائحة وعيني أبيه، وتقطيبات التركيز، ويعرف أنه كان من السُّخف أن يتوقع هذا اليوم أن يكون مختلفًا عن غيره من الأيام، كان أبوه يشتغل، كان منغمسًا تمامًا في رائحة ألوانه، كل ما كان يستطيع التفكير فيه هو رسومه الغبية. كان سُخفًا أنه جاء إليه.

ظهرت علامة الخيبة على وجه الطفل. لقد كان يعرف كل شيء سلفًا. لا ملاذ، لا مع أمه، ولا هنا بالتأكيد. بقي لحظة طويلة حزينة متبلدًا، ينظر في اللوحة الضخمة بألوانها الطريّة اللامعة من دون أن يرى شيئًا. بينما وجد أباه متسعًا من الوقت لذلك، وليس له هو. وضع يده على المزلاج وضغطه قاصدًا أن ينسل خلسة. لكن فرغوث سمع الصوت الخفيض. استدار مدمدمًا ومضى نحو الولد:

ـ بيير ما الأمر؟ لا تهرب. ألا تريد أن تمكث مع أبيك لبرهة؟

سحب بيير يده، وهز رأسه بوهن موافقًا. سأل الرسام باهتمام وحب:

ـ هل تريد أن تخبرني بشيء؟ تعال سنجلس معًا. عندئذ ستخبرني. كيف كانت جولتك بالأمس؟

رد بيير كطفل حسن التهذيب.

ـ أوه، لقد كانت جميلة.

مرر فرغوث يده في شعر الطفل.

ـ ألم تكن سعيدًا بها؟ إنك تبدو وكأنك نعسان، يا بني. إنهم لم يعطوك نبيذًا لتشربه بالتأكيد؟ لا؟ حسنًا ماذا نفعل الآن؟ هل نرسم؟

ـ بابا إنه يوم جد ثقيل، باهت هذا اليوم.

ـ حقًا؟ لعلك لم تنم جيدًا، وهذا هو السبب. ماذا عن بعض الألعاب الرياضية؟

هزَّ بيير رأسه:

ـ لا أريد أن ألعب. إنني أريد فقط أن أكون معك. لكن الرائحة هنا كريهة جدًا.

لاطفه فرغوث برقة وضحك قائلًا:

ـ هذا حقًا، حظ سيئ ألا تحب رائحة الألوان حين تكون رسَّامًا صغيرًا. أظن أنك لا تريد أبدًا أن تكون رسامًا، أليس كذلك؟

ـ لا، لا أريد.

ـ وماذا تريد أن تكون؟

ـ لا شيء. إن ما أريد أن أكونه فعلًا هو أن أكون طيرًا مثل ذلك.

ـ لن يكون ذلك سيئًا. لكن أخبرني، يا حبيبي، ماذا تريد مني. أنت ترى أن عليّ أن أشتغل على هذه اللوحة الكبيرة. إذا أحببت أن تجلس هنا وتلعب أم أعطيك كتابًا مصورًا لتتفرج عليه؟

لا، لم يكن ذلك هو ما يريده. قال إنه سيخرج ليطعم الحمام، ولم يفته أن يلاحظ أن أباه تنفس الصعداء وهو يراه خارجًا. وأغلق أبوه الباب، وصار بيير وحيدًا من جديد، شاعرًا بفراغ أكثر من ذي قبل. مشى على مهلٍ في العشب حيث لم يكن من المفترض أن يمشي، وقطف ذاهلًا محزونًا زهرة أو اثنتين. رأى أن العشب المبلول قد بقع وسوّد حذاءيه الجلديين، لكنه

لم يأبه لذلك، وأخيرًا، وقد بلغ به اليأس مداه، ألقى بنفسه وسط المرج المعشب، ينشج ويدفن رأسه في العشب. كان يحس بالماء ينقع أكمام قميصه التي التصقت بذراعيه. ولم يهدأ إلا حين شرع يرتجف، فانسحب راجعًا إلى المنزل منخلع الفؤاد.

وسرعان ما نادوه، ووجدوا أنه كان يبكي، ورأوا ملابسه المبللة المتسخة وحذاءه المنقوع، فوبَخوه. كانوا كلهم أعداء، مرق من باب المطبخ، لا يريد أن يتحدث مع أحد. تمنى لو كان بعيداً، لمح مفتاحًا في باب من أبواب غرف الضيوف التي نادرًا ما شغلها أحد. دخل الغرفة وأوصد الباب ثم قفله وأغلق النوافذ المفتوحة، ومن دون أن يخلع حذاءه، تسلّق إلى سرير كبير لم يكن مرتبًا، وهو في غاية الإعياء. وهناك استلقى مع تعاسته وبؤسه، نصف باكٍ ونصف ناعس. وعندما سمع أمه بعد وقت طويل، تناديه من الفناء، لم يَرُد عليها، بل دفن نفسه بعناد في الملاءة. وجاء صوت أمه وذهب ثم صمت في الأخير. لم يستطع أن ينهض ليجيب. وفي النهاية، نام وغرقت خداه في الدموع.

وفي اللحظة التي جاء فيها فرغوث لتناول الغداء، سألت زوجته:

ـ ألم تُحضِر بيير معك؟

لم تَفُتْه نبرة القلق في صوتها. فتساءل:

ـ بيير؟ أنا لا أدري أين هو. ألم يكن معكما أنتما الاثنان؟

ذعرت فراو أيدل وارتفع صوتها:

ـ لا، لم أره منذ تناول الفطور. وعندما بحثت عنه، أخبرتني الفتيات بأنهن شاهدنه وهو في طريقه إلى المرسم. ألم يأت إليك؟

ـ نعم، لقد جاء، لكن للحظات فقط، ثم غادر.

ـ وأضاف بغضب:

ـ ألا يوجد أحد في هذا البيت ليعتني بطفل صغير؟

ـ استفزت فراو إيدل وردت بقسوة:

ـ لقد حسبنا أنه معك. سأذهب وأبحث عنه.

ـ ابعثي بأي أحد. الغداء على الطاولة.

ـ يمكنك أن تبدأ. سأبحث عنه.

وأسرعت خارجة. نهض ألبرت وكان على وشك أن يلحق بها، فصاح به فرغوث:

ـ ألبرت، ابق هنا. نحن على المائدة.

نظر إليه الفتى بغضب، وقال بنبرة تحد:

ـ سآكل مع أمي.

نظر فرغوث في وجهه المحمر غضبًا، وابتسم بسخرية:

ـ حسنًا جدًا. أنت السيد هنا، أليس كذلك؟ وبالمناسبة، إن شعرت بالرغبة في إلقاء المزيد من السكاكين عليَ، فلا تدع الأعراف العتيقة تحول دونك.

أكفهر وجه ألبرت ودفع الكرسي إلى الوراء، لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يشير فيها أبوه إلى ذلك الغضب الصبياني الذي اقترفه فصاح:

ـ أنت لا تملك الحق في أن تتحدث إليَّ هكذا.. وأنا لن أقبل ذلك.

لم يجب فرغوث. التقط قطعة خبز وقضمها وملأ كأسه بالماء وراح يشرب ببطء، عازمًا على أن يظل هادئًا. تظاهر أنه لوحده. وتوجه ألبرت متحيرًا صوب النافذة. وصاح ثانية، من دون أن يستطيع كبت غضبه:

ـ لن أقبل هذا.

نثر أبوه الملح على خبزه وفي أفكاره رأى نفسه راكبًا في سفينة مبحرًا في محيطات غريبة لا نهاية لها، بعيدًا عن هذا التشوش والاضطراب الذي لا شفاء فيه.

قال مسالمًا، تقريبًا:

ـ لا يهم. إنني أفهم أنك لا تود التحدث معي. حسنًا، فلننس الموضوع.

في تلك اللحظة سُمعت صيحة، ثم طوفان من الكلمات القلقة. لقد اكتشفت فراو إيدل أن الطفل في مخبئه السري. أسرع الرسام نحوهما. ويبدو أن كل شيء في هذا اليوم يحدث بطريقة غير صحيحة.

وجد بيير مستلقيًا بأحذيته الموحلة في سرير غرفة الضيوف المكوم. كان وجهه ناعسًا وقد بقعته الدموع، وشعره منفوشًا. وبجواره، وقفت فراو إيدل، حائرة مرعوبة.

صاحت أخيرًا بين القلق والغضب:

ـ لكن يا طفلي، ما الذي تفعله؟ لماذا لم تجب نداءاتي؟ ولماذا أنت راقد هنا؟

رفع فرغوث الطفل، ونظر بقلق إلى عينيه الخاليتين من أي تعبير، وسأله بحنان:

ـ هل أنت مريض، يا بيير؟

هزّ الطفل رأسه في حيرة.

ـ هل كنت نائمًا هنا؟ هل كنت هنا منذ وقت طويل؟

ورد بيير بصوت رقيق مفزوع:

ـ لم أدرِ ما بي.. أنا لم أفعل شيئًا.. أنا فقط عندي صداع.

حمله فرغوث إلى غرفة الطعام. وقال لزوجته:

ـ أعطيه قليلًا من الحساء. عليك أن تأكل شيئًا ساخنًا، يا صغيري، سوف يجعلك ذلك تشعر بتحسن. سوف ترى. آه، أيها العزيز الصغير، لا بد أنك مريض.

جلس فرغوث ودسَّ وسادة خلف الصغير، وتناول ملعقة وأخذ يطعمه الحساء. جلس ألبرت صامتًا متحفظًا. وقد هدأ خوف فرو فرغوث تقريبًا، وكأم مستعدة في سلوكها أن تعتني بالمرض برضى أكبر من الاهتمام بالتدقيق والتعامل مع التصرفات الخاطئة غير المعتادة. قالت محاولة أن تخفف عنه:

ـ سنضعك في السرير بعد قليل، الآن كل فقط، يا حبيبي.

كان وجه بيير شاحبًا جلس هناك بعينين نصف مغمضتين، وراح يبلع ما يوضع في فمه دون اعتراض. ولما كان أبوه يطعمه الحساء، جسَّت أمه نبضه، وتأكدت من أنه لم يكن يعاني من الحُمَّى.

سأل ألبرت بصوت متذبذب، شاعرًا أن عليه أن يقوم بشيء ما:

ـ هل أستدعي الطبيب؟

ردت الأم:

ـ لا، ليس ذلك مهمًا. سيذهب بيير إلى السرير، وسنلفه بإحكام وندفئه، سوف ينام جيدًا، وفي الغد سيكون على ما يرام، أليس كذلك، يا ملاكي؟

لم يكن الطفل يصغي.. وهز رأسه حين أراد أبوه أن يطعمه من الحساء. وتدخّلت أمه:

ـ لا، ليس عليه أن يجبر نفسه. تعال معي، يا بيير، ستذهب إلى السرير وسيكون كل شيء على ما يرام.

أخذته من يده، ونهض نعسانًا فاترًا، وتبع أمه. لكنه وقف أمام الباب، وهو يكاد أن يغمى عليه، وتقيأ كل ما أكله.

انتشله فرغوث وحمله إلى غرفته وتركه لأمه. رنَّت الأجراس، جرى الخدم صاعدين نازلين. أكل الرسام بضع لقيمات. وبين ذلك جرى مرة أو مرتين لرؤية بيير الذي خلعت ملابسه وألبس غيرها، ونظف، وأرقد الآن في سريره النحاسي. بعدئذ، خرجت فراو إيدل لتطلعهم أن الصغير صار الآن هادئًا، وأنه لا يشعر بأي ألم، ومن الواضح أنه يريد أن ينام. التفت فرغوث إلى ألبرت:

ـ ما الذي تناوله بيير بالأمس؟

ـ لا شيء محدد. في بروخنشواد أعطيته خبزًا وحليبًا، وأعطيته وقت الغداء في بنقولزهيم شرائح لحم مفرومة ومكرونة.

وواصل الأب استفساره:

ـ وبعد ذلك؟

ـ لم يرض بشيء. اشتريت له بعض المشمش بعد الظهر من أحد الجنائنيين. ولم يأكل سوى واحدة أو اثنتين.

ـ أكان المشمش ناضجًا؟

ـ نعم، بالطبع. يبدو أنك تظن أنني أنا الذي يجب أن يلام على اضطراب معدته.

لاحظت الأم نزق الفتى، وسألت:

ـ ما بكما أنتما الاثنان؟

رد ألبرت:

ـ لا شيء.

وواصل فرغوث:

ـ أنا لا أظن شيئًا. أنا فقط أسأل. هل حدث شيء بالأمس؟ هل تقيأ؟ أو هل سقط؟ هل اشتكى من أي آلام؟

أجاب ألبرت بنعم مقتضبة، متمنيًا من كل قلبه أن تنتهي هذه الوجبة.

ذهب فرغوث ماشيًا على رؤوس أخمص قدميه إلى غرفة بيير، فوجده نائمًا. كان وجهه مغطى مستسلمًا كليًا لعزاء النوم وسلواه.

11

أكمل يوهان فرغوث في ذلك اليوم المثير لوحته الكبيرة، وقد وجد تحت وطأة خوفه وقلقه العميق لتركه المريض الصغير، أن من الصعب عليه، أكثر من أي وقت مضى، أن يحتفظ بأفكاره ثابتة، وأن يقبض بإحكام على سلامه الذهني الذي كان سر قوته والذي كلفه ثمنًا غاليًا. غير أن إرادته كانت قوية، إذ نجح بعد ظهيرة ذلك اليوم، في الضوء الساطع الناعم، أن يفرغ من اللمسات الأخيرة بعمله ذاك.

وعندما وضع صفيحة مزج الألوان جانبًا وجلس أمام اللوحة، شعر بوحشة غريبة. كان يعرف أن هذه اللوحة رائعة، ويعرف أنه قد أنتج عملًا فنيًا متميزًا. لكنه في قرارة أعماقه كان يشعر بالخواء، والانطفاء. ليس هناك أحد يمكن أن يريه عمله الفني هذا. صديقه كان بعيدًا. وبيير كان مريضًا، وما من أحد آخر.

إن ردود الفعل الوحيدة التي ستصله في الجرائد والرسائل كانت من العالم الخارجي اللامبالي. إنها لا تعني له شيئًا، بل أقل من لا شيء؛ ففي لحظة كهذه، فإن نظرة صديق أو قبلة محبوب فقط هي ما يمكن أن يكافئه ويمنحه السرور والقوة.

ظل يحدّق بصمت لدقائق في اللوحة، التي استنفدت طاقاته وساعاته الجميلة خلال الأسابيع الماضية، كانت اللوحة تشرق بالحيوية، وهو واقف هناك، غريبًا يهدّه الإعياء. قال بتهكّم دفاعي: "أوه، حسنًا، سوف أبيعها. سوف توفر لي نفقات رحلتي إلى الهند". أغلق أبواب المرسم، وذهب إلى المنزل ليرى كيف صار حال بيير ووجده نائمًا لقد بدا الولد أفضل حالًا مما كان عليه وقت الغداء، لقد أعاد له النوم لون وجهه، كان فمه نصف مفتوح، وكانت تعابير العذاب واليأس قد اختفت.

همس لزوجته عند الباب:

ـ ما أسرع ما تظهر هذه الأشياء وتختفي عند الأطفال!

ابتسمت ابتسامة واهنة، ورأى هو أن زوجته قد تخففت مما أثقلها، وأدرك أن قلقها كان أعظم مما أظهرت. لم ترق له فكرة أن يتناول عشاءه مع زوجته وألبرت فقط فقال:

ـ سوف أذهب إلى المدينة. لن أكون هنا هذا المساء.

كان بيير نائمًا، فأطفأت أمه الضوء الساطع وتركته.

حلم أنه كان يتمشى ببطء في حديقة الزهور. وبدا كل شيء مختلفًا، وأكبر وأوسع بكثير مما هو عليه في الواقع؛ ومشى إلى ما لا نهاية. كانت أسرة الزهور أكثر جمالًا من أي وقت مضى، لكن الزهور بدت زجاجية غريبة، كبيرة، وغير مألوفة، وكلها كانت تومض بحزن وجمال ميت. ومشي بصعوبة ما، حول سرير دائري لشجيرات ذات براعم كبيرة. وحطت فراشة زرقاء بهدوء على زهرة بيضاء وأخذت تمتص رحيقها. كانت الفراشة ساكنة بصورة غير طبيعية، ولم يكن هنالك أي حصى في الممرات، بل شيء ناعم، وكان المشي فيها يشبه المشي فوق سجادة.

من جهة سرير الأزهار الأخرى، رأى في ممر آخر أباه وألبرت يمشيان مباشرة وبصمت وصرامة، دون أن يراه أي منهما. وتحت تأثير السحر مضيا بصرامة وقسوة، وبدا أن هذه هي حال كل شيء دائمًا، وكما لو أنه لن يكون هناك أي ضوء أبدًا في عيونهما الثابتة، ولن تكون أية ابتسامات على وجهيهما، ولا صوت سيشق هذا الصمت الصلد، وأن الهواء الرقيق ليس يهب أبدًا ليلامس الأوراق الجامدة والفروع الساكنة.

وأسوأ ما في الأمر أنه، هو نفسه كان عاجزًا عن التفوّه بشيء وعن النداء. لم يكن هناك من شيء يمنعه، ولم يشعر بألم، لكنه لم يكن يملك الشجاعة أو الرغبة الحقيقية للنداء، وفهم أن هذه هي الحال التي يجب أن تكون عليها الأمور، وأنه سيكون فظيعًا جدًا لو أنه رفض هذا أو تمرّد عليه. تمشى بيير عبر الحديقة الرائعة التي بلا روح. آلاف الأزهار البديعة كانت تتلألأ في الهواء الميت، كما لو أنها لم تكن أزهارًا حقيقية ولا حية. ومن وقت لآخر، رأى ألبرت أو أمه أو أباه، وكانوا دائمًا يمرون بجانبه الواحد بعد الآخر بنفس الصرامة التي لم يعهدها فيهم.

بدا له أن كل شيء كان هكذا منذ زمن طويل ـسنين طويلة تقريبًاـ وأن تلك الأحايين الأخرى، عندما كانت الحديقة والعالم حيين، عندما كان الناس منتجين ثرثارين، وهو نفسه ممتلئ بالبهجة والحبور والحيوية، بدا له أنه يستلقي بعيدًا بعيدًا في الماضي الأعمى السحيق. لعل العالم كان هكذا دائمًا كما هو الآن، وكانت الحياة الأولى مجرد حلم مرح أحمق.

وفي الأخير وصل إلى حوض حجري صغير كان الجنائني من قبل يملأ أوعية السقي فيه، وهو نفسه قد احتفظ ببعض الشراغيف الصغيرة. توقف الماء الأخضر المتلألئ بلا حراك

عاكسًا الحافة الحجرية والأوراق الكثيفة المتدلية لزهرة النجمة الصفراء والتي بدت جميلة، منبوذة، بائسة نوعًا ما مثل كل شيء آخر.

قال له الجنائني ذات مرة: "لو سقطت هنا، لغرقت ومت"، لكنها لم تكن عميقة على الإطلاق. خطا بيير إلى حافة الحوض البيضاوي وانحني إلى الأمام. رأى وجهه منعكسًا في صفحة الماء. كان وجهه مثل وجه الآخرين: عجوزًا، شاحبًا صارمًا قاسيًا ولا مباليًا.

اندهش وذعر، وفجأة عاد له السر الرهيب لحالة الحزن واللامعنى بقوة شديدة الوطأة. حاول أن يصيح، لم يكن لديه صوت. أراد أن يصيح ولكن كل ما استطاع فعله هو أن لوى وجهه وكشَّر دون فائدة. عندئذ، ظهر أبوه مرة ثانية، ولجأ بيير إليه في يأس، مستجمعًا كل قواه. كان ينشج في صمت، وكل كربه، كل معاناته التي لا يحتملها قلبه اليائس، استدارت إلى أبيه تطلبه النجدة. اقترب منه أبوه بسلبية الشبح، ومرة ثانية، بدا أنه لم يلحظه.

"أبي"، حاول الطفل أن يصرخ، ومع أنه لم يكن هناك أي صوت ليُسمع، فإن قوة معاناته قد بلغت الرجل الصامت المنعزل. أدار أبوه وجهه ونظر إليه.

وبنظرة الرسام الباحثة، حدق باهتمام في العينين المتوسلتين، ابتسم بوهن، وهز رأسه هزة خفيفة؛ كان في نظرته حنان وأسف، لكن لا عزاء، كما لو أنه ما من شيء يمكن فعله. وللحظة قصيرة مرت ظلال من الحب والتعاطف الأليم على وجهه القاسي، وفي تلك اللحظة القصيرة لم يلحظ الأب البالغ القوة، بل رأى أخًا بائسًا لا حول له.

ومرة ثانية، نظر مباشرة إلى الأمام ومضى ببطء وبنفس الخطوات المنتظمة الثقيلة. أبصره بيير يتقدم ويختفي، وصار الحوض والحديقة والممر قاعة مظلمة أمام عينيه المرعوبتين، وتلاشت مثل سحب ضبابية. استيقظ موجع الصدغين، وكان حلقه حارًا جافًا من الظمأ، وتبيّن أنه كان مستلقيًا وحيدًا في السرير في غرفة مظلمة. حاول في دهشة أن يستعيد ذاكرته، لكنه لم يجد أية ذكريات. ومرهقًا ثابط الهمة، انقلب على الجانب الآخر.

استعاد وعيه كاملًا ببطء، عندئذ تنهّد بانشراح. ما أسوأ أن تكون مريضًا ويكون لديك صداع، غير أن ذلك كان محتملًا؛ كان خفيفًا ولطيفًا مقارنة بتلك المشاعر الرهيبة التي عاناها أثناء الكابوس.

حدّث بيير نفسه بجدوى كل تلك العذابات، وكوّر نفسه تحت الغطاء. ما جدوى المرض؟ إن كان عقوبة فلماذا عوقب؟ إنه لم يأكل أي شيء ممنوع، كما فعل ذات مرة، عندما ألهب

معدته وأكل الخوخ الفج غير الناضج. لقد مُنع من أكلها، لكنه أكلها جميعها كما لو كانت ناضجة، لذلك فقد كانت لفعلته تلك خدمة ما، وكان عليه أن يواجه العواقب. كان ذلك واضحًا مفهومًا. لكن الآن؟ لماذا هو راقد في سريره الآن، لماذا تقيأ، ولماذا يعاني من تلك الآلام المنغصة في رأسه؟

ظلَّ مستلقيًا صاحيًا لفترة طويلة، وأخيرًا جاءت أمه إلى غرفته. أزاحت ستار النافذة، فأضاعت الغرفة بنور المساء الناعم.

ـ كيف أنت، يا حبيبي؟ هل نمت جيدًا؟

لم يرد. رفع عينيه، وهو مستلق جانبًا؛ ونظر إليها. ردت على نظرته بنظرات مندهشة. بدت عيناه متسائلتين باستغراب وحزن.

ـ لا حرارة.. أتريد أن تأكل شيئًا الآن؟

هزّ بيير رأسه بفتور.

ـ هل تريدني أن أحضر لك شيئًا محددًا؟

قال بصوت خفيض:

ـ ماء.

أحضرت له الماء، لكنه لم يرتشف سوى رشفة واحدة، ثم أغلق عينيه ثانية. وفجأة، رن صوت البيانو في الغرفة المجاورة مالئًا الغرفة بموجات الصوت العالية.

صاح:

ـ لا. لا. دعوني وشأني.

وضع يديه على أذنيه، ودفن رأسه في الوسادة.

تنهّدت فراو إيدل، وذهبت إلى حجرتها وطلبت من ألبرت أن يتوقف عن العزف. ثم عادت وجلست بجوار سرير الطفل حتى نعس ثانية.

كان ذلك المساء جد صامت في المنزل. كان فرغوث غائبًا، وألبرت مستاء لعدم قدرته على عزف البيانو. وذهبوا إلى أسرّتهم مبكرين. تركت فراوفرغوث باب حجرتها مفتوحًا كي تقدر على سماع بيير لو احتاج لشيء أثناء الليل.

12

عند عودته من المدينة ليلًا، مرّ خلسة بجوار المنزل يتلمّس إن كان هناك نافذة مضاءة أو بابًا مفتوحًا، أو لعله يسمع صوتًا يطلعه كيف هو حبيبه الصغير المريض المتعب. ولما وجد الكل هادئًا نائمًا، شعر بأن مخاوفه زاحت عنه مثلما يسقط ثوب ثقيل مبلول عن الجسم، فشعر بالامتنان وهو يستلقي في سريره يقظًا. وقبل أن يغلبه النعاس بوهلة، تبسم متذكرًا كم أن المرء لا يحتاج إلا إلى القليل ليسري عن قلب مكروب. كل ما أوجعه وأثقل حياته، ذلك الحمل الباهض النافع استحال إلى لا شيء، صار خفيفًا ولا معنى له بجوار تألمه من أجل ابنه الحبيب، وسرعان ما تقدمت ظلال سوداء حتى بدا كل شيء سهلًا ميسورًا، وصارت حياته كلها محتملة.

نهض صباح اليوم التالي بمعنويات عالية واتجه صوب البيت في ساعة مبكرة غير معتادة. شعر بالرضا أن وجد بيير لا يزال نائمًا بسلام، أفطر مع زوجته وحدهما، لم يكن ألبرت قد صحا بعد. ومنذ سنين عديدة لم يظهر فرغوث على مائدة فراو إيدل في تلك الساعة، وقد كانت تتطلّع إليه بنظرات مستغربة عندما سألها عن أمور حقيقية بمزاج ودود طيب، طلب كوب قهوة وشاركها إفطارها كما في الأيام السالفة.

وقد لاحظ، على أي حال، تقلقلها، وأدرك كيف لم يكن طبيعيًا بالنسبة له أن يظهر في مثل هذا الوقت هنا.

قال بصوت ذكّر زوجته بسنين كانت الأحوال فيها أفضل بكثير:

ـ إنني جد مسرور، جد مسرور أن الصغير يبدو في حال أفضل. الآن فقط بدا لي أنني قد قلقت إلى أبعد حد من أجله.

وافقته:

ـ نعم أنا نفسي لم أكن سعيدة أبدًا بسببه بالأمس.

أخذ يتشاغل بملعقة قهوته الفضية، ولعلّه قد نظر إلى زوجته نظرة غير مهذبة، انعكاسًا خفيفًا لسرور صبياني فجأة ثار ثم خمد في الحال، وتلك كانت واحدة من السمات التي حببته إليها تقريبًا في الأيام الخوالي، البريق سريع الزوال الذي ورثه عنه بيير فقط. قال مبتهجاً:

ـ نعم، إنه مدعاة حقيقية للسرور. والآن يمكنني أخيرًا أن أناقش خططي الأخيرة معك. أعتقد أن عليك أن تأخذي الولدين إلى سانت مورتيس هذا الشتاء للبقاء هناك لفترة طويلة.

نظرت إلى الأسفل غير متأكدة:

ـ وأنت؟ هل تعني أنك ستبقى لترسم هنا؟

ـ لا، لن آتي معكم. سأترككم وحدكم لبعض الوقت، وسأقوم برحلة. إنني أنوي أن أغادر هذا المكان في الخريف وأغلق المرسم، سأعطي روبرت عطلة. الأمر كله يتوقف عليكم. تستطيعون أن تقضوا الشتاء هنا في روزهالده إن أحببتم. أنا لا أنصح بذلك. الأفضل أن تذهبوا إلى جنيف أو باريس ولا تنسوا سانت موريتس، سيكون ذلك لطيفًا بالنسبة لبيير بالذات.

نظرت إليه، متحيّرة وغير مصدقة:

ـ إنك تمزح.

قال بابتسامة نصف كئيبة:

ـ أوه، لا، لقد فقدت عادة المزاح. إنني جاد وعليك أن تصدقيني. إنني ذاهب في رحلة عبر المحيط. سأكون بعيدًا لبعض الوقت.

ـ رحلة عبر المحيط؟

حاولت بصعوبة أن تستجمع أفكارها. إن اقتراحاته، وإشاراته، ونبرة صوته المبتهجة، كل ذلك لم يعد مألوفًا منه، وقد جعلها غير واثقة. لكن الكلمات المفاجئة "رحلة عبر المحيط" أثارت لديها خيالًا ما، رأته على ظهر سفينة، يلحقه الحمالون بالحقائب، فتذكرت إعلانات شركات السفن البخارية والطواف في البحر الأبيض المتوسط الذي قامت هي نفسها به، وفي لحظة فهمت كل شيء.

صاحت:

ـ أنت ذاهب مع بركهارت!

أومأ برأسه مبتسماً، وقال:

ـ نعم، أنا ذاهب مع أوتو.

صمتا معًا لبعض الوقت. أدركت أهمية هذا الإعلان، واستولى عليها الفزع. هل ينوي أن يهجرها، أن يطلق سراحها؟

إن هذه، بأية حال هي خطوته الأولى بهذا الاتجاه، وقد ذعرت أن لاحظت كيف أن عاطفة صغيرة، كيف أن إنذارًا بسيطًا أو أملًا تجاه هذا الأمر قد خالجها، ولم تشعر بأي بهجة أيا كانت. بالنسبة له، ربما كانت حياة جديدة ممكنة، أما بالنسبة لها، فلا. سوف يكون أمامها أوقات سهلة مع ألبرت، وستفوز ببيير، نعم، لكنها ستكون دائمًا امرأة مكروبة. لقد فكرت بهذا الاحتمال مئات المرات، وقد رأته كوعد بالحرية والخلاص؛ أما.. الآن، وقد صار على وشك أن يصير حقيقة، فقد انتابها القلق الكبير والخجل والإحساس بالذنب متزامنًا مع فقدان الأمل والعجز عن أية رغبة. كان يجب أن يحدث أسرع من ذلك، هكذا شعرت، في أيام العاصفة والتعاسة الأليمة، قبل أن تتعلم الاستسلام، أما الآن، فقد جاء متأخرًا، كان بلا جدوى، لم يكن أكثر من خط تحت شغل انتهى، خاتمة وتثبيتًا مريرًا لكل شيء أخفته، واعترفت لنفسها به فقط نصف اعتراف، لم يعد يحتفظ بشرارة الانطلاق إلى حياة جديدة.

أخذ فرغوث يستقرئ ملامح زوجته المنضبطة باهتمام، وشعر بالأسف من أجلها، فقال محاولًا التخفيف:

ـ دعينا نجرب هذا. ستحيون معًا من دون مضايقة، أنت وألبرت وبيير أيضًا لمدة عام، مثلًا. أعتقد أن ذلك سيكون مرضيًا لك، وسيكون بالتأكيد أمرًا طيبًا للولدين. إنه ليثقل عليهما أن.. أننا لم نستطع تدبر حياتنا بصورة ناجحة تمامًا. ونحن نفسينا، علينا أن نرى الأمور بصورة أكثر وضوحًا بعد الانفصال الطويل. ألا تظنين ذلك؟

قالت برقة:

ـ ربما. يبدو أنك قد أعملت تفكيرك واتخذت قرارك.

ـ لقد كتبت لأوتو، ليس ذلك سهلًا بالنسبة لي، وأنت تعرفين ذلك، أن أبتعد عنكم جميعًا لوقت طويل.

ـ أنت تعني بيير.

ـ نعم، بالذات بيير. أنا أعرف أنك ستهتمين به جيدًا، وأنا لا أتصوّر أنك ستتحدثين إليه كثيرًا عني لكن لا تفعلي مثلما حدث مع ألبرت.

هزّت رأسها معترضة:

ـ لست الملومة على ذلك أنت تعرف أنني لم أكن السبب.

أراح يده على كتفها بحذر أخرق، إذ كانت تلك رقة لم تمارس منذ عهد طويل:

ـ أوه، إيدل، دعينا نصرف النظر عن حديث اللوم. فلنقل أنني أنا الملوم على كل شيء. إنني فقط أريد أن أقوم ببعض الإصلاحات ولا شيء أكثر من ذلك. إنني أطلب منك فقط ألا تدعيني أخسر بيير إن كان يمكن تحاشي ذلك. إنه لا يزال الرباط بيننا. فقط حاولي ألا يكون حبه لي شديد الوطأة عليه.

أغمضت عينيها كما لو كانت تريد أن تحمي نفسها من عاصفة قادمة. وقالت بتردد:

ـ لكن إن أنت بقيت بعيدًا لوقت طويل.. إنه طفل..

ـ بالطبع، دعيه يواصل كونه طفلًا. دعيه ينساني إن لم يكن من ذلك بد. لكن، تذكري أنه أمانة أتركها عندك وأنا أغادر أو.. تذكري، أنني إذ أفعل ذلك، فلأنني أثق بك كثيرًا جدًا وأتركه لديك.

همست بسرعة:

ـ إني أسمع ألبرت قادمًا. سيكون هنا في الحال. سنتحدث فيما بعد. ليست المسألة بالبساطة التي تتصوّرها. إنك تمنحني حرية أكثر مما ملكت أو أردت، وأنت في الوقت نفسه تترك لي مسؤولية تحرمني من أي إحساس بالحرية. دعني أفكر بالأمر أكثر. أنت نفسك لم تتوصل إلى هذا القرار خلال ساعة من الزمن، امنحني وقتًا أطول قليلًا، أيضًا.

سُمعت وقع خطوات خارج الباب؛ وبعد برهة دخل ألبرت. اندهش لرؤية أبيه يجلس هناك، رحب به بانقباض، وقبل فراو إيدل، وجلس لتناول طعام الإفطار.

قال فرغوث بود مخاطبًا ألبرت:

ـ لدي مفاجأة لك. يمكنك أن تقضي عطلة الخريف مع أمك وبيير حيثما تريدون، وتقضوا عطلة عيد الميلاد كذلك أيضًا، سوف أكون بعيدًا لعدة أشهر.

لم يستطع الولد أن يداري بهجته، لكنه بذل جهدًا وهو يقول بحماس:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لست أدري بالضبط. سأذهب أولًا إلى الهند مع بركهارت.

ـأوه، بعيد جدًا؟ لي زميل هناك في سنغافورة، كما أعتقد، أنهم لا يزالون يصطادون النمور هناك.

ـآمل هذا. إن اصطدت واحدًا فسأحضر معي الجلد طبعًا، لكن أغلب الظن أنني سأقضي الوقت في الرسم.

ـهذا ما أعتقده. لقد قرأت عن فنان فرنسي كان في مكان ما في المناطق المدارية، في إحدى الجزر في البحار الجنوبية، أعتقد.. لا بد أن يكون ذلك رائعًا.

ـوهذا ما أعتقده أنا أيضًا. وفي تلك الأثناء فستكون سعيدًا وتعزف ما شئت من الموسيقى، وتتزلّج. أما الآن فسأذهب لأرى كيف هو الصغير.. لا ينهض أحد.

وذهب قبل أن يجيب أحدهما بشيء. قال ألبرت بابتهاج:

ـأحيانًا يكون بابا رائعًا. رحلة إلى الهند أنا أحب هذا. هذا شيء متميز.

ابتسمت أمه بصعوبة. كان توازنها قد اهتز. شعرت كأنها كانت واقفة على جذع منشور. لكنها ابتسمت وحاولت أن تظهر تعبيرًا وديًا؛ إنها متمرسة على ذلك.

ذهب الرسام إلى غرفة بيير وجلس بجواره. أخذ بهدوء دفتر تخطيطات أولية وشرع يرسم الرأس الصغير النائم والذراع، لم يرغب في أن يضايق الصغير بإجلاسه في أوضاع معينة، فاكتفى برسم التخطيطات كالعادة وبأكبر قدر ممكن في الأيام المتبقية وبذلك يكون قد طبعه جيدًا في ذاكرته. وبعناية بالغة راح يدرس أشكالًا محبوبة، الانحدار ونفور الشعر الناعم، والأنف البديع بفتحتيه العصبيتين، اليد الأسطوانية الضعيفة الواهنة المستريحة، خط الفم الأرستقراطي العنيد المغلق بإحكام.

نادرًا ما رأى الطفل في سريره، ولم يحدث من قبل أن رآه نائمًا إلا بشفتين مفتوحتين كالأطفال. وهو يلاحظ الفم المعبر الناضج قبل الأوان، أدهشه مقدار الشبه الذي بينه وبين فم والده هو، جد بيير الذي كان شخصًا مرتفع المعنويات، خياليًا ولكن عاطفيًا قلقًا. وهو يتأمل الطفل ويرسم تخطيطات له، فكّر مليًا بذلك المغزى العميق الذي تمارسه الطبيعة بملامح وأقدار الآباء والأبناء والأحفاد، وبلغز الضرورة والصدفة المدهش والمعذب الذي يطوف عقل هذا الرجل الذي لم يكن مفكرًا.

وعلى حين غرة، استيقظ النائم ونظر إلى عيني أبيه، وثانية، أندهش فرغوث بتلك النظرة الرزينة المتميزّة التي لا تشبه نظرات الأطفال وكذلك تلك الاستيقاظة نفسها. وضع جانبًا

بسرعة قلم الرصاص وأغلق كراسته. انحنى على طفله وقبل جبينه، وقال بفرح:

ـ صباح الخير، يا بيير هل تشعر بتحسن؟

ابتسم الطفل بسعادة وراح يتمطى. أوه، نعم، إنه يشعر بتحسن، أفضل بكثير. وشيئًا فشيء، راح يتذكّر. نعم، كان بالأمس مريضًا، فلا زال يحسّ بتهديد ظلال اليوم البشع. لكن الأمور أفضل بكثير؛ إنه يريد فقط أن يظلّ مستلقيًا في السرير لفترة أطول ليبقى على دفئه بامتنان هادئ، بعدها سينهض ويتناول فطوره ويخرج إلى الحديقة مع أمه.

ذهب فرغوث ليجيء بأمه. نظر بيير بعينين نصف مغمضتين إلى النافذة. كان ضوء الصباح الجميل مشرقًا يلمع من خلال الستائر الصفراء. ها هو ذا يوم فيه شيء من الوعد. يحمل عبق الفرح...! ما كان أسوأ وأبرد وأثقل يوم أمس! أغمض عينيه محاولًا نسيانه، وشعر بأن الحياة الباسمة راحت تتمدد في أطرافه الكسولة النعسانة.

وها هي أمه قد جاءت محضرة معها بيضة وكأسًا من الحليب، ووعده أبوه بعلبة ألوان جديدة، وهم جميعًا يحبونه ويتعاطفون معه وسعيدون برؤيته بخير مرة ثانية. لقد بدا وكأنه في عيد ميلاد، ولا يهم إن لم يكن هنالك كعكة، لأنه لم يكن جائعًا فعلًا.

وما إن أُلبس بدلة صيفية زرقاء نظيفة، حتى ذهب ليرى والده في مرسمه. لقد نسي كوابيس الأمس البغيضة وإن كانت آثارها لا تزال تردد أصداءها المرعبة المعذبة في قلبه، أما الآن فإن عليه أن يتطلّع ويتذوق أشعة الشمس والحب الذي يحيط به، ويتأكد من أنها حقيقة موجودة.

كان أبوه، الذي يقيس إطار لوحته الجديدة ساعتها، في غاية السرور لرؤيته. لكن بيير لم يكن يقصد أن يبقى لمدة طويلة، إنه يريد فقط أن يرد عليه تحية الصباح ويمنحه فرصة أن يحبه لوهلة فحسب. بعدها خرج ليرى الكلب والحمام وروبرت، وألقى نظرة على المطبخ وحيا الجميع واستولى على اهتمامهم من جديد.

ثم ذهب بعد ذلك إلى الحديقة مع أمه وألبرت وبدا له أن عامًا قد انقضى منذ أن أضطجع هناك على العشب يبكي. لم يشعر بالرغبة في التأرجح، لكن وضع يده على الأرجوحة.

عندئذ ذهب لرؤية الشجيرات ومساكب الزهور، غشيته ذكرى معتمة عن حياة سابقة، ضائعة، كئيبة، تُوقع الغم في القلب، وصار الآن كل شيء بهيجًا حيًا مرة ثانية، كانت النحلات تطن، وكان الهواء نديًا منعشًا يسرّك أن تتنفسه.

أعطته أمة سلة زهورها ليحملها. وضعت فيها القرنفلات وزهور الأضاليا، بينما كان هو يصنع باقة أخرى ليأخذها إلى أبيه فيما بعد.

وحين رجعا إلى البيت، كان متعبًا. عرض عليه ألبرت أن يلعب معه، لكنه أراد أن يستريح قليلًا أولًا. كان لا يزال ممسكًا بباقة زهور والده حين غاص في كرسي أمه الخيزراني الكبير الذي في الشرفة. شعر بإعياء شديد ملحوظ، وأغمض عينيه واتجه نحو الشمس ليستمتع بدفء أشعّتها الحمراء التي تنفذ من خلال جفونه. ثم نظر إلى بدلته الجميلة النظيفة، وأبقى حذاءه الأصفر اللامع في ضوء الشمس، وأخذ يتقلب يمينًا ويسارًا. وجد متعة في أن يجلس هكذا بهدوء تام، فاترًا قليلًا، نظيفًا مرتاحًا غير أن رائحة القرنفل كانت قوية جدًا. وضع الباقة وأزاحها بعيدًا فوق الطاولة بقدر ما استطاع أن يمد يده. عليه أن يضع القرنفل في مزهرية بها ماء في الحال وإلا فإنها ستذبل قبل أن يراها والده.

فكّر بأبيه بمحبة استثنائية. والآن، ما الذي حدث بالأمس؟ لقد ذهب لزيارته في المرسم، وكان والده يشتغل، ولم يجد الوقت الكافي، كان يقف أمام لوحته، وحيدًا مكبًا على عمله وحزينًا قليلًا. تذكر ذلك جيدًا. لكن، ماذا بعد ذلك؟ ألم يقابل أباه في الحديقة بعد ذلك؟ حاول أن يتذكر. نعم، لقد كان أبوه يتمشى جيئة وذهابًا في الحديقة، وحيدًا وقد غشيت وجهه تعاسة غريبة، وأراد هو أن يناديه.. ماذا حدث؟ شيء مرعب مخيف حدث بالأمس. أو هو سمع عنه ولم يقدر على العثور عليه ثانية.

واصل تفكيره متكئًا على الكرسي. كانت الشمس مشرقة صفراء دافئة عند ركبتيه، لكن سعادته فارقته بالتدريج، شعر أن أفكاره كانت تقترب وتقترب من ذلك الشيء المريع، وشعر أنه ما إن يتبيّنه، حتى يستسلم لسطوته مرة ثانية؛ لقد كان يقف خلفه، منتظرًا. وكلما اقترب من ذلك الخط الفاصل، ارتفع بداخله شعور بالدوار والإغماء، وشرع رأسه يؤلمه من الصداع.

آذته القرنفلات برائحتها الطاغية. كانت مستلقية هناك على طاولة الخيزران، تذوي؛ إن هو أراد أن يعطيها لأبيه، فالوقت الآن هو وقت إعطائه. لكنه لا يشعر الآن بالرغبة لأن يفعل، أو بمعنى أدق هو يرغب أن يفعل، لكنه جد متعب والضوء يؤذي عينيه. وفوق ذلك كله، عليه أن يتذكر ويفكر بما حدث بالأمس. شعر أنه كان قريبًا من استرجاع ما حدث، وما كان على أفكاره إلا أن تقترب منه، لكنه في كل مرة، يتلاشى ويغيب. صار صداعه أسوأ. أوه، لماذا هذا الصداع؟ لقد كان جد سعيد اليوم؟

نادته فراو أيدل، وبعد لحظات جاءته. رأت الزهور ملقاة في الشمس وكانت على وشك أن ترسله ليجلب لها الماء، لكنها نظرت إليه ورأته متكورًا في الكرسي وقد سالت دموع غزيرة على خديه.

ـ بيير، يا طفلي، ما الأمر؟ ألست بخير؟

نظر إليها دون حراك وأغمض عينيه ثانية.

ـ أجبني، يا ملاكي، ما الأمر؟ أتريد أن تذهب إلى السرير؟ هل نلعب معًا لعبة ما؟ هل تشعر بالوجع؟

هزّ رأسه، ونظر نظرة غير وديّة كما لو كانت تتحرش به، وهمس:

ـ دعيني وشأني.

وعندما أجلسته ولفّت ذراعيها حوله، ومض بريق في عينيه كما لو كان غاضبًا، ثم صرخ بصوت عال غير طبيعي:

ـ أوه، دعيني وشأني!

وبعد برهة، كف عن مقاومتها، وغاص في ذراعيها، وعندما أخذته، توجع في ضعف وترك رأسه يسقط إلى الأمام، وأخذ يتقيأ بوهن.

13

منذ أن عاش فرغوث في جناح مرسمه الجديد وحيدًا، لم يحدث أن جاءت زوجته لتراه هناك. ولما أسرعت إلى المرسم ودخلت بدون أن تطرق الباب، صار مستعدًا تمامًا لسماع أخبار سيئة. كان حدسه الشاعر بالإنذار مؤكدًا بحيث إنها لم تكد تتفوّه بكلمة واحدة حتى بادرها بقوله:

ـ هل حدث أي سوء لبيير؟

هزّت رأسها موافقة بسرعة.

ـ لا بد أنه مريض جدًا. إن تصرفاته غريبة، وهو الآن قد عاود التقيؤ. لا بد أن تذهب لإحضار الطبيب.

كانت عيناها وهي تكلمه تجولان خلال المرسم الواسع حتى استقرَّتا على اللوحة الأخيرة. لم تر الأشخاص، ولم تتبين حتى بيير الصغير، حدقت فقط في قماش اللوحة وهي تتنفس هواء ذلك المكان حيث يعيش زوجها منذ سنين عديدة. شعرت بضجر من محيط الوحدة الكئيب، والاكتفاء الذاتي المناقض لذلك الذي تحيا فيه منذ أمد طويل. عقب ذلك الانطباع اللحظي، نقَّلت بصرها عن اللوحة وحاولت أن تجيب على أسئلة زوجها المتكررة؛ قال أخيرًا: "فليجهزوا السيارة، سيكون ذلك أسرع من عربة الأحصنة. سأذهب بنفسي إلى المدينة. دعيني أغسل يدي. سآتي على الفور. هل وضعته في السرير؟"

وبعد ربع ساعة فقط كان قد وصل المدينة الصغيرة يبحث عن طبيبها الوحيد الذي يعرفه، والذي سبق له أن زار البيت مرتين منذ سنوات. ذهب فرغوث إلى عنوانه السابق، فتبيّن أنه قد انتقل إلى مكان آخر، وفي طريقه إلى العنوان الجديد، مر بعربة الطبيب، فحياه الطبيب ورد عليه وكان قد تجاوزه، فانتبه إلى أن هذا الرجل هو من يبحث عنه. عاد إليه ووجد أن عربة الطبيب قد مالت نحو بيت أحد المرضى. وبعد انتظار طويل بغيض، لمح الطبيب عند الباب فحثه على الجلوس في السيارة. رفض الطبيب وامتنع، لكن فرغوث أوشك أن يستخدم القوة.

وفي السيارة التي انطلقت صوب روزهالده بسرعة فائقة. وضع الطبيب يديه على ركبتيه وقال:

ـحسن جدًا، إنني سجينك. وعلى الآخرين الذين يحتاجونني أن ينتظروا. أنت تعرف ذلك. والآن، أخبرني ما المشكلة، هل زوجتك متعبة؟ لا؟ الولد الصغير، إذن؟ ما اسمه، ثانية؟ آه، نعم، بيير. لم أره منذ فترة طويلة. ما الذي أصابه؟ هل حدثت له حادثة؟

ـإنه مريض منذ الأمس. بدا اليوم في الصباح بخير، فقد نهض وتناول فطوره. لكنه شرع يتقيأ مرة ثانية، ويبدو أنه يعاني من الألم.

مرر الطبيب يده على وجهه ذي الذكاء المنفر:

ـلا بد أنها معدته. سنرى. هل كل شيء آخر كما يرام؟ لقد رأيت معرضك في ميونخ الشتاء الماضي. نحن فخورون بك يا صديقي.

نظر في ساعته. كانا صامتين حين زادت سرعة السيارة بسبب انحدار الطريق صار صوت المحرك أعلى من ذي قبل. وصلا سريعًا وغادرا السيارة عند البوابة التي لم تكن مفتوحة.

طلب الطبيب من السائق أن ينتظره، وعبرا الفناء مسرعين. دلفا إلى المنزل. كانت فراو إيدل تجلس بجوار سرير بيير.

أخذ الطبيب يفحص الطفل على مهل محاولًا أن يحثه على الكلام، وباحثًا عن كلمات مطمئنة يسري بها عن الأم، خالقًا بذلك جوًا من المهنية الواثقة التي خففت قليلًا مما يثقل على فرغوث.

لم يكن بيير مطيعًا، ظل صامتًا، مستوحشًا وغير مطمئن ولا واثق بالطبيب. عندما جسَّه الطبيب وضغط على بطنه، رمقه الطفل بنظرة ساخرة، كما لو أنه يرى في كل ذلك سخفًا وعبثًا لا جدوى منها.

قال الطبيب متيقنًا:

ـالتسمم مستبعد. ولا شيء خطأ في الزائدة الدودية. من المحتمل أن معدته متوعّكة، وأفضل شيء لذلك هو أن ننتظر ونرى. لا طعام. ولا تعطوه أي شيء اليوم باستثناء القليل من الشاي إن شعر بعطش، وهذا المساء يمكنه أن يتناول جرعة من البورد يوكس. إذا شعر بتحسن، أعطوه شايًا وقليلًا من الخبز المحمص للإفطار. وإن شعر بألم، اتصلوا بي.

ولم تسأل فراوفرغوث عن شيء حتى غادروا الغرفة، فراحت تسأل دون أن تحصل على أي معلومات إضافية.

ـ معدته تبدو متعبة تمامًا، ومن الواضح أن الصغير حساس ومتوتر. لا أثر للحمى. يمكنكم قياس حرارته هذا المساء. نبضه ضعيف قليلًا. إن لم يتحسن، فسأعود غدًا. لا أظن أن الأمر يدعو للقلق.

ودَعهم، وخرج سريعًا. رافقه فرغوث إلى جوار السيارة، وسأله في اللحظة الأخيرة:

ـ هل يمكن أن تدوم حالته طويلًا؟

ضحك الطبيب ضحكة خشنة، ورد:

ـ ما كنت أتوقع أن أراك قلقًا هكذا. الطفل جد رقيق، ونحن جميعًا نعاني من توعكات المعدة ونحن أطفال. صباحًا سعيدًا.

كان فرغوث يعرف أنه لن يُحتاج إليه في المنزل، فراح يتمشى مهمومًا صوب الحقول. لقد طمأنته كلمات الطبيب وتصرفه، وقد استغرب الآن كيف أنه قد قلق وانزعج بسبب ذلك. وبشعور بالارتياح، أخذ يتمشى طويلًا مستمتعًا بدفء الصباح العميق الزرقة. بدا له أن تجواله ذاك هو تجوال الوداع لهذه المروج ولصفوف أشجار الفاكهة، وشعر بسعادة سلبية وحرية عابرة لهذه الخاطرة. تعجب مما حرك لديه هذا الشعور الجديد، هل هو القرار الذي توصل إليه والحل الذي يلوح في الأفق! وفي الحال تبيّن أنه نجم عن حديثه مع فرو إيدل صباح ذلك اليوم. لقد حدثها عن خطط سفره، واستمعت هي بهدوء تام ولم تحاول أن تعترض، وقد أغلق هو كل المنافذ والأعذار التي يمكن أن تحول دون تنفيذ هذا القرار، والمستقبل القريب يمتد الآن واضحًا بيّنًا للعيان أمامه كل ذلك كان مرضيًا له، مصدر سلام وثقة بالنفس جديدة.

ومن دون أن يعرف له وجهة محددة في تجواله، استدار ماشيًا في الطريق الذي قطعه مع صديقه بركهارت قبل أسابيع. ولما أخذ الطريق في الارتفاع، تبيَن لحظتها أين هو وتذكر تجواله مع أوتو. لقد ود أن يصور في الخريف أقواس السماء في ذلك الأفق البعيد بجانب الجبل، والمقعد والممر الغامض المعتم قليلًا، الذي يفضي من خلال الأشجار إلى وادٍ أزرق، صاف واضح المعالم هناك في البعيد كما لو كان لوحة مؤطرة؛ لقد فكر أن يُجلس بيير على ذلك المقعد، جاعلًا وجهه الطفولي المشرق يستقر برقة في ضوء الغابة الشفيف الرائق.

وفي تشوقه للتطلّع فيما حوله، وإعطاء نفسه مهلة أكبر للتفكير، أخذ يصعد غير مدرك لحرارة الظهيرة، ولما كان ينتظر اللحظة التي يريد أن يرى فيها حافة الغابة عند قمة الجبل، استعاد اليوم الذي قضاه مع بركهارت متذكرًا أحاديثه مع صديقه وكلماته المعينة، وتذكر أيضًا المنظر الطبيعي الأخضر في أوائل الصيف الذي صار الآن أكثر عمقًا واعتدالًا.

عاوده شعور لم يعهده منذ فترة، وذكره ظهوره المباغت الحاد بشبابه. لأنه بدا له منذ تلك الجولة في الغابة مع أوتو أن وقتًا طويلًا قد انقضى، وأنه هو نفسه قد كبر، قد تغير وبلغ مرحلة لم يعد يستطيع معها أن يرى نفسه في تلك الحالة بالذات الداعية للإشفاق والسخرية.

اندهش من هذه المشاعر الممتلئة بالحيوية والنشاط التي كانت تمثل جزءًا من حياته اليومية قبل عشرين عامًا، وها هي الآن تداعبه بسحر نادر، استعاد ذكريات الصيف القصير واكتشف شيئًا لم يكن معروفًا له حتى يوم أمس. لقد وجد وهو يستعيد أيام الثلاثة الأشهر الماضية، أنه قد تحوّل؛ ها هو ذا اليوم يجد وضوحًا وشعورًا باليقين الطريق الذي يمتد أمام عينيه، بينما لم يكن يجد منذ وقت قصير غير الظلمة والحيرة. بدا له وكأن حياته صارت ثانية جدولًا رائقًا شفافًا أو نهرًا يتدفق بثبات نحو وجهته المحددة، في حين أنه كان قبلًا قد ركد في مستنقع الحيرة والتردد. والآن صار واضحًا لديه أن رحلته لن تعود مرة ثانية إلى هذا المكان، وألا شيء بقي له هنا ليفعله سوى أن يغادر، ربما بقلب نازف، نعم، لكن ما هم. إن حياته أخذت تتدفق من جديد، شاقة طريقها بثبات تجاه الحرية والمستقبل. ومع أنه لم يكن مدركًا لها جيدًا، فإنه قد عزم في دخيلته، وقطع نفسه من المدينة والريف، من روزهالده ومن زوجته.

توقف تمامًا، وأخذ يتنفس بعمق، مغمورًا وطافيًا فوق موجة من الوضوح التام. فكّر ببيير فوخز ألم حاد ضار كيانه كله حين ظهر له اليقين بأن عليه أن يسير في هذا الطريق إلى نهايته وينفصل أيضًا عن بيير.

مكث هكذا لفترة طويلة، كان الألم يقبض وجهه، وإذا كان ما شعر به من ألم لاهب، فهو الحياة والضوء، الوضوح وإحساس المستقبل. هذا ما كان أوتو بركهارت قد أراده منه. تلك هي الساعة التي كان ينتظرها صديقه. لقد فتحت في الأخير تلك الهواجس التي ظل يخاف أن يلمسها عملية مؤلمة ألمًا مريرًا، بيد أنه وقد وعد بالتخلي عن أمانيه السارة، عن قلقه

وعزلته، فإن صراع وشلل روحه قد تلاشيا إزاء أحلامه وأمانيه. لقد طلع ضوء النهار حوله، ضوء مشرق قاس، ضوء نهار جميل برّاق.

صعد أعلى الخطوات الأخيرة إلى قمة التل مهتاج العاطفة، جلس على المقعد الحجري المظلل وقد غمره شعور عميق بالحياة كما لو أن شبابه قد رجع إليه، وفي غمرة شعوره بالامتنان لهذا التحرر، تذكر صديقه البعيد، الذي بدونه ما كان ليجد طريقه، وبدونه كان سيهلك في البلادة والأسر المريض.

لكنه لم يكن من طبيعته أن يصرف وقتًا طويلًا في التأمل، أو في الاحتفاظ طويلًا بمزاج متطرف ما. وجنبًا إلى جنب مع شعوره بأنه استعاد صحته وإرادته، اجتاح كيانه كله إدراك جديد بالحيوية والقوة الشخصية المهيبة.

نهض، وفتح عينيه، وتطلّع بتوق شديد كما لو أنه يريد أن يستولى على لوحته الجديدة. حدّق طويلًا في ظلال الغابة وفي الوادي اللامع الممتد بعيدًا في الأسفل. ذلك هو ما أراد أن يرسمه. ها هي ذي مهمة صعبة تتحداه وعليه أن يقهرها، صعوبة بالغة، لغز نفيس عليه أن يحله، هذا الممر الرائع عبر الغابة لا بد أن يُرسم بحب وعناية أحد الفنانين البارعين، ألتدروف) أو دورر كانا سيشتغلان عليه. إن التحكم بالضوء وتناغمه لن يكون كافيًا، كل شيء دقيق لا بد وأن يُعطى حقه كاملًا ليكون دقيقًا رائعًا ومتناسقًا مثل أوراق الأعشاب في باقة أمه الرائعة من الزهور البرية. هذا الوادي اللطيف البهي هناك في البعيد لا بد أن يُمد في الخلف بشكل مضاعف بالدفء المنبعث من ضوء الخلفية وبظلال الغابة، لا بد أن يُجعل لامعًا يتلألأ كجوهرة من أعماق اللوحة، لطيفًا وعذبًا، غريبًا وساحرًا.

نظر إلى ساعته. إنه وقت العودة إلى البيت، فهو لا يريد أن يبقي زوجته اليوم تنتظر. لكنه، أولًا، أخرج كراسة التخطيطات الأولية، ووقف في شمس الظهيرة عند حافة التل ووضع الخطوط الكبرى في اللوحة بضربات بينة واضحة واثقة، راسمًا الخطوط التصويرية الأساسية والشكل البيضاوي الواعد للمشهد الصغير المتلألئ في البعيد.

لقد تأخر في العودة. وغير آبه بالحر، أخذ يحُثُّ خطاه في الطريق الشديد الانحدار. فكر بمواد اللوحة التي سيحتاجها وقرر أن ينهض مبكرًا في صباح اليوم التالي لكي يرى المنظر في ضوء الصباح الأول. ابتهج قلبه لفكرة أن أمامه مهمة صعبة تنتظره من جديد. دخل المنزل، وكان أول سؤال تفوه به فور وصوله هو: "كيف هو بيير؟"

كان الطفل مستلقيًا متعبًا. أجابته فراو إيدل:

ـ لا يبدو أنه يعاني من ألم ما، بل يرقد صابرًا في سريره. وظنت أن من الأفضل ألا يزعجه أحد، إذ يبدو في أشد حالاته غرابة، فهو يبدأ في التذمر والشكوى بمجرد أن ينفتح الباب أو أن يسمع أي صوت غير متوقع.

هزّ رأسه مجيبًا:

ـ أوه، إذن، سآتي لرؤيته فيما بعد، قبل حلول المساء. معذرة لتأخري قليلًا. لقد ذهبت في جولة. سوف أبدأ الرسم في الخارج في الأيام القليلة القادمة.

كان غداء هادئًا لطيفًا. كانت النوافذ مفتوحة، والغرفة مضاءة بالضوء الأخضر الداكن، وكان يسمع صوت مياه النافورة المتساقط آتيًا من الفناء في سكينة الظهيرة. سأل ألبرت:

ـ عليك أن تعد نفسك للسفر إلى الهند. هل ستأخذ معك عدة الصيد؟

ـ لا أظن ذلك. لدى بركهارت كل شيء. وسيخبرني ماذا آخذ. أعتقد أن عدة الرسم يجب أن تُحزم في صناديق رصاصية مختومة.

ـ وهل سترتدي قبعة مدارية؟

ـ بالطبع، لكني أستطيع شراء واحدة أثناء الرحلة.

غادر ألبرت المائدة بعد أن فرغ من طعامه. وطلبت فراو أيدل من زوجها أن يبقى قليلًا. جلست في مقعدها الخيزراني قرب النافذة وحرّك هو كرسيًا ذا ذراعين قريبًا منها.سألت:

ـ متى ستغادر؟

ـ أوه، هذا يتوقف كلية على أوتو، فهو من سيحدد الوقت المناسب. لكني أعتقد أن ذلك ربما يكون في أواخر سبتمبر.

ـ قريبًا جدًا. لم أجد بعد الوقت الكافي للتفكير بكل شيء، لقد كنت مشغولة جدًا ببيير. لكن فيما يتعلق ببيير، فأنا لا أعتقد أنك يجب أن تطلب الكثير مني.

ـ أنا أوافقك. لقد فكرت بالأمر هذا الصباح. أنا أرى أنك يجب أن تشعري بالحرية الكاملة. أعرف أنه من غير العدل أن أذهب للطواف حول العالم ثم أحاول أن أفرض عليك توصياتي في شؤونك الخاصة. عليك أن تفعلي ما ترينه صوابًا، لا يوجد أي سبب أبدًا يمكن أن يجعلك أقل حرية مما أطلبه لنفسي من حرية.

ـ وماذا بشأن المنزل؟ لا أود أن أبقى هنا وحيدة، إنه بعيد جدًا عن الطريق، وكبير جدًا، بالإضافة إلى أنه مليء بالذكريات المنغصة.

ـ لقد أخبرتك سلفًا، اذهبي حيثما أردت. روزهالده لك، أنت تعرفين ذلك، وقبل أن أغادر سأكتب لك ورقة بهذا، من باب الاحتياط.

شحب وجه فراو إيدل. تطلّعت في وجه زوجها بنظرات تنم عن العداء. وقالت بنبرة حزن:

ـ إنك تبدو وكأنك لا تنوي أن تعود.

طرف بجفنه مفكرًا ثم نظر إلى الأرض:

ـ من يدري، ليست لدي فكرة عن المدة التي سأقضيها، وأنا بالكاد أعتقد أن جو الهند سيكون صحيًا لرجل في مثل عمري.

هزّت رأسها مؤكدة:

ـ ليس هذا هو ما أقصده. فكلنا سنموت، ما أعنيه هو هل لديك أية نية للعودة؟

طرف بجفنيه، ولم يقل شيئًا. وبعد برهة، ابتسم ابتسامة واهنة ونهض قائلًا:

ـ لنتحدث عن ذلك في وقت آخر. لقد كان آخر جدال بيننا بسبب هذه المسألة، قبل بضع سنوات، هل تتذكرين؟ أنا لا أرغب في المزيد من المماحكات هنا في روزهالده، وبالذات معك أنت. وأظن أنك لا زلت تتمسكين بنفس وجهة نظرك السابقة في الموضوع. أم أنك ستدعيني آخذ بيير هذه المرة؟

هزّت فراو فرغوث رأسها رافضة في صمت. فقال زوجها بهدوء:

ـ بالضبط، كما ظننت. ولذلك فمن الأفضل أن ندع هذه الأمور ترقد بسلام. كما قلت لك؛ بإمكانك أن تتصرفي بالمنزل كما تشائين. أنا لا ألقي بالًا لأهمية الاحتفاظ بروزهالده؛ إن قدّم لك أحد سعرًا مقبولًا للمكان بكامله، فلم لا تبيعينه؟

قالت بنبرة مرارة عميقة:

ـ إذن، هذه هي نهاية روزهالده.

وتذكرت الأيام الماضية، عندما كان ألبرت رضيعًا، وتذكرت كل آمالها وتوقعاتها. التفت فرغوث الذي كان قد توجه نحو الباب، وقال بلطف:

ـ لا تأخذي المسألة على هذا النحو الأليم، يا عزيزتي. احتفظي به إن شئت.

خرج، وفك رباط الكلب. قفز الحيوان المتهلل وأخذ ينط حواليه وينبح في طريق المرسم. ما الذي يعنيه روزهالده بالنسبة له؟ إنه أحد الأشياء التي سيخلفها وراءه. الآن، وللمرة الأولى، شعر بأنه أقوى من زوجته. لقد رسم خطأ. وفي قلبه قدم القربان، لقد تنازل عن بيير. وفي الوقت الذي فعل ذلك، فإن كيانه كله راح ينظر إلى الأمام. روزهالده بالنسبة له، انتهى، انتهى مثله في ذلك مثل الكثير من الآمال المجهضة للأيام السالفة، انتهى كما انتهى شبابه هو. ولا جدوى من الأسف أو النواح بشأنه.

رن الجرس، فأقبل روبرت فقاله له:

ـ سأنفق الأيام القادمة في الرسم خارجًا. أرجو أن تجهز صندوق الرسم الصغير والمظلة للغد. وأيقظني في الخامسة والنصف.

ـ بالتأكيد، يا سيد فرغوث.

ـ هذا كل ما في الأمر. أعتقد أن الطقس سيضل على حاله؟ ما رأيك؟

ـ أظن أنه سيكون مناسبًا... لكن، معذرة، يا سيد فرغوث، أريد أن أسألك عن أمر ما.

ـ تفضل؟

ـ أرجو المعذرة، لكني سمعت أنك ذاهب إلى الهند.

ضحك فرغوث مندهشًا:

ـ لقد انتشر الخبر بسرعة فائقة. إذن، فقد أشاع ألبرت الخبر، حسنًا، نعم، سأذهب إلى الهند، ولن تستطيع أنت، يا روبرت أن تأتي معي، بالتأكيد. يؤسفني ذلك. لا يوجد خدم أوربيين هناك. لكنك تستطيع أن تأتي إليّ متى شئت. أما خلال إقامتي في الهند، فسأجد لك مكانًا أفضل يناسبك. وبطبيعة الحال فإن أجورك ستدفع حتى عيد رأس السنة.

ـ أشكرك، يا سيد فرغوث، أشكرك كثيرًا جدًا. أنت ستعطيني عنوانك، إني أريد أن أكتب إليك. أنت تعرف إنه ليس من السهل عليّ أن أقول.. أنت تعرف أن لي خطيبة، يا سيد فرغوث.

ـ أوه، لك خطيبة؟

ـ نعم، يا سيد فرغوث، وإذا أنت صرفتني فإن عليّ أن أتزوجها. أنت تعرف، لقد وعدتها ألا أخذ وظيفة أخرى إن أنا تركت العمل معك.

ـ حسنا، إذن. سوف يسعدك أن تغادر هذا المكان. إن ذلك ليحزنني، يا روبرت. ما الذي ستفعله عندما تتزوج؟

ـ إنها تريد أن تفتح معي دكانًا لبيع السجائر.

ـ دكان سجائر؟، هذا لا يناسبك، يا روبرت.

ـ لا ضير في التجربة، يا سيد فرغوث. لكن، أرجو المعذرة.. أليس ممكنًا أن أظل أعمل لديك، يا سيد فرغوث؟

ربت الرسام على كتفه، وقال:

ـ يا إلهي! ما بك يا رجل؟ ما الأمر؟ أنت تريد أن تتزوج، وتريد أن تفتح دكانًا سخيفًا، وتريد أن تظل تعمل معي أيضًا؟ إن في الأمر شيئًا.. لدي انطباع، يا بروبرت. أنك لست متحمسًا كثيرًا لهذا الزواج؟

ـ لا، يا سيد فرغوث، أرجو المعذرة، لست متحمسًا. إن خطيبتي عاملة جيدة، لا أنكر ذلك. لكني أفضل البقاء معك. إن لديها تطلعات ذكية، و..

ـ لكن، يا صديقي العزيز، ولماذا تتزوج، إذن؟ هل أنت خائف منها؟ ليس هناك طفل، أرجو ذلك؟

ـ لا، ليست هذه هي المسالة. إنها لا تترك لي أي سلام.

ـ في هذه الحالة، أعطها دبوس زينة جيدًا، وسأسهم أنا بإعطائها طالر.. اعطه خطيبتك وأخبرها أن تذهب للبحث عن شخص آخر لدكان سجائرها. قل لها أني قلت ذلك. عليك أن تخجل من هذه الحماقة. سأعطيك فرصة أسبوع. وبعد ذلك أريد أن أعرف إن كنت ذلك الرجل الذي لا يخاف من مجرد فتاة أم لا.

ـ حسنًا، حسنًا، سأخبرها..

كف فرغوث عن التبسم. كانت عيناه مغضبتين من روبرت الخانع. وقال له:

ـ سترسل الطرد لتلك البنت، يا روبرت وإلا فإني وإياك..، كيف تسمح لنفسك أن تُجر إلى المذبح! اذهب الآن. وتأكد من أن هذه المسألة حلت سريعًا بشكل حاسم.

ملأ غليونًا وأخذ معه كراسة تخطيطات كبيرة وحقيبة ملأى بالفحم النباتي وخرج متوجهًا صوب التل في الغابة.

14

لم يظهر أن الصيام كان ذا نفع. ظلّ بيير راقدًا متكورًا في سريره، وكأس شايه لم يمس. وبقدر الإمكان، تركه الآخرون في سلام؛ لأنه لم يُجب أحدًا ممن تحدث إليه بكلمة واحدة، وارتدّ بعصبية كلما دخل أحد إلى الغرفة. أحيانًا تجلس أمه إلى جوار سريره نصف متمتمة، نصف مغنية ببعض كلمات الرقة. شعرت بقلق غريب، إذ بدا لها أن المريض الصغير يحصن نفسه بعناد خلف حزن سري دفين. لم يكن يجب على أي سؤال أو رجاء أو اقتراح، بل كان يحدّق باكتئاب في الفراغ من دون أن يُظهر أية رغبة في النوم أو اللعب أو الشرب أو في أن يقرأ له أحد شيئًا. جاء الطبيب في يومين آخرين، ولم يتحدث إلا بكلمات قليلة موصيًا بكمادات الماء المعتدل. ومعظم الوقت، يقضيه بيير راقدًا نصف نائم وتعتريه حالات الحمى فيردد همهمات واهية غير مفهومة أشبه بهذيان النائم.

أمضى فرغوث عدة أيام يرسم في الخارج. وعندما كان يعود عند الغسق، كان يسأل عن الولد، وطلبت زوجته منه ألا يدخل غرفة المريض بحجة أن بيير يتحسس بشدة تجاه أدنى إزعاج وأنه الآن يبدو وكأنه قد غفا. ولما كانت فراو إيدل قليلة الكلمات، ولما صارت منذ محادثتهما الأخيرة تشعر بعدم الارتياح بحضوره، فلم يوجه من جانبه مزيدًا من الأسئلة، بل مضى بهدوء للاستحمام. أمضى المساء في توتر دافئ سار، عادة ما يشعر به حين يعد نفسه لعمل جديد.

لقد رسم عدة تصورات للوحة، وراح يخطط للانقضاض على رسم اللوحة نفسها في اليوم التالي، اختار الألواح والقماش مقتنعًا، وشد بعض البقع المرتخية في القماش عند الزوايا، وجمع الفراشي وأنواع الألوان، وزود نفسه بكل ما يحتاج إليه كما لو أنه ذاهب لرحلة قصيرة، حتى لقد ملأ وعاء التبغ، وأخذ الولاعة والغليون وكأنه سائح يخطط أن يتسلّق جبلًا في الصباح ولا يعرف طريقة أفضل لقضاء الساعات المتوقعة قبل النوم من إنفاقها في التفكير بمحبة بقدوم اليوم التالي، معدًا كل صغيرة وكبيرة سيحتاج إليها.

وأخيرًا جلس يحتسي كأسًا من النبيذ منتظرًا وجبة العشاء. وصلته رسالة عاطفية سارة من بركهارت، الذي، بدقة ربة بيت ممتازة، أعدّ قائمة دقيقة بكل شيء يجب على فرغوث أن يأخذه معه في رحلته. قرأ فرغوث القائمة مندهشًا من أنها لم تهمل لا رباط الخصر القطني

ولا الشبشب ولا لباس النوم أو أغطية الساقين. وفي ذيل الرسالة، كتب بركها رت بالقلم الرصاص "عليّ أن أفكر ببقية الأشياء الأخرى، بما في ذلك قمرتينا في السفينة. لا تصدق أي أحد قد ينصحك بشراء الأدوية الكيماوية أو أي كتب عن الأدب الهندي. سوف أتولى ذلك أنا نفسي.

التفت باسمًا إلى كرتون مقوى من المحاليل الكيماوية التي تستخدم لحفر أكليشات أرسله له الفنان الشاب دوسلدرف مع إهداء لطيف ينمّ عن الاحترام البالغ. وجد اليوم فرصة لتفقد هذه المسائل، إذ كان في مزاج موات لذلك، فحص المحاليل بعناية واختار أفضلها ووضعها في حقيبة، ورأى أن يعطي البقية لألبرت. كتب ورقة قصيرة وديّة يشكر فيها الرسام.

وأخيرًا، فتح كراسة تخطيطاته وراح يدرس على مهل الرسوم الكثيرة التي أعدها. لم يكن راضيًا بأي منها، سوف يحاول ثانية في الغد وهو يلقي المزيد من النظر على المنظر، وإذا كانت اللوحة غير صحيحة بعد، فسيواصل رسم المزيد من التخطيطات الأولية حتى يظفر بواحدة ترضيه. وفي كلّ الأحوال، فإنّ عليه أن يعمل بجد غدًا، وما عدا ذلك فإن كلّ شيء سيتولى شأن نفسه. وستكون هذه اللوحة هي لوحة الوداع لروزهالده، ولا بد أن تكون، من دون ريب، أعظم الأعمال تعبيرية عن المنطقة، وهو يأمل أن ذلك لن يأتي من فراغ، فهو لديه الوقت والدافع والتحدي لرسمها.

إن هذا هو الموضوع الذي لا يمكن أن يُنجز بتخطيط عابر، إنه يحتاج إلى إظهار انعكاس دقيق عميق. وفيما بعد، في المناطق المدارية، سيتلذذ ثانية بمغامراته السريعة في رسم الطبيعة بكل ما تشتمل عليه من صعوبات وتحديات وهزائم وانتصارات.

أوى باكرًا إلى سريره ونام نومًا عميقًا حتى أيقظه روبرت. نهض بعجلة وسرور مرتعشًا في هواء الصباح اللافح، شاربًا القهوة واقفًا، وحاثًا روبرت على الاستعجال. وكان على هذا أن يحمل اللوحة، وكرسي المخيم وصندوق الألوان. وبعد وقت قصير، غادر المنزل يتبعه روبرت، وغابا في مروج الصباح الشاحب. ودَّ أن يطلّ على المطبخ ليتأكد إن كان بيير قد قضى ليلة هادئة، لكنه وجد المنزل مغلقًا وما من أحد مستيقظ بعد.

وقضت فراو إيدل قسطًا من الليل جالسة بجوار الطفل الذي غشيته حمى خفيفة. استمعت إلى تمتمته المبهمة، وجسَّت نبضه وسوّت سريره. ولما ردت عليه تحية المساء وقبّلته، فتح عينيه ونظر في وجهها ولم يقل شيئًا. وكانت الليلة هادئة.

وفي الصباح كان بيير مستيقظًا حين دلفت أمه إلى الغرفة. ولم يرد فطورًا، بل طلب كتاب صور، فذهبت أمه لتحضر واحدًا. دست وسادة أخرى تحت رأسه وحركت قليلًا الستائر جانبًا، ووضعت الكتاب بين يدي بيير؛ كان مفتوحًا على صورة طالما كان يعجب بها خاصة، وتظهر السيدة الشمس الذهبية الصفراء كبيرة متوهجة. رفع الكتاب قريبًا من وجهه فسقط ضوء الصباح البهيج على الصفحة. غير أن ظلال ألم سوداء وشعور بخيبة أمل سرعان ما غلفا وجهه الحساس. صرخ بتوجع:

ـآخ! إنها تؤلم!

وترك الكتاب يسقط. أمسكته أمه وقربته من عينيه مرة ثانية، قائلة ترجوه:

ـ لكنها السيدة الشمس التي تحبها بشغف.

غطى عينيه براحتي يديه، وصاح:

ـ لا، أبعديها عني، إن بها صفرة تثير الاشمئزاز!

تنهدت وأبعدت الكتاب. ما الذي حدث للطفل! إنها تعرف أمزجته وتحسساته، لكنه لم يكن على هذه الحالة على الإطلاق.

قالت بأمل:

ـ عندي فكرة، هب أنني أعطيتك كأس شاي لطيف ويمكنك وضع السكر فيه وتتناول قطعة صغيرة من الخبز المحمص..

ـ لا أريد شيئا!

ـ فقط، حاول، سوف يفيدك ذلك، سوف ترى.

نظر إليها نظرة معذبة مرعبة، وقال:

ـ لكني لا أريد!

غادرت الغرفة ومكثت قليلًا خارجها. طرَف بجفنيه في النور، وبدا أنه يؤلمه بأشعته على نحو غير مألوف. استدار، ألن يجد أية راحة مرة ثانية، أية وهلة من السرور، أي قدر ضئيل من البهجة؟ وتذمر ناشجًا، ودفن وجهه في وسادته وعض بغضب قماشها الناعم تافه الطعم. كان فعله هذا صدى من طفولته الباكرة، حيث كان وهو طفل صغير، عندما يوضع في سريره ولا يأتيه النوم بسرعة، قد اعتاد أن يعض وسادته ويأخذ في لوكها بانتظام حتى يتعب وينام. وها

هو ذا الآن يفعل الشيء نفسه مرة ثانية، وببطء أرهق نفسه حتى غاص في نوم صامت شبيه بالإغماء وشعر بتحسن، فاستلقى ساكنًا.

عادت الأم بعد ساعة. انحنت فوقه وقالت: "لطيف، الآن، هل بيير سيكون طفلًا لطيفًا مرة ثانية؟ لقد كنت قبلًا سيئ السلوك، وكانت ماما حزينة."

فيما مضى، كانت مثل هذه الكلمات دواء ناجعًا قويًا، نادرًا ما استطاع مقاومته. ولما قالت الكلمات الآن، كانت قلقة خائفة أن يتأثر بها. وينفجر باكيًا. لكنه لم يبدِ أي اكتراث، وعندما سألته بنبرة قاسية تقريبًا:

ـ أنت تعرف أنك لم تحسن التصرف من قبل!

زم شفتيه بسخرية ونظر إليها بلا مبالاة صريحة واضحة. عندئذ، وصل الطبيب وأخذ يقول مباشرة:

ـ هل تقيأ من جديد؟ لا؟ طيب. وقد قضى ليلة جيدة؟ ماذا تناول من طعام في الصباح؟

وعندما رفع الطفل في سريره وأدار وجهه نحو النافذة، جفل بيير بألم وأغمض عينيه. صعق الطبيب من نظرة التحوّل الحادة والعذاب في وجه الطفل سأل فراو إيدل هامسًا:

ـ هل هو حساس أيضًا تجاه الأصوات؟

ردت عليه بهدوء:

ـ نعم، إننا لا نستطيع العزف على البيانو، إذ كان صوته يقوده إلى اليأس.

هزّ الطبيب رأسه، وأغلق الستائر قليلًا. ثم رفع الطفل عن سريره، واستمع إلى نبض قلبه وربت الأوتار تحت رضفتي ركبتيه بمطرقة صغيرة وقال له بود:

ـ هذا كل شيء، لن نزعجك ثانية، يا بني.

وضعه في سريره برفق، وتناول يده وابتسم له. ثم سأل فراوفرغوث بكياسة:

ـ هل يمكنني أن أتحدث معك قليلًا؟

قادته إلى غرفة الجلوس. وهناك قال مشجعًا:

ـ أخبريني الآن المزيد عن ابنك. يبدو لي أنه جد عصبي، وعلينا أن نهتم به أكثر لبعض الوقت، أنت وأنا. إن توعك معدته ليس شيئًا ذا بال. ولا بد أن يبدأ مرة ثانية في تناول

الطعام. الأشياء الجيدة التي ستساعده على استعادة قواه: البيض، الحساء، القشدة الطازجة. حاولي أن تعطيه صفار البيض. والآن، قولي لي، هل لاحظت شيئًا آخر عليه؟

شعرت بالإنذار، لكن الطبيب، ونبرته الواثقة أعادا لها بعض الهدوء. وراحت تحدثه. إن أعظم ما أفزعها من أمر بيير هو لامبالاته؛ بدا لها كما لو أنه لم يعد يحب أحدًا أبدًا. وسواء تحدث معه الشخص بلطف أو بسخرية، فهو لم يعد يلقي بالاً لشيء. وحدثت الطبيب عن كتاب الصور، فهزّ رأسه. قال ناهضًا:

ـ حاولي مداراته إنه مريض في الوقت الحالي، ولا يستطيع أن يحسن سلوكه. دعيه يرتاح قدر المستطاع وإذا كان لديه صداع، ضعي له كمادًا باردًا. وفي المساء دعيه يستحم بماء معتدل أطول مدة ممكنة، فهذا سيساعده على النوم.

استأذن بالمغادرة وحال بينها وبين أن تودعه إلى الأسفل، قائلًا وهو يخرج:

ـ تأكدي من أن تجعليه يأكل هذا اليوم.

وفي المطبخ، سأل عن خادم فرغوث، فطلب الطباخ من الخادمة أن تنادي روبرت قائلًا:

ـ إنه لا بد أن يكون في المرسم.

فقال الطبيب:

ـ لا بأس. سأذهب أنا بنفسي. لا تهتم، أنا أعرف الطريق إلى هناك.

خرج من المطبخ ممازحًا، وفجأة، دهمه الأسى وفكّر بعمق وهو يمضي عبر الممر الذي تظلله أشجار الكستناء.

أخذت فراوفرغوث تفكّر بكل كلمة قالها الطبيب. ولم تستطع أن تستقر على شيء. كان من الواضح أنه شرع يتعامل مع مرض بيير بجدية أكثر من ذي قبل، لكنه لم يقل شيئًا في حقيقة الأمر يدعو إلى القلق، كان هادئًا جدًا، ولم يبد ما يدعو للخوف من وجود أي خطر محتمل. بدا وكأنها حالة ضعف وعصبية ويمكن أن تزول بالصبر والرعاية المطلوبة.

ذهبت إلى غرفة الموسيقى وأغلقت البيانو خشية أن ينسى ألبرت ويبدأ العزف. بل إنها قد فكرت بأي غرفة يمكنها نقل البيانو إليها إن استمرت الحال على ما هي عليه لفترة أطول.

وبعد كل بضع دقائق كانت تذهب لترى كيف هو بيير تفتح الباب بحذر وتصغي لتتأكد إن كان نائمًا أو يتوجع. وفي كل مرة كانت، تجده مستلقيًا صاحيًا، يتطلّع بلا حماس إلى أمامه،

فكانت تنسحب بحزن. كانت تفضل أن ترعاه وقت الخطر والألم على مشاهدته يرقد هناك قريبًا منها جد مكروب ولا مبال؛ بدا لها أنها وهو منفصلان أحدهما عن الآخر بحاجز قوي مخيف ينتصب بينهما على نحو غريب في فضاء الحلم، وأن حبها واهتمامها به غير قادرين على اجتيازه. أو أن عدوًا كريهًا غدّارًا ينصب لها شركًا، لا تعرف عن طبيعة وسر أغراضه شيئًا، ولا تملك أسلحة تدافع بها عن نفسها ضده. لعلّ الطفل يعاني من الحمى القرمزية أو من مرض من أمراض الأطفال الأخرى.

استلقت لدقائق تستريح من عنائها. صدمت عينها مجموعة أكاليل من الفصيلة الوردية. انحنت فوق طاولة الماهوقني، أغمضت عينيها ودفنت وجهها في البراعم الصيفية الناعمة ذات الرائحة العطرة القوية اللطيفة التي كان لها، عندما استنشقتها بعمق، رائحة خفيفة غريبة مرة.

وعندما استوت، سادرة قليلًا، وتركت عينيها تجوسان ببلاهة في الزهور، والمنضدة والغرفة اهتاجت بداخلها موجة حزن قاسية. صحا عقلها فجأة، ونظرت ثانية حولها في الحجرة والجدران والساعة واللوحات فبدا لها كل شيء غريبًا عن الآخر، ورأت السجادة قد لفت، والصور قد حزمت، وكل شيء قد شحن في عربة حيث ستحملها جميعًا، وها هي ذي الآن، بدون بيت أو روح، خارجة إلى مكان جديد، مجهول، لا علاقة لها به. رأت روزهالده يقف فارغًا بأبواب ونوافذ مقفلة وشعرت بكرب الرحيل والحزن يحدقان فيها من صفوف الزهور في الحديقة.

حدث ذلك كله للحظة واحدة. وعاد ذلك الشعور وذهب أشبه بصرخة خفيفة ولكنها ملحة تنبعث من الظلمة مثل خيال قصير متقطع يعكس المستقبل. واستيقظت الفكرة واضحة في وعيها من تخوم العواطف العمياء وهي أنها عما قريب ستصير بلا مأوى مع ألبرت، ومع بيير الصغير المريض، وأن زوجها سيتركها، وأن برودة الهجر القارسة للسنوات القادمة الخالية من الحب ستظل تجثم على روحها إلى الأبد. ستعيش من أجل ولديها، لكنها لن ترى حياتها الجميلة التي أملت أن يمنحها إياها فرغوث مرة ثانية أبدًا، وضاع السر الذي ظلت تخبؤه وتنعم به حتى الأمس واليوم، كل شيء صار الآن متأخرًا، معرفتها تلك المتحررة من الوهم أرعشت قلبها البارد.

لكن طبعها العنيد المكابر لاذ في الحال بالدفاع، فأمامها أيام من الشك والقلق، إن بيير مريض، وعطلة ألبرت على وشك أن تنتهي. لن يجدي هذا، لن يجديها أن تضعف الآن وتصغي لتلك الأصوات الدفينة. فأولًا، لا بد أن يتعافى بيير ويعود ألبرت إلى المدرسة، وسيصير فرغوث في الهند، بعدها، سترى، وسيكون أمامها متّسع من الوقت لتتمرد على قدرها، وتنزف ما بداخلها من دموع. أما الآن، فلا معنى لأي شيء من ذلك، يجب ألّا تسمح به، لا جدال في هذا. وضعت أصيص الورد على عتبة النافذة، وذهبت إلى حجرتها، وصبت الكولونيا في منديلها ومسحت جبينها، وفحصت تسريحة شعرها الصارمة في المرآة، وذهبت بهدوء بخطوات محسوبة إلى المطبخ لتعد لبيير شيئًا يأكله.

وبعدها ذهبت إلى غرفة الطفل، أجلسته غير آبهة باعتراضاته، وبحرص ودون أن تبتسم له، راحت تطعمه صفار البيضة المخفوق. مسحت فمه، وقبلت جبينه، ورتبت سريره، وطلبت منه أن يكون طفلًا ممتازًا ويحاول أن ينام.

لما عاد ألبرت من جولة مشيه، قادته إلى الشرفة حيث كان قماش التظليلة البني المخطط يخفق لهبوب نسيم الصيف. قالت له:

ـ كان الطبيب هنا اليوم ثانية، قال: «إن هناك شيئًا خاطئًا في أعصاب بيير وأنه لا بد وأن يتوفر له أكبر قدر ممكن من الهدوء». إنني آسفة من أجلك، لكن في الوقت الحاضر لا يمكننا العزف على البيانو في المنزل. أعرف أن ذلك سيكون عسيرًا عليك، يا بني. ربما كان من الأفضل لك أن تذهب بعيدًا عن المنزل لبضعة أيام حيث الطقس جميل ممتع، إلى الجبال أو إلى ميونخ؟ والدك لن يعترض مطلقًا.

ـ شكرًا، يا أمي، أنت جد لطيفة. ربما ذهبت ليوم واحد، لا أكثر. لن يكون معك أحد حين يكون بيير في سريره. وفوق ذلك، فإن عليّ أن أبدأ عملي المدرسي. لقد ظللت أبدد الوقت حتى الآن. لو شفي بيير سريعًا!

ـ هكذا هو الولد الطيب، يا ألبرت. إنه حقًا لوقت غير يسير بالنسبة لي، وأنا سعيدة جدًا أنك معي هنا. وعلاقتك بأبيك صارت أفضل مؤخرًا، أليس كذلك؟

ـ آه، نعم، منذ أن قرر أن يرحل بعيدًا. إلى جانب ذلك، فأنا لا أراه إلا نادرًا. إنه يظل يرسم طوال النهار. أنت تعرفين أنني أشعر أحيانًا بالأسف لأنني لم أكن مهذبًا معه، آه، بالطبع هو قد آلمني، لكن فيه شيئًا طالما أثار إعجابي. إنه أحادي الجانب بصورة

مريعة، إنه لا يعرف الكثير عن الموسيقى، لكنه فنان عظيم، وقد وجد حياته في عمله. هذا هو ما يثير إعجابي كثيرًا. إنه لا يظفر بأي شيء من شهرته، ولا حتى بالكثير من أمواله. وهو لا يشتغل من أجل هاتين الغايتين.

قطب باحثًا عن الكلمات. لكنه لم يفلح في التعبير عن نفسه كما أراد، على الرغم من أن مشاعره كانت محددة واضحة. ابتسمت له أمه، ورتّبت شعره ردًا على ما قاله. قالت بلطف وتملّق:

ـ هل نقرأ بالفرنسية الليلة معا؟

هزّ رأسه موافقًا باسمًا. وفي تلك اللحظة، أدهشها أنها كانت قبل وقت قصير تعاني بشكل لا يصدق، تتوسل راجية أن تجد ملاذًا أفضل لتعيش فيه من أجل طفليها.

15

قبل الظهر بقليل ذهب روبرت إلى سيده عند طرف الغابة؛ لمساعدته في حمل أدوات الرسم إلى المنزل. كان فرغوث قد أنهى دراسة تصميمية أخرى للوحة، وقد أراد أن يحملها هو بنفسه. كان يعرف بالضبط كيف ينبغي أن تكون اللوحة الآن، وشعر بالثقة التامة في أنه سينجزها على الوجه الأكمل في أيام معدودة.

صاح يحدث روبرت بابتهاج، طارفًا بجفنيه المرهقتين في هجير الظهيرة:

ـ سوف نأتي هنا ثانية صباح الغد.

فكّ روبرت أزرار سترته عمدًا، وأخرج قطعة من الورق من جيبه الداخلي. كانت ورقة مجعدة غلفت بدون عنوان.

ـ هذه لك.

ـ ممّن؟

ـ من الطبيب. لقد أتى اليوم في الساعة العاشرة، لكني أخبرته أني لا أستطيع أن أستدعيك وأنت تشتغل.

ـ حسنًا فعلت، والآن هيا بنا نعود.

تقدم الخادم بحقيبة الظهر، والكرسي وحامل اللوحات، وتخلّف فرغوث قليلًا، متوقعًا أخبارًا سيئة، فتح الظرف. لم يكن بداخله سوى بطاقة زيارة الطبيب وقد كُتبت عليها رسالة بخط غير واضح وبالقلم الرصاص: "أرجو أن تأتي لرؤيتي بعد ظهر هذا اليوم، إنني أود التحدّث إليك بشأن بيير. عن توعك صحته، لم تكن الحالة غير خطيرة كما ظننت، وقد فضلت ألا أخبر زوجتك. لا تعذب نفسك بالقلق اللامجدي حتى نجد فرصة لنتحدث".

جاهد لمدافعة الرعب الذي هدد بالإطباق على أنفاسه، وأجبر نفسه على المحافظة على هدوئه، وقرأ الرسالة مرة ثانية بتركيز شديد. "لم تكن الحالة غير خطيرة كما ظننت، وقد فضلت ألا أخبر زوجتك" إنّها هي العدو. كانت زوجته من ذلك النوع الرقيق القوي الذي يجب أن يُحمى من كل أذى. بكلمات أخرى، إذ إن الحال سيئة، إنها خطيرة بيير يمكن أن يموت. ومن ناحية أخرى، فالطبيب يتحدث عن.. "توعك الصحة"، هذا يبدو جد بسيط ولا

ضير منه، ثم: "القلق اللامجدي!" لا، لا يبدو أن الحال بهذه الدرجة من السوء. شيء معدٍ، ربما، مرض أطفال، لعل الطبيب يريد أن يعزله، وأن يدخله المستشفى.

صار أهدأ بعد تقليب الأمر. وسار في طريقه ببطء، سواء وهو ينزل من التل أو وهو يمشي بين الحقول في الشمس الحارة. وفي كل حال، فسيفعل ما يطلبه الطبيب، ولن يدع زوجته تلاحظ شيئًا.

إلا أنه عندما وصل، استولى عليه شعور بنفاد الصبر ومن دون حتى أن يجد الوقت الكافي ليضع اللوحة في المرسم، ويغسل، جرى إلى المنزل، وأسند اللوحة على جدا ر في السلم، ودلف بهدوء إلى غرفة بيير. كانت زوجته هناك. انحنى على الطفل وقبل رأسه. وقال:

ـ صباح الخير، يا بيير كيف تشعر؟

تبسم بيير ابتسامة ذاوية. وبعد برهة بدأ يتشمم، وأخذت فتحتا أنفه ترتعشان، فصاح:

ـ لا، لا. ابتعد عني إن رائحتك كريهة جدًا.

تراجع فرغوث مطيعًا إلى الوراء:

ـ إنها رائحة التورنتاين فقط، يا بني، بابا لم يغسل بعد لأنه كان مستعجلًا ليراك. سأذهب حالًا وأغسل وأغير ملابسي وأعود على الفور. موافق؟

غادر المنزل، ملتقطًا في طريقه اللوحة، وكان صوت الطفل الواهي لا يزال يرن في أذنيه.

وهم على المائدة، سأل عما قاله الطبيب، وسُرَّ أن بيير أكل ولم يتقيأ مرة ثانية. غير أنه لا يزال يشعر بالقلق والتوتر، وحاول جهده أن يواصل حديثه مع ألبرت.

وبعد الغداء مكث نصف ساعة مع بيير الذي استلقى بهدوء باستثناء لحظات نادرة أمسك خلالها جبينه بشد ة كما لو كانت تؤلمه . ولاحظ فرغوث بحب قلق فمه الضيق المجهد الواني، والجبين الناصع الوسيم الذي صار فيه تجعدات عمودية ذاوية، متعبة لكنها تجعدات طفولية ستزول حين يُشفى بيير ويستعيد عافيته. لا بد أن يتحسن الصغير ـ ولو أن ذلك سيستغرق وقتًا وسيجعله يعاني معاناة مضاعفة حين يغادر ويتركه، لا بد أن يحيا بما هو عليه من ذكاء ورقة وجمال طفولي، أن يتنفس مثل زهرة في الشمس، حتى لو أن أباه قد ودعه ولن يراه ثانية أبدًا. لا بد أن يُشفى ويصير رجلًا رائعًا لامعًا يتمتع بأنقى وأسمى ما كان يتمتع به جده من حساسية وسمات رفيعة.

تنبأ فرغوث وهو جالس إلى جوار سرير المريض بكل المرارة التي عليه أن يتجرعها قبل أن ينسى كل هذا الذي يحدث الآن. ارتعشت شفتاه وانقبض قلبه من الشوكة العميقة، لكنه عميقًا تحت كل معاناته وخوفه، كان يشعر بقراره صلبًا قويًا وعصيًا على التحطيم. كان يستقر هناك؛ والألم والمعاناة لا يستطيعان قلقلته بعد الآن. نعم، لا زال يتوجب عليه أن يعيش هذه المرحلة الأخيرة، أن يتفادى المعاناة، أن يتجرع كأسه حتى آخر قطرة؛ لأنه في تلك الأيام الأخيرة قد تبيّن بوضوح أن هذه الطريقة في الحياة لا بد وأن تمر بتلك البوابة المظلمة. لو كان جبانًا الآن، لو هرب ونكص من المعاناة، لأخذ معه الوحل والسم حين يغادر، ومن ثم فلن يظفر بالحرية النقية المقدسة أبدًا، وهي التي يتوق إليها، والتي من أجلها كان مستعدًا أن يجلب على نفسه كل عذاب. فليكن، عليه أولاً أن يتحدث مع الطبيب. نهض وهزّ رأسه هزة حانية لبيير)، وغادر الغرفة وخطر له أن يطلب من ألبرت أن يسوقه بالعربة إلى المدينة، ولأول مرة في ذلك الصيف، ذهب إلى غرفته. وطرق الباب بثبات:

ـ ادخل!

كان ألبرت جالسًا بجوار النافذة يقرأ. قفز مندهشًا واتجه صوب أبيه الذي خاطبه:

ـ لي طلب صغير منك، يا ألبرت هل تستطيع أن توصلني بالعربة إلى المدينة؟ نعم؟ هذا لطف منك. إذن، هل ستذهب حالًا وتساعد في تجهيز الحصانين. إني مستعجل. سيجارة؟

ـ نعم، شكرًا لك. سأذهب في الحال للاهتمام بتجهيز الحصانين.

ولم يمض وقت طويل حتى كانا في العربة متجهان إلى المدينة، وقد جلس ألبرت في صندوق القيادة. عند ناصية أحد شوارع المدينة، طلب فرغوث من ألبرت أن يتوقف. استأذن بكلمات مقتضبة، وشكره قائلًا: "شكرًا، ألبرت. إنك تقود العربة بشكل جيد، لقد صرت تتحكم بالفرسين بقبضتيك بإحكام. حسنًا، إلى اللقاء، سأعود إلى البيت ماشيًا فيما بعد."

حث خطاه في شارع المدينة المقفر. كان الطبيب يقيم في حارة هادئة قديمة. وفي ذلك الوقت من النهار المشمس الحار، لا يكاد المرء يلمح روحًا تتحرك في الخارج. تهادت عربة مياه بكسل، ولحقها طفلان راحا يجريان خلفها ممسكين بأيديهما الماء الخارج من رشاشها ضاحكين برش أحدهما وجه الآخر. ومن إحدى النوافذ المفتوحة لغرفة تحت الأرض مع صوت تدريبات عزف ارتجالية على البيانو. لطالما شعر فرغوث بالبغض العميق لشوارع

المدينة المهجورة، وبالذات في فصل الصيف؛ إنها تذكره بأيام شبابه حين عاش في غرفة بائسة رخيصة في شوارع كهذه تفوح من نوافذها وأبوابها المفتوحة روائح الطبخ والقهوة، وتظهر فيها مناظر النوافذ العتيقة، والسجاجيد المنفوضة، والحدائق الصغيرة التي تخلو من الفتنة وتدعو للسخرية.

وبعد الظهر، وسط لوحات مؤطرة باللون الذهبي، في صالة كبيرة، ذات سجادة غليظة أيقظته رائحة محددة تلازم الأطباء، وأرشدته فتاة بمريلة بيضاء ببياض الثلج، بعد أن تطلّعت في بطاقته، إلى غرفة الانتظار حيث جلست عدة نساء وشباب بهدوء على كراسي وثيرة يتطلّعون في المجلات؛ ثم أخذته ـ حسب طلبه ـ إلى غرفة أخرى، حيث رأى أعدادًا كبيرة من المجلات الطبية مكومة على الأرض. لم يجد من الوقت ما يسمح له بالتطلّع فيما حوله حتى عادت الفتاة وقادته إلى مكتب الطبيب.

وهنا جلس فرغوث في كرسي جلدي ضخم في جو نظيف مفعم بالثقة والكفاءة ولامع بالترتيب والدقة. وفي الجهة المقابلة له جلس الطبيب، رجل قصير بملامح رصينة، لم يسمع صوت في الغرفة ذات السقف العالي باستثناء دقات الساعة المنتظمة الحادة، التي يتلألأ زجاجها ومعدنها البراقان.

ـ نعم، يا صديقي، أنا لست مرتاحًا من حالة ابنك، الصداع، الإعياء، عدم الرغبة في اللعب، وغير ذلك! هل حدث هذا فقط في الفترة الأخيرة؟ وهل كان دائمًا شديد الحساسية تجاه الضجيج والأضواء اللامعة؟ وتجاه الرائحة؟ فهمت. وهو يكره رائحة الألوان في مرسمك! نعم، هذا هو. تلك هي الأعراض.

سأل أسئلة كثيرة، وأجابه فرغوث عليها. ومع أنه كان أشبه بالمخدر، فقد كان شديد التركيز، وشعر في أعماقه بالإعجاب باهتمام الطبيب المهذب وطريقته السلسة في الحديث.

وتناقصت الأسئلة ببطء، ثم توقفت طويلًا. وساد الصمت، حوّم الصمت في فضاء الغرفة مثل سحابة. وما من شيء تخلله سوى دقات الساعة الصغيرة الجميلة الحادة.

جفف فرغوث عرق جبينه. شعر أن الوقت قد حان ليسمع الحقيقة، وأدرك من صمت الطبيب الحجري، أنه كان يغرق في خوف صاعق أليم. تلوى متضايقًا كما لو أن باقة قميصه توشك أن تخنقه، وأخيرًا جأر من دون تفكير:

ـ هل المسألة خطيرة إلى هذا الحد؟

رفع الطبيب وجهه الشاحب المرهق، ونظر إليه نظرة باهتة، وهزّ رأسه:

ـ نعم، يؤسفني أن أقول لك ذلك. الحالة سيئة، يا سيد فرغوث.

لم تطرف عينا الطبيب. انتظر بانتباه، رأى كيف شحب وجه الرسام وكيف سقطت يداه. رأى شفتيه ترتخيان وترتجفان قليلًا، وسقط جفناه على عينيه كما لو أنه أغمي عليه. ثم رأى فم الرسام يستعيد ثباته وعينيه تستعيدان بريقهما وكأنما بإرادة جديدة. وبقي فقط امتقاع اللون على حاله. رأى أن الرسام كان مستعدًا للإصغاء حين قال:

ـ ما الأمر، أيها الطبيب؟ لا تبالي بشأني، تكلم. ـ أنت لا تظن أن بيير سيموت؟

قرب الطبيب كرسيه قليلًا، وتحدث بهدوء تام، لكن بدقة متميزة:

ـ هذه مسألة لا يقدر أحد على الإجابة عليها. لكن، إن لم أكن مخطئًا تمامًا، فإن ابنك الصغير مريض بصورة خطيرة.

نظر فرغوث في عيني الطبيب:

ـ هل سيموت؟ أريد أن أعرف إن كنت تعتقد أنه سيموت. هل تفهم.. أريد أن أعرف.

وبدون وعي نهض، وخطا إلى الأمام، وبصورة تقترب من التهديد والوعيد. وضع الطبيب يده على ذراع الرسام. توقف الرسام وعلى الفور غرق في كرسيه خجلان. قال الطبيب:

ـ لا معنى لأن نتحدث هكذا. إن قرار الحياة والموت ليس بأيدينا، كل يوم نواجه نحن الأطباء العديد من المفاجآت. وطالما أن المريض يتنفس فلدينا أمل. أنت تعرف ذلك، وإلا فما الحاجة لنا؟

هزّ فرغوث رأسه موافقًا، وبالكاد سأل:

ـ ما الأمر، إذن؟

سعل الطبيب سعلة خفيفة:

ـ إن لم أكن مخطئًا، فهو التهاب السحايا.

استوى فرغوث جالسًا في ثبات، وردد بهدوء "التهاب السحايا!"، ثم وقف ومد يديه نحو الطبيب وتحدث ببطء وحرص إذ كانت شفتاه ترتعشان وكأنما من شدة البرد:

ـ إذن، هو التهاب السحايا. وهل هذا المرض قابل للشفاء؟

ـ كل مرض قابل للشفاء، يا سيد فرغوث. إن الرجل ليؤخذ إلى سريره بسبب ألم في الأسنان، ثم يموت بعد أيام، ويؤخذ آخر تكون لديه أسوأ الأعراض ثم يشفى ويستعيد صحته.

ـ نعم، نعم، ويستعيد صحته. أنا ذاهب، الآن، يا سيدي الطبيب. لقد تعبت كثيرًا من أجلي. وبكلمات أخرى، التهاب السحايا مرض غير قابل للشفاء؟

ـ يا سيدي العزيز..

ـ اعذرني. لعلك قد عالجت أطفالًا آخرين كان لديهم التهاب الس.. هذا المرض؟ نعم؟ حسنًا! هل أولئك الأطفال لا يزالون أحياء؟

صمت الطبيب..

ـ هل لا يزال اثنان منهم أحياء؟ أو واحد؟

وما من جواب.

تجمد الطبيب، ثم التفت إلى مكتبه وفتح درجًا، وقال بنبرة مختلفة:

ـ ما ينبغي لك أن تستسلم هكذا! هل يشفى طفلك، نحن لا ندري. إنه في خطر، وعلينا أن نساعده بكل ما نستطيع. كلنا يجب أن نساعده، هل تفهم، وأنت أيضًا، أنا أحتاج إليك. سوف أكون هناك في المنزل هذا المساء. على أي حال، سأعطيك دقيق النوم هذا، يمكنك أنت نفسك أن تستخدمه. والآن، اصغ إليّ: لا بد للطفل أن يحظى بالهدوء التام وبالطعام المغذي، هذه مسألة ضرورية. هل ستبقي ذلك نصب عينيك؟

ـ بالطبع، لن أنسى.

ـ إذا كان يعاني من الألم أو التوتر الشديد، فإن الاستحمام بالماء المعتدل أو الكمادات سيساعده. هل لديكم ثلج؟ سوف أحضر وعاء ثلجيًا معي. لديكم أنتم هناك؟ جيد. علينا أن نواصل أملنا، يا سيد فرغوث. لن يجدي أحدًا منا أن نفقد الأمل الآن. علينا جميعًا أن نحافظ على تماسكنا، أليس كذلك؟

رد الرسام بإشارة مشجعة أعادت الثقة للطبيب. أخذه الطبيب إلى الباب قائلًا:

ـ هل تريد أن تستعمل عربتي؟ لن أحتاجها حتى الخامسة.

ـ لا، شكرًا لك، سأمشي.

نزل إلى الشارع الذي كان لا يزال مهجورًا. وكانت تدريبات العزف على البيانو لا تزال متواصلة، تتناهى إلى سمعه من النافذة المفتوحة. نظر في ساعته. لم تنقضِ سوى نصف ساعة فقط، واصل سيره ببطء، شارعًا بعد شارع على نحو دائري جاب به نصف المدينة. خشي أن يغادر المدينة. فهنا، في هذه الأكوام الفقيرة الغبية من منازل هذه المدينة، وروائح العلاج والمرض، فإن الحزن والخوف والموت هي في البيت، مئة شارع بائس مهجور تساعد الإنسان على احتمال كل عبء، فهو لا يكون وحيدًا. أما هناك، فيبدو له، أنه تحت الأشجار والسماء الصافية، ووسط المناجل المغنية. والجنادب الصّارة، فإن التفكير بالحزن والخوف والموت لا بد أن يكون مضنيًا وأكثر مرارة، وعبثية وأشد بأسًا.

وصل البيت مع حلول المساء، كان متعبًا معفرًا مسحوقًا. وكان الطبيب قد جاء، أما فراو إيدل فكانت هادئة وبدا أنها لا تعرف شيئًا.

وعلى العشاء، تحدث فرغوث مع ألبرت عن الأحصنة وفي كل لحظة يكون دوره في الحديث، كان يفكر مليًا باحثًا عن شيء يقوله، وبادله ألبرت الحديث. رأوا أن والدهم جد متعب، وهذا هو كل شيء. لكنه ظلّ يفكر بمرارة ساخرة تقريبًا. "يمكن أن يكون الموت باديًا في عينيّ، ولكنهما لن يلحظاه. هذه زوجتي وهذا ابني! وبيير يموت!". وها هي ذي الأفكار والخواطر تدور برأسه بإرهاق ولسانه الخشبي يحاول تشكيل الكلمات التي لا تهم أحدًا. ثم، خطرت بباله فكرة جديدة: "كلما كانت المأساة أكبر كان ذلك أفضل! عليّ أن أبقى هنا، أرائي وأتظاهر، وأشاهد ابني الصغير المسكين يموت. وإن أنا بقيت حيًا بعد ذلك، فلن يبقى حينها شيء ليحنيني، لا شيء ليؤذيني؛ عندئذ، أغادر ولا أكذب أبدًا ما حييت، ولا أصدق بوجود ما يسمونه الحب أبدًا، ولا أماطل أو أكون جبانًا أبدًا.. عندئذ سأحيا وأعمل، وأمضي، ولن يكون هنالك سلام أو كسل أو قصور".

وبسرور قاسٍ معتم، شعر أن معاناته تحترق في قرارة قلبه، ضارية لا تحتمل، لكنها نقية عظيمة كما لم يسبق له أن جربها من قبل، وفي حضرة اللهب المقدس رأى حياته الصغيرة المخاتلة الموحشة المشوهة تتضاءل إلى محض فكرة تافهة لا أهمية لها.

بهذا المزاج، جلس لمدة ساعة في غرفة المريض النصف معتمة، وقضى ليلة أرقة معذبة في سريره، مسلمًا نفسه بحماس لكربه الرهيب، لا يرغب في شيء، ولا يأمل في شيء كما لو كان

يريد أن تمحقه تلك النار وتحيله رمادًا. فهم ألّا مناص من ذلك؛ وأن عليه أن يتخلى عن أعزّ وأعظم وأطهر ما يمتلكه، وأن يراه يموت.

16

كان بيير يعاني، وأبوه جالس بجواره طوال اليوم. ظلّ الطفل يشكو من صداع متواصل؛ وكان تنفسه متسارعًا وقصيرًا مصحوبًا بأنين يقطع القلب. وفي بعض الأحيان كان جسمه الصغير الناحل يهتز مرتعشًا ارتعاشات قصيرة، متصلّبة مرة ومتقوسة أخرى. ثم رقد لفترة طويلة ساكنًا سكونًا تامًا، وفي الأخير راح يتثاءب تثاؤبًا تشنجيًا، نام بعده لمدة ساعة، وعندما استيقظ، تواصل ذلك التنهّد الحزين المنتظم مع كل نفس.

لم يكن يصغي لما يُقال له، وعندما كانوا ينهضونه قسرًا ويضعون الطعام في فمه، كان يأكل بطريقة آلية لا مبالية. أسدلت الستائر بإحكام، وجلس فرغوث في الضوء المعتم لمدة طويلة ينحني على الطفل يتفقده بانتباه، ملاحظًا بقلب متجمد كيف تخبو كل ميزة حلوة رقيقة من ميزات وجه الطفل الحبيب المألوف الواحدة بعد الأخرى، مرتديًا قناعًا رهيبًا بسمات بسيطة مختزلة لا يمكن أن يقرأ فيها سوى الألم والغثيان والرعب العميق.

ولما كان الطفل يغيب عن وعيه، كان الأب يرى الوجه المتبدّل الملامح يرّق ويستعيد أثرًا من سحره الضائع، وعندما يحدّق بثبات وبكل حماسه المتعطش لحبه من جديد ثمَّ من جديد مرة أخرى حتى يتمكن من طبع هذه الوداعة المحتضرة في ثنايا عقله. وبدا له عندئذ أنه لم يعرف طوال حياته كلها ما هو الحب، أبدًا حتى تلك اللحظات الحرجة.

الوقت طويل، لم تتشكك فراو إيدل بشيء؛ لقد أدهشها توتر فرغوث وذهوله الغريب بالتدريج فقط، وفي الأخير استيقظت لديها الشكوك، لكن أيامًا أخرى انقضت قبل أن تحرز معرفة ما بالحقيقة.

ذا مساء، عندما خرج فرغوث من غرفة بيير سحبته جانبًا بنبرة فظة عدوانية قاسية:

ـ حسنًا، ما الذي عند بيير؟ ما هو؟ أحسب أنك تعرف شيئًا ما.

نظر إليها. وكأنما ينظر من مسافة بعيدة، وقال بشفتين جافتين:

ـ لا أدري؛ يا عزيزتي، إنه مريض جدًا، ألا تلاحظين ذلك؟

ـ إني أدرك ذلك وأراه. وأنا أريد أن أعرف ما هو! إنك تعامله أنت والطبيب كما لو أنه سيموت. ما الذي قاله لك الطبيب؟

ـ قال لي إن حالته سيئة وأن علينا جميعًا أن نوليه رعاية كاملة. إنه نوع من الالتهاب في دماغه الصغير البائس. سنسأل الطبيب غدًا أن يخبرنا بالمزيد.

استندت بدولاب الكتب وحاولت أن تمد إحدى يديها لتمسك بثنايا الستارة الخضراء فوقها. لم تقل شيئًا، وظل هو واقفًا هناك بصبر، كان وجهه شاحبًا وعيناه متقدتين، وكانتا ترتعشان ارتعاشًا خفيفاً، لكنه ظل مسيطراً على نفسه وعلى وجهه ظلّ ابتسامة، وظلال غريبة، من الاستسلام والصبر، والتهذيب.

وببطء تقدمت نحوه. وضعت يدها على ذراعه. وكانت تبدو وكأن قدميها لا تقويان على حملها. همست برقة متناهية:

ـ هل تعتقد أنه سيموت؟

كان فرغوث لا يزال محافظًا على تلك الابتسامة الواهية البليدة في شفتيه، غير أن دموعًا سريعة انهمرت على خديه واكتفى بهزّ رأسه هزًا خفيفًا. ولما ترنّحت وخارت، أمسك بها وحال دون سقوطها وساعدها لتجلس على أحد الكراسي.

قال ببطء وخراقة كما لو أنه كان يردد درسًا سخيفًا قديمًا كان هو قد ضجر منه وفقد صبره بسببه:

ـ نحن لا نستطيع أن نعرف بالضبط. علينا ألا نفقد تماسكنا.. علينا ألا نفقد تماسكنا.

ردد مرة ثانية بعد برهة بطريقة آلية، عندما استعادت قواها، واستوت جالسة مرة أخرى، قالت:

ـ نعم، نعم، أنت على حق.

وبعد توقف قصير:

ـ لا يمكن، لا يمكن!

ونهضت فجأة، كان في عينيها حياة، ووجهها مفعم بالغم والحزن قالت:

ـ أنت لن ترجع، أليس كذلك؟

ثم بصوت عال:

ـ أنا أعرف. إنك ستتركنا.

تبيّن بوضوح أن تلك كانت لحظة لا تسمح بشيء من الزيف. ولذا قال بسرعة وبرودة:

ـ نعم.

أرجحت رأسها وكأنما كان عليها أن تفكر بحرص بالغ من دون أن تقدر على استيعاب كل شيء. لكن ما قالته الآن لم يكن عبارة عن صدى؛ بل فاض دون وعي من قلب لحظة الألم اليائس المعتم، من القلق والقنوط، وغالبًا من الحاجة المبهمة لإصلاح شيء ما، لأن تكون لطيفة مع شخص ما لا يزال سهل المنال ليتقبّل اللطف، قالت:

ـ هذا هو ما اعتقدته. لكن استمع لي يا يوهان، لا يجب أن يموت بيير لا يجب أن ينهار كل شيء مرة واحدة الآن! وهل تدري.. هناك شيء آخر أود أن أخبرك به: إذا شفي، فيمكنك أن تأخذه. هل تسمعني. سيبقى معك.

لم يفهم فرغوث في الحال. فقط بالتدريج أخذ يفهم ما قالته، وتبيّن له أن ما اختصما عليه، ما جعله يتردد ويعاني لسنين عديدة، قد أعطي له الآن وفي وقت جد متأخر.

صعقه ذلك بصورة منافية للعقل لا يمكن وصفها، فهو لم يحصل الآن فجأة على ما حرم منه منذ أمد بعيد فحسب، بل أكثر من ذلك حتى ـ وهو أن بيير قد صار له في اللحظة التي يُتوقع أن يموت فيها. إن هذا بالنسبة له، يعني أن الطفل سيموت مرتين. إنه جنون، مدعاة للسخرية! غريب وبشع بشكل مضحك وسخيف، لحد أنه كان على وشك أن ينفجر في ضحك مرير.

لكنها، بدون شك، عنت ما قالته بجد. كان واضحًا أنها لم تصدق تمامًا أن بيير سيموت حتمًا. لقد كان ذلك منها لطفًا، تضحية هائلة مصحوبة بحماس غريب دفعها إليها إرباك اللحظة الأليمة، لقد رأى مدى معاناتها، كيف كانت شاحبة ورأى أي جهد بذلته كي تقف على قدميها، ما ينبغي له أن يظهر أنه أخذ تضحيتها، وكرمها المتأخر الغريب، على أنه مجرد سخرية قاتلة.

كانت قد وقفت سلفًا، تنتظر كلمة منه. لماذا لم يقل شيئًا؟ هل صدقها؟ أم أنه صار جد غريب إلى حد أنه لن يرغب في قبول أي شيء منها، وحتى هذه التضحية العظيمة التي فعلتها من أجله؟

شرع وجهها يرتجف بخيبة أمل، وفي الأخير استعاد هو سيطرته على نفسه. أخذ يدها، وانحنى، ولامسها بشفتيه الباردتين، وقال:

ـ شكرا لك.

حينئذ خطرت له فكرة ما، وأضاف بنبرة أدفأ:

ـ لكني الآن أريد أن أساعد في الاهتمام ببيير دعيني أجلس معه في الليل.

قالت مؤكدة:

ـ سنتناوب في ذلك.

في تلك الليلة كان بيير هادئًا. وعلى منضدة، تُرك مصباح زيتي صغير مشتعلًا، كان ضوئه الضعيف لا ينير الغرفة كاملة، إذ فقد قدرته في منتصف الطريق إلى الباب بضوئه البني الشاحب. أصغى فرغوث لفترة طويلة إلى تنفس الطفل، ثم استلقى على الأريكة الضيقة التي نقلها إلى الغرفة.

وحوالي الثانية صباحًا، استيقظت فراو إيدل وأشعلت ضوءًا ونهضت. ارتدت منديلها وأمسكت شمعة وذهبت إلى غرفة بيير وجدت كل شيء هادئًا. رمشت جفنًا بيير رمشًا خفيفًا حين سقط ضوء الشمعة على وجهه لكنه لم يستيقظ. وعلى الأريكة رقد زوجها نائمًا متكورًا بكامل ملابسه.

تركت الضوء يسقط على وجهه أيضًا ووقفت قريبًا منه لبضع دقائق. ورأت وجهه مجردًا من التظاهر، بتجاعيده الكثيرة وشعره الرمادي، خديه المرتخيتين وعينيه الغائرتين.

وفكرت بشعور مشوب بالإشفاق والرضا، "هو أيضًا قد صار عجوزا"، وشعرت بإغراء للتربيت على شعره غير المرتب. لكنها لم تفعل. وغادرت الحجرة بصمت.

حين رجعت في الصباح، كان فرغوث مستيقظًا جالسًا منذ وقت طويل جوار سرير بيير. كان فمه ونظرته التي حياها بهما ثابتين ثانية بتصميم وقوة خفية جعلا يغلفانه في الأيام الأخيرة مثل درع.

أما بالنسبة لبيير فإن يومًا سيئًا آخر قد بدأ. قضى معظم الوقت نائمًا بعينين مفتوحتين حتى هبت موجة من الألم فأيقظته. كان يتقلّب في سريره بذعر، شادًا قبضتيه وضاغطًا بهما على عينيه؛ وكان يعلو وجهه أحيانًا بياض الموت، وأحيانًا أخرى يتّقد بالحمرة. ثم أخذ يصرخ بغضب يائس ويرتعش بلا هوادة؛ صرخ طويلًا جدا بصوت معذب أليم حتى أن أباه شحب وانسحق، ولم يعد يطيق البقاء فغادر الحجرة.

أرسل يطلب ا لطبيب الذ ي جاء مرتين في ذلك ا ليوم ، وفي ا لمساء أحضر معه إحد ى الممرضات وبعد ذلك بقليل غاب بيير عن الوعي، طلب من الممرضة أن تذهب لتنام، وبقى الأ ب والأم يرا قبان ا لطفل طوا ل الليل معًا، شاعرين أن النهاية لم تعد بعيدة . لم يتحرّك الطفل، وكان تنفسه قويًا وغير منتظم.

لكن فرغوث وزوجته فكرا بتلك المسرّة حين مرض ألبرت مرضًا خطيرًا، وقاما برعايته معًا. وشعرا معًا أن التجربة المريرة الهامة التي عاشاها آنذاك عندما مرض ألبرت لا يمكن أن تتكرر.

تحدثا إلى بعضهما بلطف وقلق وفي همس عبر سرير المرض الذي يفصل بينهما، لكنهما لم يتفوها بكلمة عن ا لماضي، عن مرض ألبرت إن تشابه ا لحالين صدمهما معًا مثل شبح، إنهما نفسيهما ـ قد تغير ا، لم يعود ا ذينك الشخصين السا بقين اللذ ين كانا معًا ـ كالآ ن ـ يراقبان ويعانيان معًا، وينحنيان فوق طفل يحتضر.

في تلك الأثناء، شعر ألبرت بالانقباض بسبب ذلك الرعب الأخرس والروع الزاحف على المنزل، ولم يعد بقادر على النوم. وفي منتصف الليل نهض نصف لابس ومشى على رؤوس أخمص قدميه إلى باب الغرفة وسأل بهمس متوتر إن كان هناك شيء يمكنه القيام به. رد عليه أبوه:

ـ شكرًا لك، لكن ما من شيء يمكن فعله. عد إلى سريرك واعتن بصحتك.

ولما ذهب ألبرت، قال فرغوث لزوجته:

ـ اذهبي إليه واجلسي معه قليلًا. حاولي أن تسرّي عنه.

أطاعت بسرور، شاعرة بأن تلك كانت لفتة كريمة منه إذ فكر على هذا النحو.

وبعد ذلك بقيت مع زوجها ولم تتحمس للاستجابة لرجائه بأن تذهب لتنام حتى الصباح. ظهرت الممرضة عندما أشرقت الشمس وحلّت مكانه. ولم يحدث أي تغيير في حالة بيير.

قطع فرغوث الحديقة متحيرًا مترددًا وليس لديه أية رغبة في النوم. بيد أن عينيه الملتهبتين الكليلتين ومشاعره الكظيمة المخنوقة قد نبهاه إلى أن من الأفضل له أن يحاول أن ينام. غطس في البحيرة وطلب من روبرت أن يعد له قهوة. وفي المرسم نظر إلى تصميم لوحته الخاصة بالغابة. كانت اللوحة رشيقة قوية النكهة، طرية، لكنها لم تعد حقًا اللوحة التي ود أن

يرسمها، والآن انتهى كل شيء يتعلق بلوحته التي خطط لها طويلًا، ولن يرسم ثانية أبدًا هنا في روزهالده.

17

لم يحدث أي تغيير في حاله في الأيام التالية. كان ينقضُّ عليه في اليوم مرة أو مرتين تشنُّج أليم. وفيما عدا ذلك كان يبقى طوال الوقت راقدًا بأحاسيس واهنة هي إلى النوم أو الإغماء أقرب منها إلى الصحو، واستحال الطقس الحار إلى سلسلة من العواصف المصحوبة بالرذاذ ففقدت الحديقة والعالم بريقهما الصيفي الأخّاذ.

قضى فرغوث أخيرًا ليلة في سريره نائمًا، بعد ليالي وأيام من القلق المحموم. الآن وهو يرتدي ملابسه أمام النافذة المفتوحة، شعر بالبرد. اتكأ على النافذة مرتعشًا قليلًا وهو يتنفس هواء الصباح الممطر القاتم. كانت رائحة الأرض المبلولة تفوح مُبَشّرة باقتراب الخريف، واندهش، وهو الشديد الحساسية لتبدّل الفصول، إن الصيف قد انقضى عليه من دون أثر يذكر كما لو أنه لم يلحظه، ولم يستقبله. وبدا له أنه لم تنقض أيام وليالي معدودة، منذ أن مرض بيير بل أشهر طويلة.

ارتدى معطف المطر وذهب إلى المنزل. علم أن الطفل قد استيقظ مبكرًا. ثم غرق ثانية في النوم منذ ساعة، تناول إفطاره مع ألبرت الذي أخذ مؤخرًا مرض بيير مأخذًا جديًا فتألم كثيرًا بسببه مع أنه حاول ألّا يظهر مشاعره، وعانى كثيرًا من جو المنزل الشبيه بالمستشفى وما فيه من مرارة وقلق.

ولما ذهب ألبرت إلى حجرته ليشغل نفسه بالدراسة، ذهب فرغوث ليرى بيير الذي كان لا يزال نائمًا، وجلس في مكانه إلى جوار سرير المريض. أحيانًا ما شعر في الأيام الأخيرة بالرغبة في أن تحل النهاية سريعًا، ولو لم يكن ذلك إلا إشفاقًا بالطفل المسكين الذي لم يتفوه بكلمة واحدة منذ أمد لا يعلمه إلا الله، والذي بدا جدّ مُنهك وقد تقدمت به السن، وكان هو نفسه يبدو وكأنه يعلم تمامًا أن حاله صارت أبعد من كل مساعدة. ومع هذا، فإن فرغوث لم يرد أن يفقد ساعة واحدة بعيدًا عن ابنه، فلزم مقعده إلى جواره بعاطفة جياشة ضنينة. أوه، ما أكثر ما جاء إليه الصغير بيير ووجده متعبًا وغير مهتم، غارقًا في عمله، أو سابحًا في التفكير، ما أكثر ما كان عقله شاردًا وهو يمسك تلك اليد الصغيرة النحيلة بيده ونادرًا ما أصغى إلى كلمات الصغير، كلمة كلمة حيث صارت الآن كل كلمة منه كنزًا لا يقدّر بثمن لم يعد ممكنًا تدارك ذلك أبدًا.

أما الآن والطفل البائس يرقد في العذاب، يواجه الموت وحيدًا بقلبه المدلل الصغير الأعزل، الآن، وهو يشعر بالذنب، يعاني في بضعة أيام كل الألم المُفقد للحس، كل كرب اليأس وثقله حيث المرض، والضعف وتقدم العمر، ودنو الموت تفزع وتكظم قلب الإنسان، الآن، يتمنى أن يبقى معه دائمًا وأبدًا. ما ينبغي له أن يكون غائبًا وأن يفقد لحظة قصيرة قد يريده الطفل فيها، ويكون هو ذا نفع ما ـ مهما كان بسيطًا ـ للطفل، أو على الأقل ليظهر له القليل من الحب.

يا للدهشة، ويا للعجب، فإنه في ذلك الصباح قد كوفئ لمشاعره تلك. في ذلك الصباح، فتح بيير عينيه، وابتسم له، وقال بصوت ضعيف رقيق:

ـ بابا!

خفق قلب الرسام بعنف عندما سمع بعد طول انتظار الصوت الذي افتقده طويلًا طويلًا، الصوت الذي صار جد واهٍ، ودقيق، يناديه هو معترفًا به شاكرًا له. لقد مضى عليه دهر طويل منذ أن سمع ذلك الصوت وهو لا يتوجع وينتحب على نحو معذب نادبًا الأمة الخرساء، لقد صعقه الرعب والبهجة.

ـ بيير، حبيبي!

انحنى عليه بحنان وقبّل الشفتين الباسمتين. بدا بيير أنشط وأسعد أكثر مما أمل أبوه أن يراه مرة ثانية، كانت عيناه صامتتين يقظتين، والتجاعيد العميقة التي بين حاجبيه اختفت تقريبًا.

ـ هل تشعر بتحسن، يا ملاكي؟

ابتسم الولد الصغير ونظر إلى أبيه نظرة أقرب إلى الاندهاش. أمسك الأب يد صغيره، والتي لم تكن قوية يومًا ما والتي صارت الآن جد نحيلة وبيضاء ومتعبة، وضعها في يده.

ـ والآن، ستتناول إفطارك في الحال، وبعدها سأحكي لك العديد من القصص.

ـ أوه، نعم، قصص عن السيد لاركسبر.

كان هذا بالنسبة للأب معجزة، أن يتكلم بيير ويبتسم ويصير له مرة ثانية.

أحضر له طعام الإفطار، أكل بيير برغبة، حتى أنه لم يمانع في قبول تملّق أبيه له، وتناول بيضة ثانية. بعدئذ طلب كتاب صوره المفضل. وسحب أبوه بحذر ستارة النافذة قليلًا سامحًا لضوء اليوم الماطر الشاحب أن ينير الحجرة قليلًا، وحاول بيير أن يجلس كي ينظر إلى

الصور. بدت محاولته ناجحة دونما ألم، تطلّع في عدة صفحات باهتمام محييًا الصور المحببة إليه بصيحات مرحة قصيرة. ثم شعر بالتعب من الجلوس، وشرعت عيناه تؤلمانه قليلًا. ترك أبوه يضجعه مرة ثانية وطلب منه أن يقرأ له بعض الأشعار؛ وبخاصة تلك التي عن الخيارة الزاحفة التي ذهبت لترى الصيدلي الهدال.

يا صيدلي يا هدال

ساعدني بالدّهان!

لا أقدر أن آتي،

لا أقدر أن أمشي،

مفاصلي كلها تؤلمني

أحسّ فرغوث بغصة ألم في حلقه فلم يستطع أن يقرأ بطريقة هزلية مرحة كما كان يفعل في الماضي، ولكن بيير ابتسم له بامتنان. وافتقدت الأبيات الشعرية سحرها وتأثيرها القديم، إذ بدا وكأن بيير قد تقدم كثيرًا في السن منذ أن سمعها آخر مرة.

أيقظت الأبيات والصور العديد من ذكريات أيام المرح والضحك المشرقة، لكن المتعة السالفة والجذل، وخلو القلب من الهموم لم تعد كما كانت عليه، واسترجع بيير ـ دون أن يدري لماذا ـ طفولته التي كانت منذ أيام وأسابيع قليلة حقيقة معاشة، استعادها بتوق وألم رجل ناضج. لم يعد طفلًا بعد الآن. لقد صار مُعتلًا عاجزًا انسرب منه عالم الحقيقة، وصارت روحه قادرة أكثر على الاستبصار فأدركت سلفًا بحضور الموت المتربص يطل من كل جانب.

مهما يكن، فقد كان ذلك مفعمًا بالضوء والسعادة بعد كل تلك الأيام المُنَغصة. كان بيير هادئًا شاكرًا، وشعر فرغوث رغمًا عنه بين الفينة والأخرى بشيء من الأمل. أليس من الممكن أن يحيا الطفل بعد كل ما حدث؟ وحينئذ سيصير له، وله وحده!

جاء الطبيب ومكث وقتًا طويلًا بجوار سرير بيير لكنه لم يضايقه بالأسئلة أو الفحص. وعندئذ فقط، ظهرت فراو أيدل التي قضت الليلة الماضية هي والممرضة ساهرتين بجوار الطفل. غمرتها الفرحة أن شاهدت ما طرأ على بيير من تحسن غير متوقع. أمسكت يديه بشدة إلى حد أنها آلمته، وجاهدت بصعوبة لكي تحبس دموع الفرح التي طفرت من عينيها. وسمح

لألبرت أيضًا أن يدخل حجرة أخيه لبعض الوقت، قال فرغوث يخاطب الطبيب: "إنها معجزة. ألست مندهشًا؟"

هزّ الطبيب رأسه وابتسم بود، ولم يقل لا، لكنه لم يظهر أي حماس كبير. وفي الحال، راود الرسام الشك. أخذ يراقب الطبيب بانتباه، ورأى أنه حتى وهو يبتسم أن التركيز البارد والاستثارة المتحفظة لم يبارحا عينيه. وبعد أن سمع من خلال شق الباب إلى حديث الطبيب مع الممرضة، ومع أنه لم يكد يفهم كلمة واحدة، فقد بدا له ألّا شيء في نبرة الطبيب الهامسة سوى الخطر القاسي. وفي الأخير ذهب بالطبيب إلى جوار عربته، وسأله في الدقيقة الأخيرة:

ـ يخيل لي أنك لست متفائلًا كثيرًا بهذا التحسن؟

التفت الوجه القبيح الرصين، نحوه:

ـ كن سعيدًا أنه نال بضع ساعات لطيفة، ذلك الصغير المسكين! دعنا نأمل أن تلك الساعات ستدوم طويلًا.

ما من أثر لأمل يمكن أن يلحظه في عينيّ ذلك الداهية. وبسرعة، كمن لا يريد أن يضيع لحظة واحدة، عاد الأب إلى جوار سرير المريض. كانت فراو إيدل تحكي قصة "الجمال النائم"؛ جلس فرغوث إلى جوارها وراح يتأمل ملامح بيير وهي تتابع القصة.

سألت فراو إيدل:

ـ هل أحكي لك قصة أخرى؟

رد بيير بشيء من القلق:

ـ فيما بعد.

ذهبت إلى المطبخ تعطي أوامرها، وأخذ فرغوث يد الصبي. كانا صامتين، لكن بيير كان بين الوهلة والأخرى يتطلّع وقد ارتسمت في وجهه ابتسامة واهنة، كما لو أنه كان سعيدًا أن أباه إلى جواره.

قال أبوه بحنان:

ـ أنت الآن أحسن.

تورّد وجه بيير قليلًا، وتحركت أصابعه في يد أبيه تعابثها، وقال:

ـ أنت تحبني، يا بابا، أليس كذلك؟

ـ بالطبع، أنا أحبك، يا حبيبي. أنت ولدي الغالي، وحين تشفى، سنكون دائمًا معًا.

ـ أوه، نعم، يا بابا.. ذات مرة كنت في الحديقة، وكنت وحيدًا، ولم يحبني منكم أحد. لا بد أن تحبوني كلكم، ويجب أن تساعدوني كلكم عندما أتألم مرة ثانية. أوه، كم هو مؤلم ذلك الذي يحدث لي!

كانت عيناه نصف مغمضتين، وكان يتحدث بصوت جد خفيض حتى أن فرغوث اضطر لأن ينحني قريبًا من فمه كي يفهمه.

ـ عليكم أن تساعدوني. وسأكون طيبًا، يجب ألا تؤنبوني، أنت لن توبخني أبدًا، أليس كذلك؟ ويجب أن تخبر ألبرت بألّا يسخر مني أيضًا.

ارتعش جفناه ثم انفتحا، لكن نظرة عينيه كانت قاتمة، وكان بؤبؤاهما جد كبيرين.

ـ نم، يا طفلي، نم. إنك مرهق. نم، نم..

أغمض فرغوث عيني الطفل برقة وهو يهدهده كما كان يفعل أحيانًا وهو رضيع. وبدا أن الطفل قد استغرق في نومه.

وبعد ساعة حضرت الممرضة لتدعو فرغوث لتناول الطعام وجلست بجوار المريض بدلًا عنه. ذهب إلى حجرة الطعام صامتًا ذاهلًا، وتناول الحساء ونادرًا ما أصغى لما كان يقال بجواره. كان همس الطفل الرقيق الوجل الحبيب بتردد عذبًا حزينًا في أذنيه. أوه، يا إلهي! كم من المرات كان بوسعه أن يتحدث إلى بيير هكذا متلذذًا بتلك الثقة البسيطة الوادعة والحب السعيد، ولكنه أهمل فعل ذلك!

وبطريقة آلية مد يده إلى الإبريق ليصب لنفسه ماء. وعندئذ تهشم حلمه بصرخة حادة انبعثت من غرفة بيير هبوا ثلاثتهم بوجوه شاحبة، واندلق الماء من الإبريق على الطاولة وسقط الإبريق إلى الأرض.

كان فرغوث في الحال في غرفة بيير وصرخت الممرضة: "حقيبة الثلج".

لم يسمع شيئًا غير ذلك الصراخ الراجف البائس الذي التصق بوعيه مثل سكين في جرح هبَّ إلى السرير.

هنا يرقد بيير أبيض كالثلج، وقد تشوه فمه الجميل بصورة بشعة، وكانت أطرافه الذاوية ترتعد في تشنجات شديدة، وحدقت عيناه مذعورتين بطريقة مريعة. وفجأة، أطلق صرخة

أخرى أعلى وأوحش من الصرخة السابقة، وتقوّس جسده بعنف حتى صار السرير الثابت يهتز، ثم انخفض وارتفع تارة أخرى، توتر الطفل وتلوى مثل سوط في يد طفل غاضب.

وقفوا جميعًا، لا يلوون على شيء، وقد جمدهم الرعب، حتى راحت الممرضة تلقي أوامرها؛ ركع فرغوث بجوار السرير وحاول أن يمنع بيير من إيذاء نفسه وهو في تشنجاته. ومع ذلك، فإن يد الطفل اليمنى قد نزفت بعد أن اصطدمت بحافة السرير. ثم استرخى واستدار راقدًا على بطنه واخذ يعض وسادته، وشرع يحرك رجله اليسرى حركات منتظمة كان يرفعها ثم ينزلها ضاربًا السرير بأخمص قدمه. جعل يكرر الحركة عشر مرات، عشرين؛ أربعين.. وهكذا.

كانت النساء مشغولات بإعداد الكمادات ووضعها، وطلب من ألبرت أن يخرج، بينما كان فرغوث لا يزال راكعًا ينظر في قدم الطفل وهي تعلو وتهبط بانتظام غريب تحت الدثار، حتى امتدت وسقطت، وهدأت. ها هو ذا طفله ملقى هنا، طفله الذي كانت ابتسامته قبل ساعات فقط تشرق كشعاع شمس صغيرة، الذي كانت ثرثرته الطفولية الحبيبة المتوسلة قد مسّت قلبه وسحرته إلى أعمق أعماقه. ها هو ذا ملقى هنا، عبارة عن جسد يرتعش بآلية، حزمة بائسة من الألم والشقاء لا حول لها ولا طول.

صرخ فرغوث في يأس: "ها نحن هنا إلى جانبك، يا طفلي الحبيب، يا بيير، نحن هنا ونحاول مساعدتك."

غير أن الطريق بين شفتيه وعقل الطفل كانت قد انقطعت، وكلمات عزائه الناشدة، وهمسه الحاني والخالي من أي معنى لم يعد قادرًا على النفاذ إلى سمع الطفل الوحيد المحتضر. لقد صار بعيدًا في عالم آخر، يتمشى وحيدًا ظامئًا صاعدًا تلال العذاب والموت، وهناك، ربما في الوادي أسفل التلال، راح يصرخ مناديًا الرجل نفسه الراكع، إلى جواره، والذي كان مستعدًا لأن يعاني ويتجرع كل لحظة عذاب من أجل نجدة طفله.

أدركوا جميعًا أن تلك كانت النهاية. فمنذ تلك الصرخة الرهيبة. المفعمة بألم حيواني عميق، صار الموت جاثمًا يتربص مطلًا برأسه من كل نافذة وباب في المنزل. لم يتكلم عنه أحد، لكنهم جميعًا قد أدركوه. وتعرفوا عليه، ألبرت أيضًا، والخادمات في الأسفل، وحتى الكلب الذي راح يجري هنا وهناك، دونما توقف، في الممرات المفروشة بالحصباء مطلقًا همهمة ناشجة مذعورة. وعلى الرغم من أنهم جميعًا فعلوا كل ما يقدرون عليه، غلوا الماء،

وأحضروا قطع الجليد، وظلوا مشغولين هنا وهناك، إلا أن المعركة كانت قد انتهت، والأمل في الظفر بها كان قد فقد وتلاشى.

غاب بيير عن الوعي. كان جسده كله يرتعش، كأنما من البرد، وبين حين وآخر كان يطلق صرخات واهنة مرة بعد مرة، وبعد توقف ناجم عن الإعياء، شرعت رجله اليسرى ترتفع وتنخفض بانتظام كأنها تتحرك بتشغيل ساعة ما.

وانقضى نهار ذلك اليوم على هذه الحال، وكذلك مساؤه، وفي الأخير ليله. حتى حان وقت الصباح، عندما تعب المحارب الصغير واستنزفت قوته واستسلم لعدوه، وتبادل الوالدان نظرة صامتة من أعين أعياها الأرق والحزن والعذاب. وضع فرغوث يده على قلب بيير ولم يحس نبضًا.

وترك يده على صدر الطفل الغارق حتى صار باردًا. عندئذ، ربت على يدي فراو إيدل المثنيتين وقال في همس وهو يقود زوجته خارج الغرفة: "انتهى الأمر".

كان يسندها ويصغي إلى نحيبها الأجش، وهو يسلمها للممرضة، وأصاخ السمع إلى باب غرفة ألبرت ليتأكد إن كان صاحيًا، وبعد أن عاد مرة ثانية إلى غرفة بيير وسواه في سريره، شعر أن نصف حياته قد فارقه ورقد هناك على السرير وبرباطة جأش، فعل ما كان يجب فعله. وأخيرًا خرج تاركًا الطفل الميت للممرضة، ورقد رقدة قصيرة نام فيها عميقًا. ولما سقط ضوء الصباح مخترقًا النوافذ، استيقظ ونهض في الحال، وهجم محطمًا آخر لوحة قصد أن يرسمها في روز هالده. ذهب إلى حجرة بيير، وأزاح كل الستائر سامحًا لضوء الخريف المعتدل المشرق أن يدخل الغرفة مضيئًا وجه حبيبه الأبيض الصغير. عندئذ جلس إلى جوار السرير، ونشر قطعة من الورق، وآخر مرة، رسم الملامح التي طالما درسها من قبل، والتي عرفها وأحبها منذ بداياتها الناعمة الرقيقة، والتي قد نضجت وصارت بسيطة بفعل الموت، لكنها لم تزل مليئة بعذاب مبهم وغير مفهوم.

18

سطعت الشمس مشرقة حمراء ترسل أشعتها المتقدة خلال ذوائب السحب الماطرة، وعادت العائلة الصغيرة في العربة بعد دفن بيير. جلست فراو إيدل منتصبة في ركن العربة، كان وجهها ذاويًا جافًا من كثرة البكاء، وقد بدا صارمًا وضّاء على نحو غريب وهو يتطلع بين القبعة السوداء والثوب الطويل الأسود. وكان جفنا ألبرت متورمين، وقد ظلّ طوال رحلة العودة ممسكًا بيد أمه. قال فرغوث محاولًا أن يصرفهما مما هما فيه: "إذن، فستغادران غدًا. لا تقلقا بشأن أي شيء. لسوف أتولى الاهتمام بكل شيء هنا، وأعمل كل ما يجب عمله، ارفع رأسك، يا بني."

وفي روزهالده كانت أشجار الكستناء تلمع في الضوء وتقطر وقد نقعها المطر، ترجلوا من العربة ومضوا تحت الرذاذ داخلين إلى المنزل، حيث كانت الخادمات ينتظرنهم وقد ارتدين السواد، كنّ يتهامسن في انتظارهن. وأقفل فرغوث حجرة بيير. كانت القهوة معدة، وجلس ثلاثتهم حول المائدة. قال فرغوث: "لقد حجزت لكما غرفتين في مونتركس. احرصا على أن تحظيا براحة جيدة، وسوف أغادر أنا أيضًا، بمجرد أن أفرغ من هنا. وسيبقى روبرت هنا ليحافظ على إبقاء كل شيء مصونًا وسوف أعطيه عنواني".

لم يكن أحد يصغي لما يقوله؛ إذ ساد صمت عميق ثقيل الوطأة عليهم جميعًا مثل جليد. كانت فراو إيدل تتطلع بثبات في الفراغ وتجمع الفتات من قماش الطاولة وقد قفلت على أحزان قلبها ولم ترد أن يوقظها أحد. وقلّدها ألبرت. أما الآن، بعد أن رقد الصغير ميتًا ووري الثرى، فإن ما كان بينهم من تشابه، وما كان يربط الأسرة ويوحدها قد تلاشى وانتهى كما يتلاشى التهذيب، الذي حوفظ عليه بجهد جهيد، من وجه رجل بمجرد أن غادر المنزل ذلك الضيف القوي المخيف.

وحده فرغوث صمد في وجه الظروف، وراح يلعب دوره محتفظًا بقناعه إلى آخر لحظة. لقد خشي طبعًا أن يؤثر عليه منظر نسوي ما فيضطره إلى تأخير موعد رحيله من روزهالده ولذا، فقد ودّ في قرارة قلبه أن يرحل هذان الاثنان، وظل ينتظر بحماس لحظة مغادرتهما.

لم يشعر بالوحدة وهو جالس في غرفته الصغيرة في ذلك المساء. وهناك في المنزل كانت زوجته تحزم الحقائب. كتب عدة رسائل إلى بركهارت يخبره باقتراب موعد مجيئه، ولم يكن قد أطلعه حتى ذلك الحين عن موت بيير، وإلى محاميه، وإلى البنك، معطيا إياهم آخر تعليماته.

وبعد أن فرغ مما كان عليه أن ينجزه، راح يتأمل رسم بيير الميت الذي نصبه أمامه. إن بيير الآن يرقد في باطن الأرض. فكّر فرغوث إن كان يستطيع مرة ثانية أن يهب قلبه، أن يشارك أحدًا ما معاناته مثلما فعل مع بيير. إنه الآن يرقد في باطن الأرض. وها هو الآن وحيدًا وحدة كاملة.

ظلّ يتطلّع في الرسم لوقت طويل، الخدين المرتخيين الواهنين، الجفنين المسبلين على العينين المتصلبتين الضعيفتين. وبعد ذلك، احتفظ بالصورة في الدرج وأغلق عليها المرسم، وأخذ معطفه وخرج.

كان الليل قد حل في الحديقة، وكان كل شيء ساكنًا هادئًا. وهناك في البيت، كانت بعض النوافذ مضاءة، لم تعد تهمه أية نوافذ مضاءة. أما هناك تحت أشجار الكستناء، في الرذاذ المتساقط، فتوجد تعريشة صغيرة في الممر المفروش بالحصباء، في حديقة الأزهار، كانت لا تزال توجد أنفاس حياة وذكرى ما. هناك أراه بيير، ألم يكن ذلك منذ سنوات طويلة؟ فأرًا صغيرًا أسيرًا، وهناك إلى جوار نبات القبس، تحدث بيير مع أسراب الفراشات الزرقاء، واخترع للزهور أسماء جميلة رائعة. وهنا بين خُنّ الدجاج ووجار الكلب وعلى المرج والممشى الذي تحت أشجار الليمون، عاش بيير حياته الصغيرة القصيرة، ولعب ألعابه؛ هنا، ترددت ضحكاته الطفولية الرقيقة الحرة، وكل فتنة من مفاتن ذاته المستقلة وطبعه المتميز الفريد، كلها كانت تقيم هنا. وهنا، استمتع، من دون أن يرقبه أحد، بمسراته الطفولية، وعاش حكايات جنياته، وأحيانًا، وربما كان غاضبًا أو باكيًا عندما شعر بأنه أهمل أو أسيء فهمه..

تجوّل فرغوث في الظلام، وزار كل بقعة احتفظت بذكرى ما عن طفله الصغير. وأخيرًا، ركع قرب كومة بيير الرملية، وبرّد يديه بملامسة الرمل الندي. صادفت يداه شيئًا ما مصنوعًا من الخشب، والتقطه، فتبيّن أنه مجرفة بيير. عندئذ، انهار، وخذلته إرادته، ولأول مرة في تلك الثلاثة الأيام العصيبة، صار قادرًا على البكاء دونما تحفظ، فانخرط في نشيج أليم مبحوح.

وفي اليوم التالي، تحدث مع فراو إيدل لآخر مرة، قال:

ـ حاولي أن تجتازي هذا الكرب، ولا تنسي أن بيير كان يخصني أنا. كنتِ قد منحتني إياه لو أنه عاش، وأنا أشكرك ثانية على ذلك. وحتى لو أنني كنت حينها أعلم أنه سيموت، إلا أنه كان كرمًا عظيمًا منك. والآن، عيشي، تمامًا، كما تريدين، ولا تستعجلي على شيء. احتفظي بروزهالده في الوقت الحاضر، فقد تندمين لو أنك تعجلت بيعه. سوف يطلعك كاتب العدل بانتظام عن أحوال الأسعار، لقد قال لي إن سعر الأرض في هذه المنطقة سيرتفع بالتأكيد. إنني أتمنى لك كل خير، وأحسن حظ. لم يبق شيء هنا يخصني ما عدا تلك الأشياء التي في المرسم، وسوف آمر بنقلها بعيدًا فيما بعد.

ـ شكرًا لك.. وأنت؟ ألن ترجع إلى هنا أبدًا؟

ـ لا. لن يكون هناك أي معنى للعودة. وأنا أريد أن أخبرك ما يلي. إنني لم أعد أشعر بأية مرارة. أنا أعرف أنني أنا نفسي كنت الملوم على كل شيء.

ـ لا تقل ذلك. أنا أعرف أنك تعني ما تقول، لكن ذلك يجعلني أكثر تعاسة. وأنت الآن ستمكث هنا لوحدك، وستترك كل شيء خلفك. لم يكن أمرًا سيئًا لو أنك كنت قادرًا على نيل بيير لكن هذا ما حدث ـ لا، ما كان ينبغي أن يحدث شيء من هذا. إنني أنا الملومة أيضًا، أنا أعرف ذلك..

ـ لقد قدمنا بآلامنا في الأيام الأخيرة كفارة. وما ينبغي أن تقلقي أو تغتاظي، سيكون كل شيء على ما يرام، وما من شيء في حقيقة الأمر يدعو لأن تأسفي من أجله. انظري، إن معك ألبرت الآن وهو لك وحدك. وأنا لي عملي. وهذا يجعل كل شيء محتمل. وأنت أيضًا ستكونين سعيدة أكثر مما كنت عليه لسنين خلت.

كان هادئًا تمامًا مما ساعدها على التماسك والتحكم بنفسها. أوه، لقد كان هناك الكثير، الكثير جدًا مما تود قوله له، أشياء ودت أن تشكره عليها، وجدت أنه كان على صواب. كان واضحًا لديه أن كل شيء ما تزال تشعر به هي، بأنه حياة حاضرة، قد صار ظلًا من الماضي. لم يعد هنالك من شيء يمكن فعله سوى أن تكون هادئة وتدع الماضي يصير ماضيًا. وهكذا استمعت بصبر وانتباه إلى توجيهاته، مندهشة كيف أنه فكر بكل صغيرة وكبيرة تفكيرًا دقيقًا وافيًا من دون أن يهمل شيئًا.

لم يقل كلمة واحدة عن الانفصال. وكأن تلك كانت مجرد مسألة ثانوية يمكن الحديث بشأنها في وقت ما في المستقبل عندما يعود من الهند.

وبعد الغداء غادروا إلى المحطة. وهناك وقف روبرت مع كل الحقائب وسط ضجيج وسخام القبة الزجاجية. أوصلهما فرغوث إلى عربتهما، واشترى الصحف لروبرت ونا وله قسائم الحقائب، ثم انتظر على الرصيف قريبًا من نافذة عربتهما حتى أخذ القطار يدرج على القضبان. عندئذ نزع قبعته ولوح بها محييًا لهما، وظل ينظر إلى القطار حتى توارى ألبرت من النافذة.

وفي طريق العودة إلى البيت، أخبره روبرت ردًا على سؤاله كيف أنه فض موضوع خطوبته المستعجلة، وتخلص من ذلك الارتباط غير المناسب. كان النجار ينتظر عودتهما في البيت ليعد لوحات فرغوث الأخيرة في صناديق الشحن. وفي الوقت الذي سيتم فيه إرسالها، سيغادر هو أيضًا. كان يترقب تلك اللحظة بفارغ الصبر.

أكمل النجار عمله. أما روبرت فكان يشتغل مع إحدى الخادمات اللاتي بقين في المنزل؛ حيث غطيا الأثاث، وأقفلا الأبواب والنوافذ. أما فرغوث فراح يتمشى ببطء في مرسمه، وغرفة طعامه وغرفة نومه. ثم خرج يتمشى حول البحيرة وفي الحديقة. لقد قطع هذه الجولة مئات المرات، لكنها اليوم مختلفة، إذ أن كل شيء من حوله، المنزل والحديقة، البحيرة والباحة، راحت ترجع أصداء الوحدة والعزلة. هبت الرياح باردة في الأوراق الصفراء جالبة معها سحبًا ممطرة ناعمة كالصوف أخذت تحوم على علو منخفض. ارتعش الرسام من البرد. لقد ذهب الجميع الآن. لم يعد هنالك أحد ليعتني به أو يهتم بأمره، لا أحد ليضطر في حضرته أن يحافظ على رباطة جأشه، الآن فقط، في هذه الوحدة الجليدية، كانت الاهتمامات والليالي الأرقة، الحمى الراعشة والهموم الباهظة التي أثقلته.

لقد شعر بكل ذلك، ليس فقط بعقله وعظامه، بل في أعماق قلبه. في تلك الأيام انطفأت آخر ومضات وأحلام الشباب الواهنة؛ غير أن الوحدة الباردة وفقدان السحر والفتنة لم يعودا يثيران مخاوفه.

ماشيًا الهوينى، راح يتتبع حياته، التي لم يحدث له أن رأى من قبل نسيجها البسيط بوضوح تام. بدا له من دونما مرارة، أنه قد مضى في تلك الدروب. مغمض العينين. ورأى بوضوح أنه، رغم محاولاته العديدة؛ ورغم أشواقه التي لم تفارقه لحظة، قد اجتاز حديقة الحياة. وأنه لم يبق في حياته كلها شيء من الحب إلا واستنفده، خاصة في تلك الأيام الأخيرة. وبجوار سرير

طفله المحتضر، عرف، في وقت متأخر جدًا، حبه الوحيد الحقيقي، عندئذ نسي، ونهض فوق متاعبه. والآن ستكون تلك هي تجربته، ذخيرته البائسة القليلة، طالما ظل على قيد الحياة.

ما بقي له سوى فنه، فنه الذي لم يشعر تجاهه بالثقة مثلما يشعر الآن. فيه بقي عزاء الغريب المتوحد، الذي لم يعط الفرصة ليقبض كأس الحياة ويفرغها، هنا بقي هو الغريب، باردًا ولكن عنيدًا لا يقاوم، كي يراه، ويرقبه، ويسهم بفخر مبهم دفين في العمل الإبداعي الخلّاق. تلك كانت فضالة وقيمة حياته الخائبة، العزلة الرابطة الجأش وبهجة الفن الباردة، وأن يواصل تلك البداية دون التفات أو مداورة، سيشكل من الآن فصاعدًا قدره ومصيره.

أخذ يستنشق الهواء الندي بعمق، العبق المركز المرارة في هواء الحديقة، وفي كل خطوة بدا له أنه كان يدفع الماضي كمن يدفع قاربًا بعد أن بلغ الشاطئ، ووجد ألّا حاجة له به بعد. كانت تأملاته هذه وما آل إليه تفكيره هذا، خاليًا من أي استسلام؛ مليئًا بالتحدي وحب المغامرة. راح يتطلّع للحياة الجديدة، التي اقتنع بأنها لن تكون تحديقًا أو تجوالًا ضبابيًا قاتمًا، بل تسلّقا عاليًا شجاعًا. وفيما بعد، وبألم أكثر، ربما أكثر من ألم معظم الناس، استأذن مغادرًا شفق الشباب بأحلامه العذاب. ووقف الآن، متأخرًا بائسًا في ضوء النهار الشاسع، عازمًا ألا يضيع ساعة واحدة من وقته الثمين.

النهاية

قالوا عن الكتاب

"ما إن عاد أوتو بركهارت من موطن إقامته في الشرق الأقصى، حتى بادر إلى زيارة صديقه القديم يوهان فرغوث الرسام الشهير في روزهالده بيته الريفي الجميل. غير أن روزهالده لم يعد سوى منزل لحبه الوحيد الباقي للطفل الصغير بيير بعد أن صار والداه غريبين أحدهما عن الآخر.

لقد حُكيت القصة بشكل موجز، مدهش، ثري؛ ما من شيء أُهمل، وما من عبارة أو شعور غاب.. وفي روايته المحكمة هذه، لم يحكِ هيرمان قصة الفنان بعبارة عابرة فقط، بل أوضح بأسلوب فني رقيق ساحر خطة تطوره كفنان، ورسم صورة لطفل لا نظير له في الرقة والشفافية والواقعية".

(فايننشل تايمز- Financial Times)

"المدهش بصورة استثنائية في هذا الكتاب هو حدة اللغة وكثافتها الشديدة".

(الغارديان- The Guardian)

"عذوبة بالغة النقاء والقوة".

(الديلي تلغراف- The Daily Telegraph)

"رقيقة، مرهفة، بارعة بشكل غير مألوف".

(الأوبزيرفر- The Observer)